



برهان شاوي

متاهة آدم

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

متاهة آدم

رواية

برهان شاوي

في تلك اللحظة بالذات من ذلك الفجر البغدادي الضبابي الكثيف. في تلك اللحظة بالذات رأى المهندس آدم المطرود وجه السيدة حواء الصايغ. كان وجهها كبيرا، كبيرا جدا، بحجم السماء، وهي تنظر إليه من الأعالي والدموع تنزل من عينيها، نادبة مصيره المأساوي الغامض والغريب.

وفي تلك اللحظة اقترب الشرطي آدم الضبع منه فوجده يتسم ابتسامة عذبة. كان آدم المطرود يتسم للسيدة حواء الصايغ، بينما استغرب الشرطي الضبع هذه الابتسامة على وجهه الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، فاعتبر ذلك سخرية منه ومن جبروت السلطة، فأطلق وابلا من الرصاص على جبين آدم المطرود مهشما جمجمته ومشوها وجهه بالباسم البريء.

بعد لحظات من الإعدام الجماعي نزل السائق وهو يحمل معولاً، وأقرب من القبر الجماعي وأخذ يدفع بكومة التراب عند حافة الحفرة على الجثث في تلك الحفرة المظلمة. بينما وقف الضبع مصوباً رشاشه نحو سرب من عسافير الصباح مر فوق القبر الصباحي المظلم، مطلقاً سيلا من الرصاص الأعمى.

كانت بغداد بعيدة، وكان الضوء الذي بدأ ينير السماء والأشياء يكشف عن حفر فارغة الأفواه على امتداد البصر، حفرة تنتظر من تلتهمه في أعماقها، وكانت ثمة بقع يبدو من لون التراب المبتل قليلا بندى الصباح أنها ابتلعت أناسا أبرياء ربما تم إعدامهم في مثل هذا الفجر. وكان الناظر إلى هذا المكان يحس وكأنه في مقبرة هائلة، في متاهة لا مخرج أو مفر منها. متاهة بني آدم.

متاهة آدم

رواية

تصميم الغلاف: علي القهوجي
لوحة الغلاف: ليلة صيف
زيت على الكانفس للفنان فؤاد ميرزا



جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات. كوم
www.nwf.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspsbooks.com

متاهة آدم

متاهة آدم

ADAM'S LABYRINTH

رواية

بُرهان شاولي
Burhan Shawi



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L.

الطبعة الأولى
1433 هـ - 2012 م

ردمك 2-0482-01-614-978

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (+961-1)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (+961-1)

﴿ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾

(سورة الأعراف، الآيات: 24-25).

(كلُّ الأتھام تجسري إلى البحر والبحرُ ليس بمالآن. إلى المكان الذي جرت منه الأتھامُ إلى هناك تذهب مراجعة. كلُّ الكلامِ يقصُر. لا يستطيع الإنسان أن يُخبر بالكلِّ. العين لا تشبع من النظر والأذن لا تمتلئ من السمع. ما كان فهو ما يكون والذي صُنِع فهو الذي يُصنع فليس تحت الشمس جديدٌ ووجهت قلبي بمعرفة الحكمة ولمعرفة الحماسة والجهل. فعرفت أن هذا أيضا قبض مريح. لأن في كثرة الحكمة كثرةُ الغم. والذي يزيد علما يزيدُ حُزنا).

العهد القديم - سفر الجامعة

المحتويات

9 يقظة آدم

متاهة آدم

- 17 (1) الكابوس
- 21 (2) يوم عادي .. عادي جدا
- 25 (3) محنة حواء المؤمن
- 34 (4) النساء خُلِقن هكذا
- 37 (5) أحلام وكوابيس
- 42 (6) هروب آدم التائه
- 77 (7) حمار في السرير
- 83 (8) المرأة المجهولة

المرأة المجهولة أو متاهة آدم

- 254 النهاية
- 256 الفصل التاسع: تحولات حواء المؤمن
- 266 الفصل الحادي عشر: تحولات الدكتور آدم التائه
- 282 الفصل الثاني عشر: صلاة، وقبر .. أشباح، واغتصاب
- 289 الفصل الثالث عشر: الجني الأزرق
- 398 الفصل الرابع عشر: باب الضياع
- 304 الفصل الخامس عشر: طفل الخطيئة
- 314 الفصل السادس عشر: شهران من الشك
- 319 الفصل السابع عشر: بصقة النهاية
- 324 الخاتمة
- 326 سبات آدم .. يقظة آدم

يقظة آدم

دوى انفجار هائل فاهتزت البناية. فز آدم البغدادي من نومه مرعوباً على صوت الانفجار الذي ارتجت جدران الشقة وأرضيتها من قوته. أحس نفسه متعباً. شعر بصداع شديد يضغط على جمجمته، وحموضة تصعد من معدته وتصل حتى بلعومه. رفع رأسه قليلاً ليجد نفسه على الصوفا الجلدية في الصالة. لقد غرق في النوم بعد أن وضع بعض اللمسات على مشاهد وفصول روايته الجديدة التي خطط لها منذ فترة وأنجز منها ما أستطاع.

نهض قلقاً ليطل من النافذة المشرفة على مشهد مفتوح من بغداد فرأى دخاناً كثيفاً يتعالى من جهة منطقة الصالحية، وسمع صوت إطلاقٍ كثيف للرصاص وهدير سيارات الإسعاف الذي يؤكد بأن كارثة قد وقعت.

إعتاد آدم البغدادي على هذه المشاهد التي صارت من يوميات بغداد وجزءاً من حياة العراقيين. لا يدري لماذا فكر لحظتها وهو يرنو نحو جهة الانفجار بعدد الأجساد التي يمكن أن يكون الانفجار قد مزقها. يا لعشية هذه الحياة، إذ صار العراقيون يتعاملون مع الأرقام، مع عدد الضحايا!! فالانفجار الذي يخلف المئات أو حتى العشرات هو الذي صار يحظى باستنكار الحكومة والأحزاب، بينما الانفجار الذي يمكن أن يمزق اثنين أو ثلاثة أو ستة أو حتى عشرة أشخاص يمر دون أي استنكار أو انتباه من قبل الحكومة والأحزاب، ولا ينتبه له إلا أهل الضحايا. يا لعبث الحياة في العراق.

فكر لحظة مع نفسه: لماذا لا يشعر برغبة في الكتابة عن كل هذه

الأحداث؟ هل هي ليست واضحة بالنسبة له؟ هل هي غير مهمة؟ أو هي لا تصلح لعمل روائي؟ أو أن مثل هذه التحولات التاريخية والأحداث الجسام والمرعبة التي حدثت في بلاده تحتاج إلى وقت أطول حتى يأتي من يستطيع الكتابة عنها؟ وكان يجيب على سؤال نفسه: نعم، هي واضحة ومهمة وتصلح لعشرات الأعمال الأدبية والفنية، لكنه لم يجد الجواب عن سبب عدم رغبته الشخصية في الكتابة عن الأحداث المرعبة.

قبل أشهر انفجرت سيارة ملغومة في تقاطع الشوارع الذي يسكن عند منعطف أحدها، وكان ينظر إلى ذلك المشهد المرعب من نافذة غرفة النوم. بقي لفترة طويلة ينظر إلى الناس الذين تراكضوا إلى موضع الانفجار ليساعدوا الضحايا والجرحى. لاحظ كيف جاءت قوات الشرطة لتفرق الناس وتمنعهم من الاقتراب لاسيما بعد أن جاءت سيارات الإسعاف لنقل الضحايا والجرحى، لكنه ركز على رجل بعينه، أثارته حركاته المريبة، إذ كان برغم المصاب الأليم يتبع امرأة لم يتبين كم عمرها من نافذته، وكان الرجل يحاول الالتصاق بها في زحمة الناس الذين تجمهروا.

الفضول الأدبي دفعه لتتبع هذا المشهد. لاحظ أن المرأة التفتت للرجل وكأنها انتبهت لمحاولة التصاقه الجسدي بها، فتحركت من مكانها وذهبت إلى مسافة بعيدة عنه، لكنه تبعها أيضا والتصق بها من الخلف أكثر حتى أنه حجبتها عن مشهد نظره، وحينما تفرق الناس شيئا فشيئا لاحظ أن الرجل كان يتحدث مع المرأة ويمشي بجانبها على مسافة، وشيئا فشيئا اقترب منها وصارا يمشيان معاً، وابتعدا عن مكان الانفجار قليلا ثم انعطفا إلى الشارع المجاور الذي يتبع التقاطع، فأوقف الرجل سيارة تاكسي وصعد مع المرأة واختفيا عن مدى نظره.

فكر مع نفسه يا لعبث الحياة، ناس تتمزق من الانفجار وآخرون يهرعون لنجدتهم دونما خوف من انفجار مزدوج، بينما هناك من لا يؤثر

فيه مشهد الموت الفظيع بل تراه يتبع شهوته العمياء.
تحرك آدم البغدادي من عند النافذة ليجلس على الصوفا الجلدية
ثانية. انحنى إلى الأرض مفكرا واضعا رأسه بين يديه، سائلا نفسه: متى
ينتهي هذا الموت المجاني؟

قبل عام تقريبا كان قد التقى أحد معارفه من الكتاب الذين غادروا
العراق في تسعينات القرن الماضي، وكان هذا الكاتب قبل مغادرته
يعمل أستاذا في جامعة بغداد، وكان قد أصدر رواية غريبة البناء والحبكة
تقترب لحد ما مع عوالم الكاتب التشيكي فرانتس كافكا، لاسيما في
روايته المعروفة (التحول) والتي ترجمت إلى العربية بعنوان (المسخ)،
لكن هذا الأستاذ الأديب غادر العراق لأسباب مجهولة بالنسبة إليه، ثم
سمع أنه ذهب إلى إحدى الدول الخليجية ليعمل مدرسا في إحدى
جامعاتها، وخلال اللقاءات معه سمع منه قصصا مختلفة عن رحلته من
لحظة خروجه من البلاد وحتى عودته القصيرة إلى بغداد والتي انتهت
نهاية فاجعة.

من خلال هذه اللقاءات المتكررة معه راودت آدم البغدادي فكرة
كتابة رواية عن كل ما سمعه منه، وفعلا كتب روايته عنه وعن حياته مع
زوجته وسفرهما إلى أوروبا وما واجهه هناك.

كان آدم البغدادي يسأل نفسه أحيانا أسئلة تدخل في صلب العملية
الإبداعية والجمالية، وأحيانا كان يجيب عليها بنفسه مستذكرا مواقف
وإجابات النقاد وعلماء الأدب على مثل هذه الأسئلة، إلا أنه لا يتردد
من أن يطرح على نفسه الأسئلة ذاتها، فمثلا يسأل: هل يكفي أن يسمع
من الآخرين سردا لحياتهم ومشاعرهم والأحداث التي مروا فيها لكي
تكون مادة لعمل روائي؟ وإلى أي حد يمكن للكاتب أن يغير من مسار
الأحداث ويلون عوالمها ويخلق شخصيات وهمية من عنده؟. من أين
يستمد الكاتب والمبدع بشكل عام مادته الإبداعية، من الذاكرة الفردية

أم الذاكرة الجمعية؟ من الوعي الذاتي أم الوعي الجمعي؟ وكيف يمكن للاوعي الفردي والجمعي أن يتدخل في العمل الإبداعي؟ أين دور التجربة الحياتية والروحية في تشكيل المادة الإبداعية؟ وكيف تولد الشخصيات في مخيلته الإبداعية؟ هل تمر بمرحلة كمنون أو حمل كما تحمل المرأة أو أنها تنبثق فجأة وتقفز من العدم؟ هذه الأسئلة وغيرها كانت تلح عليه كلما خطط لكتابة رواية.

اشتد نفير سيارات الإسعاف بشكل يقبض النفس ويدفع إلى التفكير بهول الانفجار وكثرة الضحايا. فتش آدم البغدادي عن جهاز الريموت كونترول، فلا شك في أن المحطات التلفزيونية ستبث خبرا عاجلا عن الانفجار وضحاياه. وجد جهاز الريموت كونترول ملقى على الأرض عند حافة الصوفا فأخذه وضغطه فأطلت إحدى المذيعات العراقيات وهي تجري مقابلة مع فنان، بينما كان الشريط الإخباري الذي يحمل عنوان: (عاجل) يشير إلى حصول انفجار نتيجة عملية انتحارية مزدوجة في هجوم على محافظة بغداد. انتقل إلى محطة فضائية أخرى تبث من خارج البلاد فشهد أنها تبث شريطا مسجلا عن بعض تفاصيل الحادث وكأنهم كانوا هناك لحظتها. ضغط مرة أخرى منتقلا لقناة ثالثة فوجدتها تعلن عن تفاصيل تختلف عن القناتين اللتين شاهدهما، فأحس بانزعاج وانقباض وغضب خفي من هؤلاء الذين اقترفوا هذه الجريمة ومن محطات التلفزيون التي تكشف عن لا مباليتها، وكأنها شكرت الرب على هذا الحادث الذي أنقذها من تكرار برامجها ومنحها مادة لأيام قادمة. سأل آدم البغدادي نفسه متى ينتهي كل هذا؟ ومن وراءه؟ محطات التلفزيون وجهت من خلال المسؤولين الرسميين الاتهام إلى تنظيم القاعدة، لكنه لا يصدق بأن تنظيم القاعدة هو وحده وراء هذه التفجيرات المرعبة.

استمر لدقائق ينظر لشاشة التلفزيون التي أخذت تعرض مشاهد من

تفاصيل المكان وموقع الانفجار موجعة للقلب. ضغط على أحد الأزرار ليوقف البث التلفزيوني. وضع جهاز الريموت كونترول على الطاولة التي أمامه ثم توجه إلى زاوية المطبخ ليغلي الماء وليصنع لنفسه كوبا من النسكافيه.

أحس برغبة في أن يعيد كتابة النص الروائي الذي انتهى منه ليلة أمس. صب الماء المغلي في الكوب الذي كان قد وضع فيه ملعقتين من مسحوق النسكافيه، وحمل كوبه متوجها إلى طاولة الكتابة التي كانت تحمل بعض الكتب إلى جانب ملزمة من الأوراق المليئة بالكتابة. جلس آدم البغدادي على كرسيه قرب الطاولة، وسحب ملزمة الأوراق إليه بعد أن وضع الكوب جانبا. قرأ صفحة الغلاف التي كانت تحمل عنوان الرواية (السقوط إلى الأعلى) فشطب العنوان وكتب عنوانا جديدا هو (متاهة آدم). فكر أن عنوان (متاهة آدم) ربما يعبر عن فكرة الرواية وأحداثها أكثر من (السقوط إلى الأعلى).

كان آدم البغدادي قد قسم عمله إلى فصول - مشاهد أقرب للسيناريو السينمائي منه إلى الفصول المتعارف عليها في النص الروائي. أخذ رشفة نسكافيه ثم بدأ بقراءة النص لكي يمرر عليه تعديلاته. وجد أمامه الفصل الأول من العمل والذي كان يحمل عنوان (الكابوس)، فبدأ القراءة.

متاهة آدم

(1)

الكابوس

غرفة واسعة، جدرانها مطلية بورق أبيض. في أقصى الغرفة سرير يغطيه شرشف بنفسجي اللون، وثمة امرأة شابة بثوب وردي تغط في نوم عميق. جدران الغرفة عارية إلا من دمية صغيرة من القماش معلقة بخيط متصل بمسمار صغير جدا على الجدار المقابل لسرير المرأة الشابة. فجأة يدخل كلب أسود كبير. يقفز الكلب على السرير باتجاه المرأة النائمة. يتدفق الدم كالنافورة ليغطي الجدران البيضاء، وتسقط الدمية من على الجدار.

فزت حواء المؤمن من نومها مرعوبة. تحسست عنقها برعب. نظرت إلى فراشها وإلى الجدران ثم إلى المكتبة التي تضم كتبا كثيرة باللعة العربية وبعض القواميس الألمانية والانكليزية والتي تعود لزوجها الدكتور آدم التائه، وكأنها تبحث عن شيء. استرخى وجهها حينما تأكدت بأن الأمر لم يكن سوى كابوس.

شعرت للحظات بأنها غير قادرة على التفكير. أحست أن رأسها يخلو من أية فكرة، بل إنها عاجزة عن إستعادة تفاصيل الكابوس. كانت حنفية الماء تقطر بانتظام وصوت الساعة المنضدية على التلفزيون يشير إلى الواحدة صباحا، وشاشة التلفزيون تبعث أزيزا لأن البث قد انتهى. ظلت حواء المؤمن مستلقية على الصوفا الجلدية وملتفة بالبطانية في غرفة الاستقبال. انتبهت أن أحداث الكابوس جرت في غرفة النوم وعلى سريرها وليس في غرفة الاستقبال حيث تمددت على الصوفا.

كان الجمر متوهجا في الموقد الفحمي والليل يبدو أزرق من وراء النافذة الزجاجية الوحيدة. نظرت نحو الباب الذي يفضي مباشرة إلى خارج الشقة حيث درج البنية الخشبي. لم يقطع سكون تلك اللحظات إلا الإيقاع المنتظم لقطرات الماء النازلة من الحنفيه، وصوت عقرب الساعة.

نهضت بتكاسل لتشرب الماء. أطفأت وهي في دربها إلى المطبخ جهاز التلفزيون. كانت حزينه وتحس بالفراغ. دخلت المطبخ. ضبطت الحنفيه التي كانت تقطر وفتحت الثلاجة. أخرجت قنينة الماء وشربت منها مباشرة. وضعت القنينة في الثلاجة ثانية ثم توجهت إلى غرفة النوم. بعد دقائق عادت منها وهي تحمل ألبوما للصور. توجهت إلى غرفة الاستقبال وجلست على الصوفا في مكانها السابق. تمددت وغطت ساقيها وبطنها بالبطانية، وبدأت تقلب صفحات الألبوم بانتظام.

مر وقت على حواء المؤمن وهي تقلب صفحات الألبوم، وأخيراً ألقته قرب رأسها بعد أن شاهدت جميع الصور. بقيت لفترة تتأمل سقف الغرفة. لم يكن هناك سوى صوت الساعة وهي تتكناك، وشيئا فشيئا غرقت في غفوة دون إرادة منها.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة، حينما تعالت أصوات لوقع خطوات قادمة من جهة السلم الخشبي. فزت من نومها على صوت محاولة فتح الباب المقفل من الداخل. ألق نظرة سريعة على الساعة ثم نهضت باحتراس متجهة نحو الباب لكن دونما فرع، فقد خمنت أنه زوجها آدم، وبالرغم من ذلك وقفت بجانب الباب ويدها على المفتاح ثم سألت:

– من؟

فجاء صوت خافت من وراء الباب:

– افتحي أنا آدم..

فتحت الباب فدخل رجل وسيم في منتصف الأربعينات من العمر،
فقال له بغضب مكتوم ممزوج بنبرة مشبعة بالنعاس:
- أين كنت إلى هذا الوقت المتأخر من الليل؟
- أين كنت.. عند أصدقائي..
ثم أندفع إلى الصوفا ملقيا نفسه بتعب عليها سائلاً:
- هل لدينا ما يؤكل.. أنا جائع؟
- يوجد لدينا رز وفاصوليا..
لم يجبها بشيء وإنما نهض متوجهاً إلى جهة المطبخ، فعلمت مستاءة:
- يعني أما كان بالإمكان أن تأتي قبل هذا الوقت.. تتركني وحدي
وتذهب للسهر خارج البيت..
لم يعلق على كلامها، فواصلت:
- الصبح الساعة العاشرة يجب أن نكون في دائرة المساعدات حتى
يعطوني ورقة تحويل للطبيبة النسائية..
نظر إليها للحظات وقال:
- ولماذا يجب حضوري معك..؟
- أنت تعرف أنا لا أتحدث الألمانية بشكل جيد..
- نتحدث عن هذا صباحاً
نظرت إليه بغضب مكتوم، أما هو فتجاهل نظراتها منشغلاً عنها فلم
يكن أمامها سوى أن تتجه إلى غرفة النوم لتلقي بنفسها على السرير
والدموع تترقرق في مقلتيها.
لا تدري حواء المؤمن كم مضى من الوقت وهي مستلقية على
السرير، لكنها أفاقت لتجد أنها وحيدة في غرفتها. نظرت إلى الساعة
المنضدية الصغيرة التي كانت تشير إلى السابعة صباحاً. إذن الوقت ما
زال مبكراً. أنصتت جيداً فسمعت صوت شخير زوجها يأتي من غرفة

الاستقبال. لا تدري لم أحست بالراحة، فدخلت الفراش وسحبت الغطاء على نفسها لتواصل النوم.

بعد أن أنهى آدم البغدادي قراءة الفصل الذي أعطاه عنوان (الكابوس) فكر في أن يستطرد أكثر في الحديث عن حواء المؤمن والدكتور آدم التائه، لكنه فكر أيضا بأنه من الأفضل ترك الأمور هكذا من أجل أن يمنح القارئ بعض الوقت ليشكل تصوراتهما دون تدخل المؤلف، بعد ذلك يتدخل شيئا فشيئا في رسم صورتها. وضع الأوراق الخاصة بهذا الفصل جانبا ثم أخذ يقرأ الفصل الذي يليه والذي أراد أن يرسم صورة أكثر قربا لحواء المؤمن

(2)

يوم عادي.. عادي جدا

يقع القسم الخاص باللاجئين في الطابق الخامس من بناية بلدية مدينة (ركلنك هاوزن) الألمانية التي تقع ضمن منطقة (الروور) الشهيرة بمناجم الفحم والتي تتبع مقاطعة (نورد راين فستالن). حين وصلت حواء المؤمن وجدت أمامها صفا من اللاجئين. كان هناك كورديان من العراق وأفريقي وفتاتان إيرانيتان ولبنانيان وفلسطيني وأفغاني جاء ومعه أربعة من أطفاله وابنته الفتية الجميلة.

كان الحديث يدور بلغات مختلفة، ولكن حينما يود أحدهم أن يحدث شخصا آخر لا يعرف لغته فإنه يتحدث معه بالألمانية التي لا يجيدها أي منهم لكن يمكنهم التفاهم بها. وجدت حواء المؤمن أحد أصدقاء زوجها ممن يزورهم أحيانا فأحست بأن ثقلاً انزاح عن صدرها، إذ قررت أن تطلب منه أن يكون مترجماً لها لأنها لا تستطيع التفاهم بالألمانية، وهذا ما فعلته.

عادة ما يحصل اللاجئون على ورقة من الدوائر المختصة بالتعامل معهم حينما يريدون الذهاب إلى الطبيب. وحينما أخذت حواء المؤمن الورقة من دائرة الأجانب واجهتها المشكلة نفسها، إذ كيف لها أن تشرح للطبيبة وضعها. فكرت في نفسها أنها ستشرح لها بالإشارات.

الطبيبة التي تراجعها حواء المؤمن إيرانية الجنسية وهي تعمل في عيادة مشتركة مع طبيب يوغسلافي الجنسية مختص بأمراض النساء أيضاً. حينما دخلت العيادة وسلمت ورقة التحويل للسكربتيرة التي تدير عمل

الطبيين، قالت لها السكرتيرة إن الطبيبة الإيرانية مجازة حاليا، وستأخر لأسبوعين ويمكن للطبيب اليوغسلافي أن يكشف على حالتها الصحية. ارتعبت من الفكرة، لكنها التفتت إلى الصالة فوجدت عددا من النساء التركيات الحوامل والألمانيات وبعض الفتيات الأجنيات التي لم تحدد جنسيتهن، فجلست بارتباك.

حينما جاء دورها ودخلت غرفة الطبيب، ارتبكت جدا. كان الطبيب وحده في الغرفة لأن مساعده الشاب قد خرجت مع المرأة التي سبقتها. انتبه الطبيب لارتباكها فرحب مبتسما وسألها إن كانت تتكلم الألمانية فاحترت كيف تجيب ونطقت بالمفردة التي معناها (قليلًا)، لكنها نطقتها بارتباك ففهم بأنها لا تتكلم الألمانية. أشار إليها أن تذهب خلف الحاجز الموجود في الغرفة لتخفف من ثيابها. أحست بالخجل، لكنه أراد أن يشعرها بأن الأمر طبيعي جدا فأنشغل بإعداد ورقة خاصة بها. لم ينتبه إلى أنها لم تتحرك من مكانها، وحينما رفع رأسه وشاهدها ابتسم وأشار إلى خلف الحاجز بأن تخفف ثيابها هناك، ثم تستلقي على السرير الطبي الموجود في جانب الغرفة.

كان الطبيب مشغولا بارتداء الكفوف الشفافة الواقية، حينما التفت إليها وجد أنها ركضت خجلة وصعدت السرير ثم تمددت عليه وسحبت الغطاء الأبيض الخفيف لتغطي جسدها لحد الصدر. سألها الطبيب (بلغة الإشارة) ما الذي تشعر به، فأشارت مكورة يديها حول بطنها بحركة فهم منها أنها تتحدث عن الحمل، ابتسم الطبيب.

في تلك اللحظة دخلت الممرضة مبتسمة. تحدث الطبيب معها بالألمانية. أشارت الممرضة إليها بأن تنهض وتأتي معها خلف الحاجز، فقامت ظنا منها بأن الطبيب أمر بذلك، وخلف الحاجز طلبت الممرضة منها أن تنزع سروالها الداخلي فلا يمكن للطبيب أن يفحصها وهي في هذه الحال. أصابها الرعب من الفكرة لكنها في الوقت نفسه كانت كالمسحورة، وبحركة لا إرادية قامت بما طلبت منها الممرضة التي

أخذتها لتساعدها على الجلوس على كرسي الفحص النسائي، حيث مدت رجليها على حافتيه المتباعدين وأدارت الممرضة الكرسي فانحنى جسدها وتكشف وسطها الأسفل للطبيب. أغضمت عينيها، وتركت جسدها للطبيب مستعينة بوجود الممرضة إلى جانبها.

أحست بلمسات أصبع الطبيب واختراقه إياها، ففزت بحركة لا إرادية، ولم يشأ الطبيب أن يفزعها، فأنهاى الوضع، ونزع كفوفه الشفافة ليلقيها في علبة من الصفيح مخصصة لها. قامت هي فأشارت إليها الممرضة بعد أن أعادت وضع الكرسي بأن ترتدي ملابسها. تحدث الطبيب مع الممرضة ثم معها بالألمانية، لم تفهم هي شيئاً.

حينما خرجت حواء المؤمن إلى الشارع أحست بأنها خفيفة وأن مزاجها أفضل، ثم أخذت تفكر وتساءل نفسها: لماذا شعرت بما يشبه النشوة حينما أولج الطبيب أصبعه في رحمها، بالرغم من أنه فعل ذلك بشكل عادي جدا وبلا مبالاة تقريبا، وبحضور الممرضة، علما أن الطبيبة الإيرانية فعلت ذلك أيضا لكنها لم تشعر بأي شيء، على العكس أحيانا كانت تشعر بالألم.

مرت بالبحيرة التي تفصل الشارع الذي تقع فيه عيادة الطبيب عن السوق الكبيرة للمدينة. رأت عشرات البطات تسبح وعددا من الأطفال وبعض العجائز والشيوخ يلقون لها بالخبز. دخلت السوق. ذهبت مباشرة إلى الصيدلية وهي تحمل الوصفة التي كتبها لها الطبيب.

استلمت حواء المؤمن الدواء ثم أخذت تتجول بين المخازن الكبيرة. رأت بعض الأجانب فعرفت اثنين منهم. حدثها شاب ألماني، لم تفهم منه شيئاً، فأسرعت وجلة دون أن تجيبه، بينما ظل هو مستغربا من رد فعلها. لعنت نفسها. قالت لنفسها يجب أن تتعلم الألمانية ولو قليلا، فهي بالتالي خريجة المرحلة الإعدادية، وقابليتها للفهم لا بأس بها كما أنها تعرف بعض الإنكليزية.

دخلت إلى أحد المخازن الكبيرة المختصة بالمواد الغذائية. اشترت

بعض الفواكه والخضار ووضعتها بأكياس النايلون. وحينما عادت إلى البيت وجدت بأن زوجها قد خرج.

آدم البغدادي: ممكن تعديل هذا الفصل، بأن يتم التوسع في وصف مشاعر حواء المؤمن الجنسية، وأن يترك الزوج الدكتور آدم التائه نائما في البيت، بحيث يمكن أن تتطور الأحداث بما يمكن أن يكشف أكثر عن عالم حواء المؤمن النفسي ورغباتها الدفينة.

(3)

محنة حواء الطومن

ما الذي جاء بيّ إلى هذه البلاد النائية، وإلى هذه المدينة بالذات. لم أكن أحلم بالسفر إلى هذه البلاد. أبعد رغبة لي في السفر كانت أن أدور بين محافظات بلادي.

لقد أحببتُ آدم الصالح حينما كنتُ في الخامسة عشرة من عمري. استمرت علاقتي به لسنة تقريبا. أتذكر كيف كنت أذهب إلى بيتهم حيث كان يعيش مع أمه، وكيف كان يتحجج لدفع أمه إلى الخروج حينما يكون بيننا موعد. أتذكر ارتباكي حينما قبلني من شفتي أول مرة، إذ لم يقبلني أحد من شفتي قبله. كنت أشاهد ذلك في الأفلام المصرية فقط. أتذكر كيف أحسستُ بالغيثان أول الأمر، وكيف استطابت نفسي لمثل هذه القبل فيما بعد. وكيف كشفت عن جسدي لأول مرة أمامه، وكيف...

أذكر حواء البصري زوجة أخي، التي أجبرها أهلها على الزواج من لآدم الصالح صارت تساعدني في ترتيب اللقاء بيننا. كنا نخرج بحجة زيارة أهلها، بينما كانت تنتظرنني لحين انتهاء لقائي معه.

أذكر الكارثة حينما شاهدني ابن عمي مع آدم الصالح مصادفة عند بابهم، فأخبر أهلي، حينها تعرضت للضرب المبرح من أخي الكبير، ووجدت العائلة الحل الأمثل إذ زوجوني لأبن عمي.

أتذكر ليلة الزفاف بتقزز ورعب، فقد اغتصبني زوجي حينما لم أستجب له طواعية. فسبب لي جرحا ونزيفا بقيت مريضة على أثره لفترة

ليست قصيرة.

لا أدري كيف مرت شهور الزواج تلك، إذ وجدت نفسي مطلقة بعد سنة ونصف لأنني لم أنجب لزوجي. أهله كانوا يريدون أن يروا ذريته. خيروني بين أمرين: أما أن أقبل بأن يتزوج امرأة أخرى أو أقبل بالطلاق، فاخترتُ الطلاق بالرغم من أن أخي عارض ذلك وحاول إقناعي بقبول أن تكون لي ضرة فالاسلام يسمح بذلك، إلا أن حواء البصري زوجته سعت بكل السبل لإقناعه بقبول رأيي بالطلاق.

ثمة فكرة طالما شغلتنني: كيف يتغير الإنسان وينقلب إلى ضده؟ لأنني حينما أسترجع الماضي، أجد نفسي في حيرة أمام زوجة أخي التي ساعدتني في مسألة الطلاق ودافعت عني في مختلف الأحوال والظروف، والتي طالما حدثتني عن الحب والقدر وعن ظلم الأهل والناس والمجتمع. هذه حواء البصري نفسها تحولت إلى ضدي واضطهدتني حينما رجعت إلى بيت أخي بعد طلاقني. لا أتذكر أسوأ من تلك الأيام خلال تلك الفترة التي امتدت لسنة ونصف.

خلال تلك الفترة عرفتُ أن آدم الصالح قد تزوج أيضا، وسعيت للاتصال معه. وحينما قابلته لم نتحدث كثيرا. كان باردا جدا ولم يشأ أن يتواصل معي، بل كان يتهرب من أي ارتباط معي بالرغم من أنني كنت مستعدة أن أكون عشيقته لكنه لم يبد أية رغبة في ذلك. أتذكر ذلك جيدا، وهذا ما دفعني إلى القبول بالدكتور آدم التائه، الأستاذ الجامعي، الذي يكبرني بحوالي عشرين عاما، الذي كان سابقا جارهم لكنهم انتقلوا فيما بعد إلى منطقة أخرى، والذي كان وحيدا لوالديه المريضين والعجوزين المحتاجين لمن يخدمهما.

لقد قبلتُ بهذا الزواج بعد سنتين من الطلاق هربا من بيت أخي، ومن مصير المطلقة التي يحاسبها المجتمع على أنفاسها. لذا أحسستُ بالسلام حينما انتقلتُ لبيت الزوجية الجديد.

بعد فترة من زواجي الجديد سمعتُ بمشاكل حبيبي السابق آدم الصالح مع زوجته بسبب حواء زوجة أخي، لأنه كان قد أقام علاقة معها بعد زواجي من ابن عمي، وأن زوجته قد نشرت سر هذه العلاقة الفضيحة، وكان هذا هو السبب الذي دفع أخي إلى طلاق زوجته.

أتذكرُ كيف أنني بمرور الوقت صرت سيدة البيت الجديد، فأمر زواجي مريضة جدا ولم يكن لها رأي في شؤون المنزل. كل شيء كان بيد الأب المريض أيضا، لكنه لم يهتم لمرضه كثيرا ولم يلتزم بنظام تعاطي الأدوية. أما زوجي الدكتور آدم، كما كانا والداه يناديانه، فقد كان وكأنه لم يتزوج، إذ أنه يقضي معظم وقته خارج البيت أو في غرفة المكتبة التي كان يسهر فيها إلى وقت متأخر جدا منشغلا بالكتابة، ولم يكن يتعامل معي كزوج إلا نادرا حينما يأتي ثملا، ويحدث هذا في غرفة المكتبة، وأحيانا على طاولة الكتابة دافعا بالكتب إلى الأرض، وكان أثناء ذلك يسألني بغضب إن كان زوجي السابق ينيكني أحسن منه أم أنه الأفضل؟ وكان يجبرني على الإجابة لأصرخ وأنا ألهث من المتعة: أنت أحسن.. أنت أحسن.

لم نكن نتبادل الحديث إلا نادرا، إلى أن انهارت صحة الأم وتم نقلها إلى المستشفى لترقد فيها استعدادا لإجراء عملية جراحية لاستئصال المرارة التي وجد الأطباء فيها حصي، إذ صرنا نذهب معا لزيارتها والبقاء عندها لبعض الوقت كل يوم تقريبا. وبعد إجراء العملية بأقل من شهر توفيت الأم نتيجة لضعف عمل القلب، فتم دفنها في النجف، وصرتُ وحيدة تقريبا مع الأب العجوز المشاكس.

بعد أشهر من ذلك، وفي ظهيرة يوم صيفي ساخن، كان زوجي الدكتور آدم التائه غائبا فيه عن البيت كعادته، وكنتُ قد أعددتُ للأب وجبة الغذاء، ثم قدمت له الفواكه والبطيخ والرطب وذهبت لأخذ القيلولة في غرفتي، رأيت الأب يدخل غرفتي.

هذه هي المرة الأولى التي يدخل إلى غرفة نومي، ودون أيما

كلام جلس على حافة سريري، بالقرب مني. كنت مستلقية وفي وضع النهوض، فسألني إن كنت تعبة، فقلت له بشكل لا إرادي: نعم.
فجأة جلس على الأرض أمامي. أخذ قدمي ليمسح عليهما برفق. شعرتُ بالصدمة من تصرفه. لم أعرف ماذا أفعل. قلتُ بصوت خافت: لا داعي لذلك يا عمي، لكنه، أخذ يصعد كفه إلى فخذِي ويمد يده تحت ثوبي. أردتُ أن أبعد يديه عني لكنه، برغم كبره في السن إلا أنه كان قويا، فلم أستطع النهوض ولا أن أبعد يده عني، ولم أعرف ماذا يمكن أن يحدث، بل ولم أفكر إلا في شيء واحد هو: ماذا لو أن زوجي يدخل الآن ويرى هذا المشهد المحرم؟

أخذت يده تصعدان إلى الأعلى، ثم مدهما إلى ما بين فخذي وبدأ يداعبني. حينها لم أعرف ماذا أفعل. وجدت نفسي مشلولة الإرادة والجسد. أردتُ أن أقاوم لكن المقاومة كانت في أعماقي ولم تظهر قط. لم أبد أي حركة جسدية بالممانعة، بل كنتُ أستجيب له من أجل أن ينتهي هذا المشهد الغريب، لكنني لم أنتبه إليه إلا حينما بدأ يقبل نهدي. وانتبهت إلى نفسي عارية تقريبا وبين يديه. كنتُ شبه مخدرة. أحسستُ بالرضا حينما بدأ ينحدر مقبلا كل تفاصيل جسدي. لم أشعر بلذة ونشوة أكبر وأكثر من تلك التي وجدتُها حينما كان يقبل ما بين فخذي بلسانه. كنتُ شبه مغمى عليّ، وفجأة أحسستُ بيدي تمسكان بكتفه من شدة الرغبة المحرمة، لكنه وبشكل غير متوقع قام ليذهب خارجا وبسرعة.

هكذا بدأت بيننا علاقة محرمة غريبة. وامتلاء البيت بالأسرار واللذة المحرمة. إلى أن فاجأنا زوجي ذات ظهيرة، إذ دخل الدار دون أن ينتبه إليه أحد. كان الأب قد تسلل إلى غرفتي كعادته. لكن من حسن حظي أن الأب كان جالسا على السرير بجانبني ولم نكن في وضع مريب. ارتبك زوجي حينما دخل الغرفة وجفل. أنا لم ارتبك فحسب وإنما تجمد الدم في عروقي واحتبست أنفاسي، لكن موقف الأب كان غريبا،

فربما ارتبك للحظة، لكنه استرجع وضعه وكان الأمر لا يحتمل أي شك أو تفسير مريب.

قال الأب إنه كان يحدثني عن مستقبلنا، ولماذا لا ننجب أطفالا لتزيين بهم حياتنا الجافة، وأنه يسألني أن كانت هناك مشاكل بيننا وأن علينا مراجعة الطبيب.

حينها استقبل زوجي الأمر بغرابة ولم يعلق على كلام أبيه، لكنني شعرتُ في أعماقي بأن دودة الشك بدأت تنخر في قلبه، ثم جاءت فترة بقي زوجي فيها بالبيت لأيام عدة. أحيانا كان يعود مرتبكا وخائفا، وأحيانا كان يفز من نومه نتيجة كوابيس كما أظن. كان يخاف شيئا ما.

أذكر بعدها وبشكل مفاجئ بدأ يتحدث عن ضرورة السفر إلى خارج البلاد، لاسيما وأن وضع البلاد مرتبك، وكما يبدو أن لديه مشاكل في الجامعة التي يعمل فيها وأنه يكره البلاد والنظام الذي فيه. وما أكد شكوكي أنه أخذ يرجع مبكرا إلى البيت، وبعض الأحيان لا يخرج نهائيا ويبقى في البيت لأيام ولا يخرج إلا لضرورات العمل أو لمراجعة دائرة الجوازات للحصول على جوازات سفر. الغريب أنني لاحظت أنه يتحدث عن سفرهما فقط بدون ذكر للأب.

أتذكر كيف بدأ يتتبع لوجودي وكأنما يكتشف جمالي لأول مرة، إذ أخذ يقترب مني، بل وأحيانا لا يدعني أنام، مستخدما معي كل الأساليب والأوضاع، ولا أعرف لِمَ أخذتُ أشفق عليه، بل وأميل إليه. لقد كان خبيرا بلغة الجسد، كما كنت أحس بالذنب أمامه.

بدأت صحة الأب تنهار. وكان يرفض تعاطي الدواء ويضرب عن الأكل. كان يتحجج ويبحث عن أي شيء للمشاجرة والاصطدام مع ابنه. يسخر منه مقللا من شأنه وقيمه ودرجته العلمية. الغريب أن الابن كان لا يرد عليه وإنما يدخل غرفة المكتبة ويناديني إليه ويقفل الباب ولا يسمح لي بالخروج بينما ينهمك هو بالكتابة كالمجنون.

صار الأب أشبه بالمشلول إذ لم يعد يستطيع الحركة بسهولة، وصار

شخصاً لا يطاق، إذ أخذ يشتمني بألفاظ جارحة أمام ابنه الذي لا يعلق شيئاً على أي كلام يصدر من أبيه، وإنما كان الغضب الدفين يملأ عينيه. أتذكر ذلك الصباح حينما طُرق الباب ولما فتحته وجدت رجلين بملابس طبية وسيارة إسعاف خلفهما ورأيتُ زوجي معهما. دخل الرجلان مع زوجي إلى البيت وذهبا إلى غرفة الأب، وسمعت جدلاً ثم تعالت أصوات بين الأب والابن ومحاولات الرجلين للتهدة والشرح، ففهمت أنه يريد إيداعه في بيوت العجزة.

وأخيراً انجلى الموقف عن خروج الأب مسنوداً مع الرجلين وهو يشتم ويعربد ويصرخ مذكراً بنكران الجميل وعقوق الوالدين ولعنات الأب على الابن إلى يوم القيامة، شاتماً إياي وكأنني أنا التي أشرت عليه بذلك، مذكراً الابن بأنني سأركب له القرون وأنني عاهرة رخيصة.

بعد فترة وجيزة باع زوجي الدار بمبلغ لا بأس فيه لكنه أقل من قيمته، وباع مكتبته الكبيرة ولم يأخذ معه إلا بعض الدفاتر التي كان يكتب فيها، وبعض الكتب التي واحد منها يحمل اسمه (آدم تائه)، ورحلنا إلى الأردن التي وصلنا إليها مساءً بعد رحلة طويلة.

وفي عمان نزلنا في فندق رخيص، وكان زوجي آدم التائه يخرج صباحاً لمراجعة بعض السفارات الأجنبية، ومساءً للالتقاء ببعض العراقيين المقيمين وبعض الفلسطينيين، بينما كنت أبقى في غرفتي أشاهد التلفزيون منتظرة أن يأتي زوجي لأتواصل من خلاله مع العالم وأفهم منه ما ينتظرنا. وحين طالت فترة الحصول على التأشيرات، أُجّر زوجي بيتاً، لكنه في الواقع ليس بيتاً، بل غرفة بالكاد تتسع لأثنين مع زاوية مغطاة بالصفائح فيها حنفية بمثابة مطبخ، إلى جانب غرفة صغيرة هي حمام ومرفق صحي في آن واحد.

في أول يوم لسكننا هناك جاءتني امرأة منقبة بدأت بالحديث معي عن ضرورة الحجاب والابتعاد عن طريق الشيطان وقدمت لي عباءة وحجاب وفوطة وكتاب المصحف الكريم. وحين جاء زوجي وأخبرته

بمسألة المرأة المحجبة، سخر منها، وقال إن عليّ أن أنتبه من هؤلاء الناس، وإن الأيمان في القلب وإن الإنسان ما دام لا يؤذي الآخرين فهو غير مذنب، وإن الرسول الكريم قال إن المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، وإن الحجاب مسألة شخصية، فإذا أردت أن أتحجب فهذا شأن يخصني وهو لا يمانع، وإذا لم أشأ فهو لا يجبرني عليه. حينها أحسست أنني أحب زوجي.

أتذكر كيف أنه ذات صباح دعاني إلى أن أذهب معه لمراجعة إحدى السفارات الأوربية. وبعد أيام جاء فرحا على غير عادته، طالبا مني الخروج معه لشراء بعض الملابس لأننا سنهاجر إلى أوروبا.

وحينما جاء يوم السفر عرفت أننا لم نكن وحدنا. لقد اتفق زوجي مع عائلة عراقية أخرى التقينا معها في المطار. وهكذا سافرنا إلى أوروبا حيث دخلنا برلين من محطة تسمى محطة (تسو غارتن)، وهناك كان من ينتظرنا.

ما الذي جاء بي إلى هذه المتاهة؟ فمن متاهة حياتي في بلدي إلى متاهة حياتي هنا. ومما يثير سخريتي أحيانا أنني الآن لاجئة سياسية بينما لا أفهم في السياسة شيئا ولم أشارك فيها أبدا، وأتعجب من الأوربيين الذين يصدقون كل أكاذيب الأجانب عن كفاحهم والمخاطر التي تهددهم نتيجة صراعهم مع السلطة في بلادهم.

الحياة هنا منظمة بشكل كبير وهادئة جدا، لكنني غير سعيدة، لماذا؟ أنا نفسي لا أعرف السبب. أحسست أنني وبمرور الأيام صرت قاسية القلب باردة الأحاسيس. أشعر بالوحدة والوحشة. زوجي الذي انتبهت إلى أنه يكن لي شيئا من المودة يكشف عنها لحظة ممارسة الجنس معي، هو أيضا صار قاسيا.

أنا متأكدة بأنه ما زال يشك بعلاقتي غير الطبيعية مع أبيه، لأن تصرفاته تشي بذلك أحيانا، بل صار يتحدث بصراحة عن إعجابه بالنساء الألمانية أمامي. أنا أبتلع المهانة لأنني أشعر بالذنب أمامه، فما لديه من

شكوك أعرف أنها حقيقة، ولو عرف ما جرى بيننا ربما سيقتلني، لكن ثمة شعوراً جديداً بدأ يخترق عالمي، إنها مشاعر الأمومة التي بدأت تغرقني. أحس بالحاجة إلى أن أحمل، أن أنجب طفلاً. أريد أن أصير أما.

آدم البغدادي: هذا الفصل فيه الكثير من الأحداث المهمة، ربما يفضل أن يتم الكشف عن علاقة الأب بحواء المؤمن، زوجة ابنه، في فصل خاص وأن يتم التوسع في التفاصيل، وأن تسمي الأشياء والأعضاء بأسمائها.

لكنه ربما حينها لن أستطيع نشر الكتاب، أو حتى لو نُشر ربما لن يتم توزيعه في الكثير من البلدان العربية، لأنه سيوصف بالإباحية والسوقية والابتذال، وربما سينثر عليه فئات اجتماعية محافظة كثيرة. إذن عليّ أن أكتفي بهذا القدر من التفاصيل وأترك الأمر لمخيلة القارئ.

هل هناك ضرورة لذكر التفاصيل الجنسية في العمل الروائي؟ ألا يمكن أن يفسر بمحاولة ابتزاز مشاعر القارئ وإثارته أو أنه تعبير عن كبت الكاتب الجنسي وتعويضه ذلك من خلال الكتابة، أو هو استمئاء ذهني يقوم فيه الكاتب بوعي أو دون وعي.

لكن ربما لهذه التفاصيل علاقة بالصدق الإبداعي، فهو لم يقابل حواء المؤمن الحقيقية في الحياة إلا مرات قليلة وعابرة، واسمها في الرواية مجازي وليس هو الاسم الحقيقي لزوجة صديقه الدكتور، وهو إذ يسترجع صورتها في مخيلته فهو يمنحها مساحة للتحرك مستعينا بتجربته مع نساء أخريات وبتفاصيل حقيقية عرفها من أخريات، وحتى آدم التائه فهو ليس هذا باسمه الحقيقي، فهو ليس الدكتور آدم التائه، وإنما لديه اسم آخر، ولا يستطيع أن يسميه باسمه ويروي كل شيء عنه كما رواه هو له، وإنما هو يأخذ الخطوط العريضة من حياته

ويرسم الشخصية التي في ذهنه.

وهنا، ربما يجب أن أغير من أسلوب وطريقة الدكتور آدم للتخلص من أبيه، إذ ربما عليه أن يخنقه بالوسادة أثناء النوم أو أن يسممه عن طريق تغيير أدويته، لكن ذلك ربما سيكون مبالغاً فيه، فعقوق الوالدين وبهذه الطريقة أكثر قبولا لدى القارئ، وأنه شخصياً يعرف قصصاً أشد هولاً من هذه وأكثر إثارة للألم من عقوق الأبناء.

(4)

النساء خُلِقن هكذا

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً حينما عاد الدكتور آدم التائه مع اثنين من أصدقائه إلى البيت. فوجئت بعودته مبكراً، لكن زوجته ما أن لمحت كيس النايلون المليء بعلب البيرة حتى فهمت بأنهم ينوون قضاء السهرة في البيت.

عاد الدكتور آدم التائه مرحاً، وكان بين لحظة وأخرى يلقي نكتة أو عبارة ماجنة عن النساء الألمانيات. ولم يكن هذا بجديد عليها، لكنها الآن تشعر بمهانة أكبر لأنه يتحدث أمام رجال آخرين، بل إن أحدهم أرتبك لوجودها عندما أطلق زوجها نكاته الماجنة. هي تعرف أنه يتعمد الإساءة إليها انتقاماً لنفسه وتهديئة لشكوكه وكرامته المهدورة، وكان هو يزداد مرحاً كلما رأى الغضب في عينيها.

أعد زوجها صحناً من الخيار والطماطم وفتح كيساً من اللوز ووضع علب البيرة على الطاولة، ثم اتجه إلى غرفة النوم وعاد بقنينة فودكا وشدة من ورق اللعب، أما هي فحاولت إشغال نفسها في المطبخ، لكن الوقت كان مبكراً كي تذهب إلى النوم، لذلك جلست على الأريكة المقابلة بعيدة عنهم وأخذت تشاهد التلفزيون الذي كان يعرض فيلماً ألمانيا عن الحرب. كان الفيلم يروي قصة امرأة يهودية هربت من الجنود الألمان، وحينما وصلت إحدى القرى اختفت في كوخ أحد الفلاحين الأغنياء الذي أعجبته حينما رآها لذا لم يخبر عنها واتخذها عشيقه له.

لم تكن حواء المؤمن تفهم الحوار لكنها كانت تفهم سياق الأحداث

بصريا، وكانت قد تابعت الفيلم قبل وصول زوجها وأصدقائه بفترة. كانت حواء المؤمن في ثوبها الشفاف، الذي تلبسه عادة في البيت، حينما دخل زوجها وأصدقائه، لذا انتهت إلى أن أحد الأصدقاء كان يصبص بين الحين والآخر إلى جسدها الذي كان ثوبها يحدد معالمه الفتية.

تضايقت من نظراته أول الأمر لكنها ارتاحت لها في ما بعد، بل صارت تشعر بالغضب حينما ينهمك الصديق باللعب وينشغل عن النظر إليها. كانت مشاعرها متناقضة، فهي تريد استفزاز زوجها وإثارة غيرته وأيضا لإرضاء غرورها بأنها تثير الإعجاب.

الفيلم الذي كانت القناة الألمانية تعرضه وصل إلى مشهد حميم، حيث كانت المرأة تركض في الغابة القريبة، ثم عادت إلى الكوخ، فحمل الفلاح طستا وإبريقا من الماء ثم وضع قدميها في الطست وبدأ يغسلها. انتهت حواء المؤمن إلى أنهم توقفوا عن اللعب لمشاهدة الفيلم. كان الفلاح قد مديده لفخذيها وهو يلهث، كانت المرأة تتوسل إليه وتتحدث معه، لكنه لم يسمعها بل ألقاها على الأرض ورفع ثوبها ودخل بين ساقها.

كان الصمت قد لجمهم فلم ينطق أي منهم بكلمة. أحست بارتباكهم. نظرت إلى الرجل الذي كان يختلس النظر إليها. انتبه زوجها وارتسمت علامات الغضب على وجهه. لم تعرف من أين جاءت فكرة الانتقام منه. أرادت أن ترد عليه بالأسلوب المهين نفسه. إقتربت منهم وكأنها تبدي فضولها لمعرفة نتائج اللعب. حاولت أن تشاركهم حديثهم لكنها استغربت أنهم كانوا يتحدثون عن مجموعة من الشباب العرب الذين يقومون بالسرقة ويبيعون الحاجات المسروقة بربع ثمنها، فلم تتمالك نفسها فقالت:

– لم يبق سوى أن تتحولوا إلى لصوص
نظر الرجال إلى آدم التائه معاتبين على طريقة كلام زوجته، فقال

لها غاضبا:

- أغلقتي فمك...

فالتفت إليها الرجل الذي كان ينظر إليها بإعجاب:

- ما العمل يا حواء، القانون هنا لا يسمح للاجئ بالعمل إلا بعد خمس سنوات، وراتب المساعدة الاجتماعية لا يكفي..
فقاطعته باستياء:

- المساعدة التي يعطونها يمكن أن تكفي إذا لم يذهب الشخص إلى المراقص ولا يشرب الكحول، ثم أنكم جميعكم حينما جئتم إلى هنا أدعيتم بأنكم سياسيون مطاردون في بلدانكم..

لم تكمل حواء المؤمن كلامها لأن زوجها نظر إليها بغضب، فقال أحدهم:

- لا تهتم يا دكتور آدم.. النساء خلقن هكذا..

في تلك اللحظات كانت شاشة التلفزيون تعرض مشهدا من الفيلم حيث بدأ الفلاح يقيم علاقة جسدية مع المرأة الهاربة، حيث وضع قدميها في طست مليء بالماء وبدأ يمسح رجليها صاعدا بيده إلى فخذيها. انتهت حواء المؤمن كيف توقف الجميع عن اللعب لمتابعة المشهد. تذكرت تلك الظهيرة الصيفية الملتهبة فبدأ الدم يصعد إلى صدغيها، ولم يكن أمامها سوى أن تقوم لتخرج من الغرفة، كي لا ينتبه أحد لما هي فيه، وأيضا للحرج الذي يسببه متابعة الفيلم أمام هؤلاء الرجال.

آدم البغدادي: أعتقد أنني بهذا قد اقتربت أكثر من عالم حواء

المؤمن.

(5)

أحلام وكوابيس

في وسط المرج الأخضر الذي تحيطه الأشجار لم يكن ثمة أحد من البشر. كانت الشمس عالية، وثمره ضباب كثيف يغطي الأفق المفتوح من المرج. في وسط المرج كان تابوت من الخشب الصندل. من خلف الأشجار بدأت حركة ما. شيئاً فشيئاً برزت أشباح ملفوفة بالقماش الأبيض وكأنها مومياء. أخذت الأشباح تقترب من التابوت بحركة بطيئة إلى أن التفت حوله، ثم انحنى وفتحت التابوت. لم يكن هناك سوى دمية من القماش. أغلقت الأشباح غطاء التابوت ثم أخذت تتعدى راجعة إلى مكانها خلف الأشجار إلى أن اختفت.

التابوت ما زال وسط المرج. شيئاً فشيئاً بدأ غطاؤه يُفتح. من التابوت خرجت حواء المؤمن واقفة. كانت في ثوب أبيض شفاف. خرجت من التابوت ومشى مثل السائر في النوم نحو جهة الضباب إلى أن اختفت فيه.

من الضباب جاءت أصوات حركة بدأت تقترب. ظهر حصان أبيض. أخذ الحصان يقترب من التابوت إلى أن وقف قربه ومد رأسه فيه ثم رفع رأسه وفي فمه باقة ورد. ابتعد الحصان مختفياً في الضباب. من أعماق الضباب ظهرت حواء المؤمن ثانية، وبنفس الخطوات والأيدي الممددة للأمام، جاءت التابوت ودخلت ثم تمددت فيه وأغلقت الغطاء على نفسها بقوة. طارت العصافير والطيور من بين الأشجار أسراباً.

فزت حواء المؤمن من النوم مرعوبة. كان العرق قد بللها. أزاحت

الغطاء وجلست على حافة السرير بصمت.

نهضت بتناقل وخرجت من غرفة النوم إلى غرفة الاستقبال. أشعلت النور في المصباح الكهربائي، وجلست على الصوفا بإعياء. كان زوجها قد خرج مع الرجال الذين جاء معهم. تأملت الكتب التي على الرفوف. نهضت مقتربة من طاولة الكتابة. كانت أوراق زوجها مبعثرة هناك. كانت ملزمة من الأوراق قد كتب عليها (المرأة المجهولة) وتحت هذا العنوان كتب بخط عريض (متاهة آدم) - (رواية).

هي تعرف أن زوجها يؤلف الكتب لكنها لم تقرأ له يوماً أيماً مما كتب. تدري أنه حمل معه من بغداد كتاباً يحمل صورته واسمه. راودها فضول بأن تقرأ الذي كتبه زوجها. ربما كتب أسراراً في هذه الملزمة. قررت مع نفسها أن تقرأ هذه الملزمة. أرادت أن تتعرف على هذه (المرأة المجهولة)، فهل يا ترى هناك امرأة أخرى في حياته.

ما أن همت بأخذ الملزمة والجلوس لقراءتها حتى سمعت حركة المفتاح في الباب، إذ دخل زوجها، ثملاً، متعباً، ساهي النظرات. ارتسمت على وجهه علامات الاستغراب حينما وجدها لا تزال صاحبة ولم تتم لحد الآن، إذ كانت الساعة تقارب الثالثة فجراً.

راود الدكتور آدم التائه للحظة شعور بأنه كان قاسياً معها أمام الرجال هذا المساء. تأملها. كانت حواء المؤمن امرأة مثيرة. هي طويلة القامة نوعاً ما، متناسقة الجسد، ممتلئة الشفاه، طويلة الأنف قليلاً، بنية العينين، يكشف جسدها عن انحناءات مثيرة لاسيما الجزء الأسفل من جسدها، وشخصيتها وملامحها تشي بأنها امرأة لديها عالمها الخاص، فهي تتجه إلى الداخل ولا تهرب إلى الخارج.

جلس إلى جانبها بطريقة وكأنه يرمي بنفسه عليها، فأزاحت نفسها قليلاً كي يجلس براحتة إلى جانبها. أحتك فخذها فخذها فأحس بطراوتها. تصاعدت رغبته في مضاجعتها لكنه لا يعرف كيف يبدأ لأن تعامله معها هذه الليلة أمام الرجال لا يمكن إصلاحه بسهولة. لكنه يعرف أنها يمكن

أن تنسى أي خلاف بينهما بعد أي مضاجعة له معها، أو على الأقل تنسى لفترة قصيرة.

أحست حواء المؤمن برغبته التي كشفتها نظراته المليئة بالشبق، لكنها أرادت أن تعاقبه على تصرفه معها أمام الآخرين. أرادت النهوض. لكنه أمسك بيدها ساحبا إياها إليه. تمانعت وصدته فأحتضنها بذراعيه، ووضع رأسه على بطنها وهي واقفة بين يديه تحاول التملص منه إلى أن استطاعت تحرير نفسها منه وذهبت إلى غرفة النوم وأغلقت الباب.

قام خلفها دافعا الباب بقوة. فوجئت وهو يحتضنها من الخلف. حاولت التخلص منه فلم تستطع. بدأت تحس بحرارته وشبقه الذي أثار فيها رغبة عارمة لكنها لا تستطيع الاستسلام والقبول بسهولة فظلت تمانع وتماطل في الاستجابة. كانت تستمتع بمحاولاته السيطرة على جسدها. وبالرغم من أن آدم التائه كان ثملا إلا أنه كان قويا، لذا سيطر عليها بذراعيه ودفعها إلى السرير رافعا ثوبها من الخلف إلى الأعلى وساحبا سروالها بقوة كي يصل إلى قدميها. ومثل أي حصان هائج بطحها وأولججه فيها، فأحست بعضوه يدق باب رحمها.

كانت تشعر بلذة عنيفة، بينما هو يطلق كلمات بذئنة منتشيا وطالبا إياها أن تردد ما يقوله لها. ولم يكن أمامها سوى الاستجابة. كانت في بداية الأمر تستحي لكنها أخذت تكرر تلك الكلمات دون أن يطلب منها ذلك، بل وتشعر بالراحة والشبق حينما تلفظها.

كان زوجها سريعا في الوصول إلى النشوة والقذف بينما كانت هي في ذرى الرغبة. همد عليها كالجثة. كانت هي تنتظر أي حركة منه. فجأة قام عنها منسحبا من الغرفة، بينما ظلت هي على رقبتها تائهة في منعطفات اللذة المقطوعة، فمدت يدها إلى أسفلها لتداعب نفسها وتصل بنفسها إلى الذروة.

آدم البغدادى: بعد قراءة هذا الفصل شعرت بالتوتر الجنسي .
هل هذا الإحساس سيراود كل من يقرأ الفصل؟
أتذكر أنني قمت بهذه التجربة مع جارة لنا حينما كان زوجها غائبا ، وكانت هذه الجارة تثيرني وتدعوني وحينما أود الاقتراب منها تبتعد . وقد صادف أن كان الجو ملائما لي ولها . لم يكن أي شخص في الدار . دخلت عليها وفعلت معها ما فعله آدم التائه مع حواء المؤمن ، بفارق وحيد هو أنها كانت امرأة جريئة ، فقد كانت هي التي تطلب مني أن أتلفظ ببعض الكلمات الجنسية الفاحشة معها ، بل وقامت ببعض الحركات التي لم يكن قد تجربتها من قبل ، لكن لم أود أن يكررها آدم التائه ، لأن تلك الحركات لا تتسجم مع شخصية بطلته حواء المؤمن ، لذا اكتفى بهذا القدر .
أتذكر أيضا بأني شاهدت مثل هذا المشهد في فيلم أميركي ل(مايكل دوغلاس) حينما يغتصب إحدى صديقاته من الموظفات اللاتي معه . لست متأكداً من أين جاء هذا المشهد أثناء الكتابة؟ من تجربتي الشخصية أم من بقايا صور الفيلم العالقة في ترسبات اللاوعي .

حقا لا أعرف سر العملية الإبداعية وينايعها الأصلية؟ كيف تتشكل الصورة الفنية؟ ومن أين للمخيلة تركيب هذه الأشياء؟ أتذكر المحلل النفساني والمفكر (غوستاف يونغ) ونظريته عن جبل الثلج في توضيح العلاقة بين الوعي الذي يشبهه بالقمة البارزة من جبل الثلج ، وعن اللاوعي الذي يشكل ما تبقى من الجبل المغفور في أعماق المياه . فهل يستمد الكاتب من لا وعيه وبلا وعي أثناء تشكيله وإنجازه للعمل الفني؟

هل علي إبقاء هذا الفصل بهذه الصورة التي كتبتها أم أن علي تغييره أو حذفه بالكامل؟ أليس هذا الوضوح في رسم تفاصيل العلاقة فيه شيء من الإباحة وينتمي إلى الأدب المكشوف؟

أحقاً أريد كتابة نص مكشوف أم أريد أن أكتب بصراحة
وأكشف ما يجري بين المرأة والرجل بوضوح دونما تزويق؟
أنا أعتقد أن شخصية الإنسان الحقيقية تتكشف في السرير أو
في العلاقة الجنسية. هل أنا معقد أو مريض؟ هل أنا مهووس
جنسياً؟

من خلال تجاربي مع نساء من مختلف المشارب، مثقفات،
أستاذات جامعات وفنانات وأديبات وشخصيات نسائية يقدن
منظمات دينية، محجبات وسافرات، وجدت جميعهن أثناء
العلاقة الجسدية يتحولن إلى كتلة من الشبق، وحتى الباردات
منهن كن يتلذذن بالكلام المفصوح معهن أو عنهن.

(6)

هروب آدم التائه

استيقظت حواء المؤمن من نومها متعبة ومهدودة الأعصاب. أحست بجسدها ثقيلًا على الحركة لكنها قامت ببطء متجهة إلى المطبخ لتعد لنفسها القهوة. نظرت إلى الساعة الحائطية فوجدتها تشير إلى الحادية عشرة والنصف. حينما دخلت غرفة الاستقبال وجدت زوجها منهمكا بالكتابة، ومن ملامحه عرفت أنه لم ينام أو أنه استيقظ مبكرًا جدًا لكي يكتب، ولمحت أنه يواصل الكتابة في الملزمة التي تحمل عنوان (المرأة المجهولة) أو (متاهة آدم)، كما انتبهت إلى منفضة السجائر التي كانت مليئة بالأعقاب المحترقة والرماد.

لم ينتبه الدكتور آدم التائه لها وهي واقفة قرب الباب. فجأة رفع رأسه إليها ونظر إليها بشرود وكأنه لم يرها ثم واصل الكتابة، لكنها وقبل أن تلتفت لتخرج سمعته يقول:

– ممكن تعملين لنا القهوة

لم تلتفت إليه وإنما واصلت طريقها إلى المطبخ قائلة:

– لقد بدأت أعدها

كانت قد وضعت القهوة في المرشح الورقي والجهاز الذي يُغلي الماء والذي بدأ يبعث قطرات الماء لتنزل على القهوة في الدورق الزجاجي.

لم يكن ما نزل من قهوة سائلة في الدورق كافيًا للشرب بعد، لذا توجهت حواء المؤمن إلى الحمام.

في الحمام نزعت ثوبها مباشرة ووقفت تحت دش الماء وفتحته على أشد قوة فيه وبقيت هناك للحظات تحت وابل الماء الذي أحست به يطهرها ويعيدها لنفسها.

بينما كانت حواء المؤمن منشغلة بنفسها واقفة تحت وابل الماء، كان الدكتور آدم التائه قد أنهى فصلا جديدا من روايته التي أمضى أشهرها وهو يكتب في فصولها. فكر مع نفسه لحظتها في أنها رواية مُتعبَة، ولا يدري كيف سينهيها. لم يكن قد خطط لها بهذه الطريقة. لقد ولدت في ذهنه بشكل بسيط وأحداث واضحة المعالم، لكن ما أن بدأ الكتابة حتى أخذت الأحداث مسارات لم يفكر فيها والشخصيات تواجه مصائر لم يفكر بها قط، وبالرغم من أنه بدأ الرواية في بغداد إلا أنه واصل كتابتها في عمان واستمرت معه دون أن يستطيع الوصول إلى الخاتمة التي لا يعرفها لحد الآن.

حينما بدأ الكتابة في هذه الرواية كانت علاقته بزوجته حواء المؤمن سطحية. صحيح أنها زوجته، لكنه تزوجها تلبية لرغبة أمه التي يحبها كثيرا، وأنه فعلا كان يحتاج لامرأة تخدمها وتخدم أباه الذي لا يحبه والذي كان يجرح كرامة أمه التي كانت تعرف بأنه يقيم علاقات مع نساء أخريات.

يذكر حينما كان صغيرا في السابعة من عمره جاء أبوه ذات ليلة ثملا ومعه امرأة ودخل معها إلى البيت فتشاجرت أمه معه أمام المرأة الأخرى، وكان هو واقفا يبكي خائفا من هذا الشجار الذي انتهى بضرب أمه ودفعهما الأب إلى غرفتهما وأغلق الباب بينما دخل هو مع المرأة الأخرى إلى الغرفة الثانية. لم ولن ينسى تلك الليلة التي ظلت تفاصيلها تعاوده كلما أراد أن يسامح أباه.

كان الدكتور آدم التائه الابن الوحيد المدلل للعائلة، فقد ولدته أمه على كبر. يذكر أنه لم يعان من الحرمان فقد كانت كل الأشياء موجودة حوله. كان وضع العائلة من الناحية المادية جيد جدا، فوالده كان تاجرا

للحبيب والتبغ. وحينما بدأ الذهاب إلى المدرسة كان والده قد عين أحد العاملين لديه بأخذه إلى المدرسة وإرجاعه عند نهاية الدوام، وكم كان يكره ذلك، لأنه كان يحب أن يلعب مع بقية التلاميذ وأن يرجع معهم دون رقيب، فهم يرجعون جماعات وأثناء عودتهم إلى بيوتهم يثرثرون ويضحكون وأحيانا يمرون بمواقف مضحكة وغريبة، يتبادلون الحديث عنها في اليوم الثاني عندما يتجمعون أثناء الفرس بين الدروس.

وكلما كبر الفتى آدم ازدادت شدة رقابة والده عليه، بل وكان يقسو عليه وكأنه ليس ابنه. كثيرا ما كان يشكو لأمه التي كانت تلوذ بالصمت عندما كان يسألها: لماذا يعاملني أبي بهذه القسوة وكأني لست ابنه؟

يذكر كيف كانت عيناها تغرورقان بالدموع، ولم يكن أمامها سوى أن تحضنه وتقبله مخففة عنه دون أن تقول كلمة واحدة. يذكر ذلك جيدا ولن ينساه. بل ظل لسنوات، وما زال، يسأل نفسه: لماذا كانت أمه تصمت حينما كان يسألها عن سبب معاملة أبيه له بهذه القسوة؟.

كان يحس بأن أباه لا يحبه من أعماق قلبه، بل يذكر حينما كان صغيرا كان يوقفه أمامه ويتأمله وكأنه كان يبحث عن شيء في وجهه. وكلما تقدم الفتى آدم التائه بالعمر توسعت الهوة بينه وبين أبيه والتصق أكثر بأمه، وحينما دخل الجامعة أحس بأن أباه لم يكن راضيا، فقد طلب منه العمل معه، إلا أن إصرار أمه على أن يكمل دراسته هو الذي أنقذه من مصيره الذي أراد أبوه أن يرسمه له.

كانت البلاد تمر بمشاكل سياسية وحرب أهلية بين الحكومة والكورد الذين كانوا يقاتلون في الجبال، وكان كل من ينهي دراسته عليه أن يخدم إلزاما في الجيش، وكان معظمهم يرسلون إلى جبهات القتال في الجبال لمواجهة البيشمركة الكورد.

كانت الجثث القادمة من هناك تبث الرعب في قلوب الأمهات، لذلك ما أن أنهى الجامعة حتى سجل لدراسة الماجستير، وسعت أمه في التوسط له من خلال قريب لها. كان أبوه يكره ذلك القريب جدا بالرغم

من أن ذلك الرجل القريب البعيد بذل كل مساعيه في ذلك بل وساعده في ما بعد لمواصلة الدكتوراه.

كان الفتى آدم التائه يدرك بأن هناك هوة غامضة مليئة بالأسرار تكتنف العلاقة ما بين والديه، لكنه لحد الآن لم يصل إلى قرارها. كل ما يعرفه أنه يحب أمه بكل طهرها وخطاياها إن كانت لديها خطايا، وهو يشك في ذلك فهي بالنسبة له قديسة، شهيدة. أما الأب فهو شخص غريب، بل إنه الشخص الذي عذب أمه، وضربها، وجاء بالعاهرات ليضاجعهن أمام عينيها.

درس آدم التائه في كلية الآداب قسم اللغة العربية، وقد واصل دراساته العليا في حقول الدراسات الإنسانية أيضا. في الجامعة شعر برغبة في الكتابة، كان قارئاً نهماً، لكنه لم يفكر أن يكون كاتباً، وبرغم ذلك وجد نفسه يكتب. ربما شجعه ما لاقاه من ثناء حول أسلوبه في الكتابة وطريقة سرده للأشياء والأفكار بشهادة جميع أساتذته وزملائه طلبة الجامعة. لذا بدأ بكتابة الخواطر، لكنه وجد أنها تافهة ولا تلبى ما يغلي في نفسه، وجرب كتابة القصة القصيرة، لكنه وجد أنها أقصر من أن يقول ما يريد، لذا حينما كتب إحدى قصصه لم يلتزم بشروط القصة القصيرة فاستمر في سرد الأحداث حتى صارت لديه قصة طويلة لا هي بالرواية ولا هي بالقصة القصيرة، لذا قرر أن تكون رواية فأعاد بناء الأحداث. أضاف شخصيات جديدة وأطال من بعض الحوارات وأسهب في الوصف، فصارت لديه قصة طويلة يمكن القول عنها إنها رواية. لم يكن النشر بالنسبة إليه مشكلة من الناحية المادية، لكنه حينما قدمها إلى وزارة الإعلام تم رفضها لأنها (لا تستجيب لمشاكل المجتمع العراقي الذي يعيش التحولات الثورية وان معظم شخصياتها سلبية)، لذا قرر طبعها في بيروت. وفعلا راسل إحدى دور النشر المعروفة هناك واتفق معهم على المبلغ الذي كان بالنسبة لبقية الكتاب العراقيين كبيرا، وتم نشر الرواية التي لاقت صدىً طيباً في الصحافة اللبنانية، ولم يكتب عنها

في بغداد سوى أخبار عابرة وعرض مبسط، لكنها برغم ذلك رسمت له اسما في خارطة الكتاب.

ربما كان هو محبطا من الاستقبال البارد للرواية بين أوساط النقاد العراقيين، لكن الذي عوض عن هذا ما كتبه أحد الصحفيين اللبنانيين بأنه يجد في آدم التائه كافكا عربيا، فهذا الأسلوب الغامض والبوليسي والغرائبية لم تتعود عليها الرواية العربية.

أشد اللحظات إثارة في حياته الإبداعية كانت عندما دخلت امرأة فاتنة ظننها إحدى الطالبات الفاتنات الأنيقات إلى مكتبه في الجامعة وقالت له بأنها قرأت روايته (كوابيس القنفذ)، وإنها معجبة بهذه الرواية جدا، ومعجبة بطريقته في الكتابة، لكن لديها بعض الملاحظات.

بعد أن قام الدكتور آدم التائه بمراسيم الترحيب طلب أن يسمع ملاحظاتها فقالت له بأن ملاحظاتها ربما لا تعجبه، وربما سينزعج منها، فنفى ذلك وأصر على أن تقول ما لديها وبصراحة شديدة، فقالت له كلاما وكأنها كانت قد أعدته، لأنها لم تتوقف ولم تتردد في سرد ملاحظاتها الجريئة، وما زال يتذكر كل تلك اللحظات والجمل التي فتحت بابا لسعادة مؤقتة في حياته:

- أنت يا دكتور آدم التائه كاتب تائه كلقبك. كاتب متردد. لا تستطيع أن تقول كل شيء. إن الغموض في روايتك ليس متأيا من طريقتك الجديدة في الكتابة وإنما لخوفك من أن تقول كل شيء عن الشخصية وبصراحة، وأنك، وقد سمحت لي بالحديث معك بصراحة، معقد، وعلى الرغم من اعتقادي بأنك نفسك بطل الرواية أو على الأقل اعتمدت على تجربتك الشخصية فانك جسدت نمطا من الناس يعيش بيننا حقا، فزوجي تقريبا يشبه بظلك في الكثير من الأوجه.

فقاطعها الدكتور آدم مستفسرا وكأنه استلم رسالة خفية منها:

– هل أنت متزوجة؟

نظرت إليه أول الأمر بغرابة لمقاطعته لها مستفسرا عن هذا التفصيل من كل ما قالته، ثم استرخت ملامحها وابتسمت ابتسامة خفية، وكأنها فهمت بأنه يريد أن يتعرف عليها شخصيا، ولا يعنيه ما تقول فيه:

– نعم أنا متزوجة من رجل عسكري وبرتبة كبيرة...

صُدم من إجابتها وكأنه جاء كرسالة تهديد تنبهه أن لا يتمادى معها،

واستمرت:

– أرجو أن لا تكون ملاحظاتي جارحة أو مزعجة.

فكر الدكتور آدم التائه بسرعة خارقة. كيف له أن لا يُفقد هذه الفاتنة من يده؟ وأن يقيم معها علاقة؟ لقد تأججت الرغبة فيه وهي تتحدث، لكنها أربكته بكلامها عن زوجها، لكن رغبته ظلت متأججة. إذن، عليه أن يستخدم أساليبه الأدبية وكل خبرته في اصطياها.

– أبدا.. هذه أول مرة أجد من يفهمني بهذه الطريقة العميقة. بل أنت

تفهميني ربما أكثر من نفسي. أنت، إذا سمحت لي، مرآتي. مرآة
روحي القلقة والمعذبة.

انتظر وقع كلماته عليها. أدرك بأنه أثر فيها من خلال تعظيم شخصيتها ومنحها هذه التوصيف الذي أعجبها وأثار غرورها ودفعها للتعاطف الخفي معه، فقالت مبتسمة:

– يشرفني أن أكون بهذه المكانة برغم اعتقادي أنني كنت قاسية

عليك. أسعدني جدا أنك تقبلت ملاحظاتي بهذه الأريحية. هذه من سمات الكتاب الكبار الذين لا يهابون النقد مهما كان قاسيا.

لم يجيبها الدكتور آدم التائه لأنه في تلك اللحظات كان يتخيلها عارية، لكن كان عليه الإجابة أيضا، فقال لها:

– أتمنى شيئا واحدا. بل هو رجاء أكثر مما هو أمنية

ابتسمت بغموض وكأنها تتوقع ما سيطلبه، لكنها أرادت أن تتأكد:

– ما هي أميتك أو رجاؤك. بودي معرفة ذلك لو سمحت

نظر آدم التائه إليها بتفحص. عرف أنها تعرف ما سيقول وأنها تتقبل ذلك، لكنها تلعب معه أيضا:

– أريدك أن تكوني مرآتي دائما. سأريك كل حرف أكتبه، وأستمع إليك وكأنما أستمع إلى نفسي الغائبة. أريد أن أرى نفسي فيك دائما.

ابتسمت أكثر وقالت وهي تنظر في عينيه مباشرة:

– دائما

– دائما. دائما. وإلى آخر لحظة في حياتي.

ضحكت بمرح وقالت:

– أوه. بدأنا ندخل المناطق الخطرة. إلى آخر لحظة في حياتي؟؟ هل أنت متأكد.

– متأكد. متأكد.

أحس بالتهيج. أراد أن يقوم من مكانه ويحضرها مباشرة لكن توقف وكأنما هناك نداء داخلي ناداه بأن يصبر ولا يستعجل إلى أن تنضج الفاكهة. إذن عليه الاستمرار في الدور. أصطنع الحزن والخيبة، فقال:

– لكني أعرف أن ذلك مستحيل

فوجئت بتحول حاله وأحست بالخوف من فقدان شيء ثمين، فقالت:
– لماذا مستحيل.

نظر إليها كمن يريد إطلاق طلقته الأخيرة على الهدف الذي سيحسم وضعه معها:

– لأنك متزوجة من شخصية عسكرية وبرتبة كبيرة كما تقولين. وهذا الأمر كما تعرفين ربما سيكون سببا لخلق بعض الصعوبات والمشاكل لك..... ولي

أحست ببعض الراحة حينما عرفت سبب الخيبة التي ارتسمت على ملامحه، فقالت مبتسمة:

– من هذه الناحية لا تقلق، أولا أنه غائب دائما أو شبه غائب.

وثانيا: أنا التي أتحكم في كل شيء، كما أنني لن أجعلك عرضة للمشاكل.

ثم نهضت فجأة ومدت يدها مصافحة إياه ومبتسمة، فنهض أيضا، فقالت له:

- أرجو أن تحمل ما لديك من كتابات كي استطيع قراءتها وإبداء رأيي فيها إن أحببت:

- طبعاً. طبعاً. ستكون معي هنا غداً.

- غدا ليست لدي محاضرات. بعد غد سأكون في الجامعة.

- بعد غد.. إذن بعد غد..

وحينما استدارت خارجة نظراً إليها من الخلف سارحاً بنظره إلى مؤخرتها وإلى ساقها ثم جلس على كرسيه مدهولاً وكأنه كان في مشهد روائي متخيل، وليس واقعا عاشه بكل تفاصيله.

ظل جالسا في كرسيه لفترة طويلة دون أن يفعل شيئاً غير الاستغراق في التخيلات الجنسية وأحلام اليقظة. فجأة أحس بقلق حينما طرأ تساؤل غريب على ذهنه: ماذا لو اتضح أنها مرسله من جهات معينة لتوريطه في مسألة ما تكون نتائجها وخيمة عليه، لاسيما وأنه لا ينتمي إلى الحزب الحاكم، وهذا ما عقد وضعه في الجامعة؟. وأجاب نفسه، لماذا يرسلون امرأة فاتنة لهذه المهمة وبطريقة أدبية، ولا يتبعون أساليبهم المعروفة بالضغط والإكراه؟ ثم أنها فعلا قدمت ملاحظات جيدة حوله، وربما هي محقة في ما يخص ملاحظاتها عنه شخصياً.

في اليوم المحدد بينهما لم تأت. تذكر أنه لم يسألها في أية كلية هي أو أن كانت إحدى طالباته. وبرغم أنه لم يحمل معه أي شيء من كتاباته الجديدة لأنه ببساطة لم يبدأ بأي عمل روائي جديد، إلا أنه كان متحرقا لرؤيتها، فهي امرأة أنيقة بل وفاتنة، وبدت له أنها مثقفة وجريئة، ومن خلال ملاحظاتها خمن ربما هي أيضا تمارس الكتابة فكلما يشي

بمعرفة نقدية متميزة، وثقافة عالية لم يجدها حتى بين أساتذة الجامعة، فمن هي يا ترى؟ لكن كيف سيلتقي معها، وأين؟

فكر مع نفسه، عليه أن يؤجر شقة خاصة لكي تكون عشا للقائهما، إذ يبدو أنها أيضا امرأة مغامرة، وأنها تريد أن تقيم علاقة معه، لكن لماذا؟ ما الذي أغراها فيه، هل أن روايته (كوابيس القنفذ) هي التي أثارتها إلى هذه الدرجة حقا؟ أم أنها امرأة حالمة تريد أن تكون بطلة لرواية، وبالتالي بدأت معه علاقة لأنها متأكدة أنه سيكتب عنها رواية أو ستكون إحدى شخصياته الروائية، فهل هذا طموحها حقا؟

ثم هل هو معقد كما قالت؟ وهل هو مفضوح إلى هذه الدرجة بحيث أن القارئ يستطيع تلمس عقده؟ ما الذي كانت تقصده بأنه معقد؟ حينها لم يكن يستمتع لها بوعي وانتباه برغم أن وجهه كان يعبر عن الانتباه، لأنه حينها عراها وهي جالسة أمامه، وفكر عن اللذة التي ستمنحها له إذا ما أقام معها علاقة.

هل أن جميع الرجال أو على الأقل الكتاب والفنانين، أو بشكل عام المثقفين، هكذا مثله حينما يقابلون امرأة جميلة وفاتنة مثلها؟ هل أول ما يفكرون فيه هو كيف يضاجعونها؟ أو بكلمات أخف أن يقيموا معها علاقة؟ ما معنى الحب إذن؟

حينما رجع ذلك اليوم ظهرا إلى البيت وجد أن أمه نائمة وأباه يرش باحة الدار بالماء من حنفية الدار. سلم دونما اهتمام ودخل إلى غرفته حتى دون أن ينتظر سماع رد التحية فوجد زوجته نائمة والمروحة تدور حولها قرب السرير. انتبهت لدخوله، فقامت وعلى وجهها ما يشبع الاعتذار، قائلة:

– لقد تأخرت اليوم، فظننت أنك لن تأتي إلا مساءً، فتمددت ثم غفوت. سأصب الطعام، فهو جاهز وما زال ساخنا..

لم يعلق على كلامها وإنما سألها عن والدته:

– هل أكلت، وهل أخذت أدويتها في مواعيدها؟

- نعم..أنا بنفسى ساعدتها على تعاطيها..
- هل هي نائمة؟
- لا أدري.. يمكن أن تكون قد نامت لأنها تمددت بعد أن أخذت الأدوية، لكن عمى ما زال صاحبيا فقد قرر أن يرش باحة الدار بنفسه رغم أنني قلت بأنى يمكن أن أقوم بذلك..
- لا يعنينى ماذا يفعل هو.. المهم أمى
- لم تعلق على كلامه، لكنها كانت تحس بأنه لا يطيق أباه. خرجت من الغرفة، بينما وضع هو حقيته الجلدية جانبا ونزع قميصه الذي كان قد ابتل من التعرق، وكذلك بنطاله، ثم لبس ثوبه الذي أخذه من على حمالة الملابس.
- حينما جاءت حواء المؤمن بصينية الطعام كان الدكتور آدم التائه متمددا على السرير محدقا إلى سقف الغرفة، وضعت الصينية على الأرض فنزل هو وجلس على البساط المفروش على إحدى جوانب الغرفة، وبدأ يأكل وهو ساهم النظرات، فسألته مستفسرة:
- هل حدث شيء ما؟
- انتبه إلى سؤالها ونظر إليها مستفسرا:
- لا، لم يحدث شيء، ماذا يمكن أن يحدث؟
- لا أعلم، لكنك ساهى النظرات، فقلت ربما حدث شيء؟
- لا لم يحدث شيء..
- واستمر فى الأكل وملامحه تؤكد أنه يفكر فى شيء آخر. انتبه لها وهي تنظر إليه وهو يأكل، فلم يعجبه ذلك فقال لها:
- لا أحب أن ينظر أحد إليّ وأنا آكل..
- ارتبكت حواء المؤمن فقامت خارجة ملتفتة له:
- سأساعد أباك فى رش الباحة، وإلا فإنه سيغرق البيت بالماء
- نظر إليها قائلا:
- حضرى الشاي، وبعد ذلك احمليه لى فى المكتبة..

- حاضر

وخرجت إلى الباحة، وسمع أنها تحدث أباه، بينما استمر هو في طعامه، ثم توقف فجأة حينما سمعها تقهقه وتصرخ جذلة طالبة من أبيه أن لا يرشها بالماء، فترك صينية الطعام جانبا، وقام ليخرج إلى الباحة صارخا بها:

- ألم اقل أريد شايا..

- الشاي جاهز

كانت حواء المؤمن واقفة بالقرب من والده، وكان الماء قد بللها فالتصق ثوبها الصيفي الخفيف بجسدها المثير فكشفت عن مفاتها، فغضب منها، ثم توجه داخلا إلى غرفة المكتبة، فأحست بالانكسار ونظرت إلى أبيه الذي كان أيضا غاضبا من تصرف ابنه، فتوجهت هي إلى المطبخ، لتحمل له الشاي.

حينما دخلت إلى المكتبة وجدته ممتددا على الأريكة التي هناك. وقفت أمامه. تأمل جسدها المثير. طلب منها أن تقترب إليه فتقدمت حتى صارت أمامه مباشرة وبيدها صينية الشاي وعليها ابريق الشاي الصغير مع قذح الشاي وقندون السكر، وبلمح البصر مد يده متلمسا بين فخذيهما، فرجعت إلى الوراء خطوة وقد شعرت بإثارة مفاجئة.

لا يدري لِمَ جاء مشهد الممثلة هند رستم في فيلم (باب الحديد) حينما كانت تغتسل وهي بثوبها الخفيف. فجأة انتبه إلى أن لزوجته شبهاً كبيراً بهند رستم، إلا أنها أكثر شبابا منها فهي في بداية العشرين من عمرها. فكر للحظة بأنها أجمل من المرأة الفاتنة الغامضة التي اقتحمت عزلته فجأة لتكون مرآته.

شعرت حواء المؤمن بالخجل برغم الإثارة وقالت باستحياء:

- أبوك موجود في الباحة

شعر بالغضب من جملتها، وكأنما أراد تحدي أباه، فقال لها:

- ضعي الصينية على الطاولة هناك. تعالي. لا يعنيني من هو موجود

أو غير موجود
- ولكن يمكن أن يسمع صوتنا
- قلت لك إنه لا يعينني
وما أن وضعت الصينية على الطاولة حتى سحبها من يدها إليه
فقلت له:

- دعني أذهب لأغير ثوبي فهو مبلل..
- أريدك هكذا، بثوبك المبلل
ثم قام فجأة وأجلسها على الأريكة رافعا ثوبه إلى الأعلى طالبا منها
أن تأخذه بفمها فقالت له:
- لا أرغب بذلك، لم أفعلمها سابقا.
- افعلها الآن.. جريبه..
- لكن
- قلت خذيه بفمك. جربي. سيعجبك.
لم يكن أمامها إلا أن تفعل ما يريد فأسدل ثوبه عليها وظلت هي
تحت الثوب.

في اليوم الثاني كان لديه في الجامعة محاضرتان. في قاعة المحاضرة
كان يفتش عنها بين وجوه الطالبات فلم يجدها، وحينما توجه إلى مكتبه
وجدها واقفة قبالة باب المكتب تنتظره.
لم يحدثها في الممر وإنما فتح باب مكتبه فدخلت خلفه، وعند
الباب صافحها داعيا إياها إلى الجلوس، بينما جلس هو على كرسيه
خلف طاولة مكتبه، فبادرها:

- أعتذر إن جعلتك تنتظرين أمام الباب
- لا أبداً.. أنا عليّ الاعتذار لأنني أخلفت مواعيدي فلقد كان يفترض
أن أكون هنا بالأمس، لكنني لم أتمكن من ذلك لأن زوجي جاء
من السفر ومكث ليوم واحد قبل أن يلتحق بمعسكره.

- وأنا قد حملت كتاباتي الأخيرة بالأمس لكنك لم تحضري ولم أتوقع مجيئك اليوم، بل ظننت أنك لن تأتي أبدا.. فابتسمت له وقالت بدلال:

- أولا: أنا آسفة حقا لأنني لم أستطع المجيء. ثانيا: كيف تفكر هكذا، أأست مرأتك إلى آخر لحظة من حياتك كما قلت، أم إنك تراجع عن ذلك..

- أنا.. أنا أتراجع عن ذلك؟ أنا لم أصدق أنك كنت هنا.. ظننتك وهما..

- وهما. أم حلما.

نظر إليها بإعجاب لهذه الالتفاتة الذكية وقال:

- نعم.. أنت حلم جميل ومذهل. ولا أصدقك أنك الآن أمامي ثانية - أهووووو.. سيصيني الغرور يا دكتور..

- بالمناسبة.. هل تدرين أنني لا أعرف اسمك. فمن شدة ذهولي لم أسألك عنه..

- ربما سيصيبك الدهول أكثر إذا ما ذكرت اسمي. لأننا سنكون ثنائي غريب.

صمت لحظة ثم نظر إليها بتساؤل، وقال بتردد وكأنه يحل لغزا:

- لا تقولي إن اسمك.. حواء

- بالضبط

أصابت الدكتور آدم دهشة حقيقية

- طريدة الفردوس

- عن أي فردوس تتحدث يا دكتور. ليس أمامنا سوى الجحيم..

- أقصد كنا في الفردوس..

- شخصيا لم أكن يوما في الفردوس، إلا إذا اعتبرت رحم أمي هو

الفردوس أو العدم هو الفردوس

- ألا تؤمنين بقصة آدم وحواء وطردهما من الفردوس..

- أنا اقرأ هذه القصة كأسطورة. أفهمها بشكل رمزي. لا أدري إن كان هناك فردوس بالمعنى الحسي الملموس، وإذا ما كان فأين هو؟ في أي كوكب أو مجرة يقع؟ لأنه، وبالتالي، فأنا أنا وأنت من لحم ودم، أقصد آدم وحواء، أي كانا مخلوقين ماديين وهذا يعني أنهما كانا في موقع مادي وملموس، وإلا كيف يمكن لهما وهما المخلوقان الماديان، وقد خلقهما الله من الطين، أن يكونا في موقع روحاني غير ملموس.

وجد الدكتور آدم التائه أنه أمام شخصية غريبة، بل نسي كل تفاصيل جسدها الطاغية ولباقتها المشيرة، وأخذ يفكر بما قالته، فشحب لون وجهه وقال بارتباك:

- من أنت؟

ابتسمت بدلال وقالت:

- أنا حواء. حواء الغريب وليست حواء الفردوس. وأنا حواء الجحيم الأرضي

- هل أنت ملحدة؟

- لا، على العكس. أنا مؤمنة جدا. مؤمنة بوجود خالق لهذا الكون العجيب، لكنني لا أؤمن بالأديان. أقصد أنا لا أفهم الأشياء بشكلها الحرفي. أنا أفهم قصة حواء وآدم على أنها صراع الخير والشر في أعماق الإنسان، صراع الذكورة والأنوثة، صراع العقل والعاطفة، صراع الحرية والجبر الإلهي.

كان الدكتور آدم التائه منبها بكلامها أشد الانبهار. كان يحس بدفق

الفرح في عقله وروحه وقلبه، فقال بحماس واضح:

- لا.. لا.. هذا غير معقول.. أنا لا أصدق أنني أمام امرأة من هذا الزمان..

- من هذا الزمان أو من أي زمان..

- ومن أي زمان

– أها.. أي أنت لا تؤمن بوجود أي امرأة عاقلة تستطيع التفكير
فأرتبك وقال بما يشبه الاعتذار..
– لا أبدا. لا أقصد بأنه المرأة أقل من الرجل قيمة، أو أنها أقل ذكاء،
وإنما أردت أن أعبر عن إعجابي الكبير بك وبطريقة تفكيرك. هل
تصدقين أنني لم أفكر بقصة آدم وحواء بهذه الطريقة وهي بالنسبة
لي من المسلمات التي لم أفكر في أن أضعهما أمام محكمة
المنطق الحسي هكذا..
فقلت بأنوثه طاغية:

– سامحتك، لكن عليك الحذر من حواء ابنة الجحيم، ولا تنظر إليّ
باعتباري طريدة الفردوس. اتفقنا..
فقال مرددا:
– اتفقنا..

كان الدكتور آدم التائه يريد أن ينهي هذا الحوار المتعالي وأن يهبط
إلى الأرض، أو إلى الجحيم كما تقول هي، وفكر في نفسه للحظة، كيف
ستكون في السرير، وبماذا تفكر عندها، لذا أراد أن يدير دفة الحديث
نحو هدفه الواضح، فقال:

– بالمناسبة، لقد فتشت عليك اليوم في قاعة المحاضرات وفي كلا
الشعبتين فلم أجدك، هل أنت طالبة في كلية الآداب...
– لا.. أنا طالبة في كلية الحقوق، السنة الرابعة. هل تريد أن تعرف
عني أكثر؟ أسألني وسأجيبك.. لا تتردد أن تسأل عن كل ما يدور
في ذهنك.. وأنا أعرف ما يدور في ذهنك..
فقال باستغراب إذ وجد في كلامها شيئا من الاستفزاز:
– تعرفين ما يدور في ذهني.. كيف.. ماذا يدور في ذهني يا حواء..
نظرت في عينيه مباشرة وقالت بثقة:

– إنك مليء بأسئلة تخص وضعي العائلي، مثلاً تتحرق لمعرفة من
هو زوجي، وكيف تزوجته؟ وهل هو أكبر مني أو لا؟ وهل لدي

أطفال؟ وهل أنا مرتاحة مع زوجي أو هناك مشاكل بيننا، وأقصد
بمرتاحة كل تفاصيل العلاقة الزوجية بما فيها علاقتنا كرجل
وامرأة؟ وأسئلة أخرى تخصك، مثلا لماذا جئتك بنفسني وأردت
التعرف عليك؟ وهل أنت الكاتب الوحيد في البلد الذي أعرفه
أو أنا لذي علاقات مع أدباء آخرين ذهبْتُ إليهم مثلما جئت
إليك؟ وأخيرا إلى أي مدى يمكن أن تتطور علاقتك معي؟..و..
أحس الدكتور آدم التائه بما يشبه الانهيار، فقال لها بلهجة شبه امرأة:
- اسكتي رجاء.. اسكتي..

ثم حدق إلى وجهها مقربا وجهه الأمام نحوها:

- من أنت؟

نظرت إليه محدقة وكأنها تقرأ ما يدور في نفسه من مخاوف:

- أنا حواء.. وأنا كما أنا أمامك واضحة كالمرأة..

- وغامضة أيضا.. كالمرأة

- ربما..

مر بينهما لحظات من الصمت، ثم قال لها وكأنه يستسلم أمامها فقال:

- لنفترض جدلا أن كل ما قلته صحيح، وأن هذه الأسئلة تدور في

ذهني، فما هي إجابتك عليها.

ابتسمت له وقالت بدلال:

- هل أنت متشوق لسماع الأجوبة..

- نعم

- جميعها..

- نعم جميعها..

- أي من الأسئلة تود أن تسمع إجابته أولا؟

لم يجيبها. ظل صامتا. نظرت إليه بتفحص وقالت مبتسمة:

- تريد أن تسمع إجابتي عن السؤال الأخير قبل بقية الأسئلة التي هي

أيضا مهمة بالنسبة لك، لكن الإجابة عن المدى الذي ستتطور

علاقتك بي هو الذي يهتمك.. أليس كذلك؟

فقال باستسلام كامل:

- نعم.. أريد أن أعرف ذلك..

صمتت لفترة قصيرة، لكنها كانت بالنسبة إلى الدكتور آدم التائه وكأنها اللحظات التي تسبق النطق بالحكم النهائي بالحياة أو الموت. أحس بعرق بارد يغطي جبينه، نظرت إليه ثم اكتسى وجهها مسحة من الحزن، وقالت بهدوء، وجدية، بعيدا عن أسلوب الدلال الذي كانت تمارسه قبل قليل:

- إلى أقصى مدى يمكنك أن تتصوره..

أمتد الصمت الذي بينهما. نظر إليها وكأنه غير مصدق ما نطقت به، فطلب منها بارتباك أن تعيد ما قالته:

- أرجوك.. هل يمكنني أن اسمع ما قلته للتو.

فقالت بهدوء شديد وهي تنظر في عينيه:

- يمكن لعلاقتنا أن تتطور إلى أقصى مدى يمكنك أن تتصوره.
هل تفهمني؟

- أفهمك.. لكنني

- بلا تلكن.. سأجيبك على أسئلتك الأخرى بمرور الوقت.. أم أنك مستعجل؟

- لا.. لا.. أنا الآن مرتاح.. كل الأجوبة الأخرى يمكن أن تؤجل
نظرت إليه وكأنها صُدمت وقالت بحزن:

- لا يعينك من كل الذي أنا فيه سوى أن تحصل علي؟

انتبه إلى أنه ارتكب حماقة بهذه الإجابة التي كشفت نواياه، لكنها استرسلت قائلة:

- لا يغرنك هذه الأناقة والثراء الواضح في ملابسني، ولا السيارة، أو السائق الذي ينتظر خارج الكلية، ولا كمية الدنانير التي أحملها في حقيبتني، ولا طريقة كلامي التي هي ليس إلا تكراراً لأفكار كتاب ومفكرين آخرين قرأتهم وحفظت أفكارهم، فأنا لستُ

سوى امرأة حزينة.. حزينة جدا..

قالت ذلك ثم قامت فجأة وكأنها أرادت منع الدموع من أن تنهمر من مآقيها، وعند الباب التفتت إليه وقالت سأمر غدا، وخرجت. ظل الدكتور آدم التائه مصدوما. لم يستطع استيعاب ما جرى خلال لحظات. ظل جالسا مذهولا حينما خرجت. قام من مكانه ولحق بها، لكنه لم يجدها. وحينما صار خارج الكلية لمحها وهي تصعد سيارة مرسيدس جديدة يقودها سائق مسن لتجلس في المقعد الخلفي. وقف صامتا تملأه الخيبة، ثم رجع منكسرا إلى مكتبه وجلس على كرسيه غارقا في لجة أفكاره المتلاطمة.

مرت أيام عصبية على الدكتور آدم التائه لأن حواء الغريب لم تظهر له. أحس أنه فقدتها نتيجة لتهوره وشبهه اللعين، فهذه المرأة ليست أنثى فقط وإنما هي منع للإلهام والإبداع. أحس وكأنه ممسوس بها، فهي شخصية روائية استثنائية، إلى جانب أنها امرأة مثقفة ثقافة استثنائية وإنسانية شجاعة بامتياز، إذ لم يرَ امرأة في حياته تمتلك هذا الوضوح وهذه الجرأة، وقد اختفت بطريقة غريبة مثلما جاءت بطريقة غريبة.

مر شهر. إنشغل الدكتور آدم التائه بأمر جرت في البيت، إذ مرضت أمه مرضا خطيرا فقد أصابتها حالة من الألم الذي لم تستطع مقاومته بأي من المسكنات، فنقلت إلى المستشفى، وبعد إجراء الفحوصات تبين عندها حصى في المرارة مما يستوجب إجراء عملية لها، حينها لاحظ اهتمام زوجته حواء المؤمن الكبير بأمه فأعجبه ذلك جدا وأحس أنها قريبة منه.

كانا يذهبان معا إلى المستشفى ويبقيان عند الأم فترةً طويلة ثم يرجعان معا. انتبه لخصالها الإنسانية، فهي طيبة، ومسكينة، تعيش في عزلة روحية، ويبدو أنها عانت كثيرا خلال زواجها الأول، برغم أنه يحاول أن ينسى أنها كانت متزوجة قبله، وأن هناك من نام معها، ورحل في أنحاء جسدها المثير ويعرف تفاصيل جسدها، بل وأولججه فيها، وأنها

كانت تلهث من اللذة، فمثل هذه الأفكار والتخيلات تعذبه.

لكنه فكر سائلا نفسه: ماذا ذنبها هي؟ لقد زوجها أخوها إلى ابن عمها وهي صغيرة في العمر، وطلقوها أيضا وهي صغيرة في العمر؟ إنه يعرف بأن أمه تحبها كثيرا، وتعطف عليها وتعتبرها ضحية، لذا سعت لتزويجها له، فقد كانت أمه على الرغم من أنها لم تتعلم سوى إلى مرحلة المتوسطة امرأة ذكية بل وحكيمة، لكن ليست حكمة الكتب وإنما حكمة الحياة، وهو يثق بأمه ثقة عمياء، وحين فاتحته بأنها تريد تزويجه وأنها وجدت له المرأة الصالحة لم يفكر طويلا ولم يعترض، لكن حينما أخبرته بأنها مطلقة انتفض رافضا، بينما انتقدته على موقفه.

استغربت الدكتور آدم التائه من تعقيدات وتناقضات تفكيره الشخصي، فكيف وهو الأستاذ الجامعي يفكر بهذه الطريقة؟ فما ذنب المطلقات في مجتمعاتنا؟ بل من يضمن أن غير المطلقة هي الأفضل دائما؟ ألم يتزوج النبي نساء مطلقات، بل ألم يطلق إحداهن من زوجها ليتزوجها، فكيف وهو الإنسان العادي، حتى ولو كان دكتورا، أن يحتج بهذه الطريقة؟ يذكر أن أمه هي التي ساقته له حجتها بزواج النبي من المطلقات، حينها حجل من ضعف موقفه وتخاذله الاجتماعي. وبرغم عادة الأمهات أنهن لا يرغبن تزويج أبنائهن من نساء مطلقات، فما هي أمه تختلف عن بقية النساء، إنها تدافع عن فتاة مطلقة بل هي تسعى لتزويجها من ابنها الوحيد. لقد أكدت أمه له بأنها امرأة مريضة وكذلك أبوه، وهما يحتاجان للعناية، وأن أية فتاة أخرى لن تقبل بسهولة أن تكون خادمة لهما إذ ربما تسعى لتكوين بيت خاص لها وتعزلهم معه، بينما حواء المؤمن فتاة مسكينة ليس لها مكان آخر غير بيت أخيها الذي تعاني ما تعاني فيه، وبالتالي ستكون شاكرا لهما أن تعيش معهما كزوجة لابنهما الوسيم والأستاذ الجامعي. صحيح أنه أكبر منها بحوالي عشرين عاما، إلا أنه يفيض بالحيوية والرجولة.

وبعد أيام ذهبت الأم لتخطب حواء من أخيها الكبير، وتمت الموافقة

بسهولة وكأنما لم يصدق الأخ الكبير كيف تخلص من أخته، وهكذا تم الزواج بسرعة ودونما ضجة كبيرة بسبب مرض الوالدين وضعفهما، ولامبالاة الدكتور آدم التائه بالتقاليد الاجتماعية، ولكون عائلته المكونة من أمه وأبيه تبدو وكأنها شجرة بلا جذور، فهو ليس لديه أقارب، ولم يعرف يوماً أن له أقارب سوى إشارة إلى قريب لأمه، الذي ساعده في عدم الالتحاق بالخدمة العسكرية من خلال سعيه لقبول آدم التائه لدراسة الماجستير ومن ثم الدكتوراه. هذا الرجل الذي هو أكثر إنسان يحقد الأب عليه ويكرهه، والذي كثيراً ما كان أبوه يلزم لأمه بالإشارة إليه حينما كان صغيراً ولم يفهم شيئاً عن الأمر. لم يتجرأ الدكتور آدم التائه أن يسأل نفسه إن كانت أمه قد خانت أباه مع قريبها هذا؟ بل ولم يود أن يذهب أبعد أن كان هذا الرجل أباه الحقيقي؟ وإلا لم يشعر بحب أبيه الحالي أبداً؟

حياته مع زوجته حواء المؤمن عادية. هي فتاة مثيرة، وطيبة، وطيدة وبريئة، ولا تفهم شيئاً في أمور العلاقة بين الرجل والمرأة برغم أنها كانت متزوجة، وقد كان مستمتعا معها، لاسيما حينما يجرها إلى مناطق غير مألوفة في العلاقة ويحس بتمتعها معه، وها هي الآن تكشف عن معدنها الطيب بالعناية والقلق الحقيقي على صحة الأم وكأنها أمها وليست أمه.

ذات يوم وقبل أن يخرج من مكتبه دخلت حواء الغريب. كانت في فستان أسود مكشوف الذراعين ويمتد إلى الركبتين ويكشف عن تناسق جسدها المثير، لكنها كانت بلا زينة واضحة، وكانت هالتان سوداوان تحيطان بعينها، من أثر السهر كما يبدو، وكانت تبدو متعبة ومنهكة جداً. ارتبك الدكتور آدم التائه عند رؤيتها، فلم يأمل رؤيتها ثانية. نهض من مكانه، متوجهاً إليها، وأراد احتضانها لكنها مدت إليه يدها على امتدادها مصافحة لتوقفه على مسافة منها. أحس بأن التي تقف أمامه ليست هي نفسها التي كانت تتحدث معه بدلال واختفت فجأة.

ثمة مياه كثيرة مرت تحت الجسور. كان يحس نفسه بأنه ليس ذلك الأرعن الذي تقوده شهوته، فقد أحس بعد مرض أمه واكتشافه لشخصية زوجته حواء المؤمن أن ثمة تحولاً طراً على مزاجه الشخصي. هل كان هذا بفعل غيابها أو أنه بفعل مرض والدته أو بفعل اكتشافه لإنسانية زوجته؟ ولماذا أحس بالارتباك عند رؤيتها، وكأنه كان مقيدا وقد فك وثاقه فانطلق؟

حين جلست ظلت صامتة للحظات كما ظل هو صامتا لا يريد أن يقتحم سكونها بالكلام، لكنها بعد فترة ليست بالطويلة بدأت بالكلام:
- أنا أعتذر جدا عن اختفائي المفاجئ دونما أي إشارة أو ترك أي أثر، لكنني كنت مضطرة لذلك، فقد توفي والذي قبل فترة، وقد حطمني هذا الحدث. لقد كان سندي في الحياة ومعلمي وصدوقي.

أخرجت منديلا حريريا لتمسح دموعا تترقت في زوايا عينيها. تأثر الدكتور آدم التائه بهذا الخبر وحاول أن يشاركها حزنها فتمتم بكلمات تقليدية تُقال عادة في مثل هذه المناسبات:

- البقاء في حياتك، أشاركك هذا المصاب الأليم، ولا أدري كيف أواسيك بهذا فقدان الجلل.

- شكرا جزيلاً

- لم أكن أعرف عن كل هذا، لقد افتقدتك كثيرا وظننت أنك لن تعودني أبدا، لاسيما بعد آخر حديث جرى بيننا.

- أنا أيضا افتقدتك. لقد مررت بلحظات شعرت بحاجة كبيرة إليك. بعد رحيل والدي بقيت وحيدة في هذا العالم. أمي قد رحلت عن عالمنا منذ سنين، وليس لدي أي أشقاء فأنا كنت وحيدة أبي الحبيب. بالمناسبة، كان أبي يعرفك ومن المعجيين بروايتك (كواييس القنفذ)، وقد كان يعرف أنني قابلتك، وهو الذي علق بأنك شخصية معقدة، ولكنك كاتب موهوب لذا فقد كان يعتقد

- بأنك ربما ستتردد الرواية العربية بشيء مهم.
- فاجأه كلامها، فأحس وكأن هناك أكثر من عين تراقبه وهو لا يدري،
وفي الوقت نفسه شعر بشيء من الكبرياء، فقال لها:
- لماذا لم تخبريني بهذا في لقائنا الأول، فربما كنا قد تقابلنا،
فشخصية مثله يتشرف المرء بالتعرف إليها.
- هو أيضا قال نفس الكلام تقريبا، لكنه كان مقعدا، ولا يتحرك إلا
على كرسي، لكنه رحل وتركني وحيدة
- أنا موجود، وستجديني دائما إلى جانبك
- شكرا جزيلًا.. هذا من لطفك
- أنا أقصد ما أقول
- شكرا جزيلًا
- أمتد الصمت بينهما ثانية، فقالت وكأنها تود أن تحسم أمرا:
- هل ما زلت تنظر إلي وكأنني مرآتك
- فقال بطريقة لا إرادية:
- نعم.. طبعا
- إذا علينا أن نتواصل، لكنني لا أستطيع أن أزورك هنا في المكتب
باستمرار، فوضعي لا يسمح، لاسيما أن إحدى أخوات زوجي
جاءت لتعيش معي. أبي كان يعيش معنا، وكنا أنا وهو وحدنا لأن
زوجي لا يتواجد إلا عند الإجازات والظروف الطارئة، وقد أرسل
إلى أخته كي تعيش معنا بعد وفاة والدي، وبالتالي فأن حركتي
سوف تكون محسوبة، فعندما كان أبي حيا كنت أذهب إلى أي
مكان أشاء وأقضي الوقت الذي أريد في أي مكان، لكن الآن..
- أفهم.. أفهم.. ولكن كيف سأراك ومتى
- لا أدري.. هل لديك مكان خاص نلتقي فيه ونتحدث
- لا.. لكنني سأفكر في الأمر وسأجد شيئا من هذا القبيل
- هل تعيش أنت وحدك أم مع عائلتك

صدمه هذا السؤال لاسيما في مثل هذا الوقت الذي أحس فيه بأنه اقترب من هدفه، ولم يستطع أن لا يجيب عليه فقال:

– أنا أعيش مع عائلتي، لكنني فكرت أن استأجر شقة تكون ملجأ للكتابة ولعزلي الأدبية

– هذا جيد.. ولماذا لم تقم بهذا الأمر سابقا

– لأني.. لأني..

فقاطعته:

– إذا كان السبب ماديا فأنا مستعدة لأن أدفع إيجار الشقة والإنفاق عليها، المهم أن تستأجرها.. قد أبدو وكأني أتصرف بغرابة وتهور أو أبدو وكأني امرأة مستهتره لا تقيم وزنا للعادات والتقاليد الاجتماعية، فكيف بامرأة متزوجه ومن شخصية مهمة أن تأتي لرجل وهي التي تريد التعرف عليه، وتطلب صداقته، وأخيرا تريد أن يستأجر شقة لكي تلتقي معه بل تدفع له إيجار الشقة. امرأة مثل هذه ربما لا توجد إلا في الروايات أو في المجتمعات المتحررة وليس في مثل مجتمعنا المغلق.

فقال باستسلام وكأنه يؤيد كل ما قالته أو هكذا راودته انطباعات

عنها:

– هذا صحيح، فأنت امرأة غريبة، ومن ينظر إلى تصرفاتك وكل ما قمت به لحد الآن سيتكون لديه الانطباع الذي ذكرته قبل لحظات

– أعرف ذلك، لكنك لا تعرفني جيدا

– ربما

– بل أكيد، فأنت تنظر إليّ كطريدة، كصيد جميل يستحق المغامرة والعناء، بل وربما سأكون حافزا لكتابة رواية جديدة.

– هذا أيضا صحيح لحد ما..

– بل أكيد أيضا..

– دكتور آدم.. أبي هو معلمي وصديقي، وعلمني أن أكون واضحة

مع نفسي ومع الأشياء والآخرين، علمني أن أكون صريحة مع نفسي، ومع أفكاري ورغباتي، وأن أتحمّل مسؤولية أي تصرف أو خطوة أخطوها أو قرار أتخذه. لكن وكما ترى الآن، أنا محطمة ووحيدة، وأحتاج إلى من أشعر بالأمان معه ليكون منبعاً للقوة بالاستمرار في الحياة، وإلا فأني سأنتهي...
- وزوجك.. ألا تشعرين بالأمان معه

ابتسمت بحزن:

- إنه آخر إنسان يمكن أن أفكر فيه، أو لا أفكر فيه أصلاً، لأنه بعيد عن عالمي. لا أريد أن أشكو مثل بقية النساء لتبرر تصرفاتها بالتعرف لرجال آخرين غير زوجها، فهو رجل لديه أحلامه وطموحاته وكرس حياته لهذه الأحلام والطموحات، وأنا له ديكور ومكمل يحتاجه للوصول إلى هذه الأهداف. أنا بالنسبة إليه جسد مثير يركن إليه من تعب الأيام والحياة يستمتع فيه بطريقته.
- ولماذا تزوجته إذن..

- أنه قريب لي.. ابن خالتي.. وتزوجني حينما كانت المرحومة أمي على قيد الحياة، وكانت خالتي قد طلبت يدي من أمي وأقنعت أبي.. وبالمناسبة فهو رجل وسيم وشخصية قوية، لكنه بالنسبة لي ليس زوجاً. أنا لا أشعر بالأمان معه. حينما يكون في إجازة لا نجد ما نقوله بيننا سوى بعض الكلمات التافهة والعادية التي تتكرر كل مرة ولا ينقذنا إلا زيارة أخته أو خالتي أو بعض الأقرباء الذي يتوافدون حينما يكون موجوداً. على أية حال. أوجعت رأسك بهذه التفاصيل.. لكنني أعتقد أنك كنت تحتاج لمعرفة. صحيح جداً.. فأنا لا أعرفك.. فأنت بالنسبة لي المرأة المجهولة..
- المرأة الحلم الذي يأتي ولا يأتي..
- سأكون موجودة دائماً معك.. هذا إذا لم يضايقك هذا ولا يخلخل نظام حياتك واستقرارها.

– سأكون اسعد رجل في العالم..
– إذن اتفقنا على تأجير الشقة وبأسرع وقت، وخذ شقة جيدة ونظيفة
ولا تهتم للإيجار.. اتفقنا..
– اتفقنا

أجاب بتردد وخجل فلم يتوقع الدكتور آدم كل هذا الحوار وتسارع
الأمر بهذا الشكل، وفسر الأمر بأن حالتها النفسية التي تمر فيها هي التي
تدفعها إلى البحث عن ملجأ آمن يعوضها عن حنان أبيها، الذي يبدو أنه
كان رجلاً مثقفاً ومتحرراً وقريباً منها، وعليه أن لا يفوت هذه الفرصة.
أثناء ذلك قامت هي بعد وضعت منديلها في الحقيبة ثانية واتجهت نحو
الباب، فنهض هو أيضاً، فرجته أن لا يقوم من مكانه:

– أرجوك أبق في مكانك.. سأكون في الأسبوع القادم وفي مثل
هذا اليوم عندك

وخرجت دون أن تترك له فرصة للرد أو للقيام بتوصيلها إلى الباب.

حينما عاد الدكتور آدم التائه إلى البيت وجد الجو مكفهراً إذ أخبرته
زوجته مباشرة بأن والدته انتكست صحياً مرة أخرى، وأنها تتألم، وقد
أخذت بعض المسكنات ونامت. صُدم الدكتور آدم التائه عند سماع ذلك
وانتابه شعور بالذنب إزاء أمه، فبينما هي تنهار صحياً وتتعذب كان هو
يعيش مغامرة عاطفية محفوفة بالمخاطر، وهو يعرف ذلك، لكن رغبته
تشل عقله وتخرس منطقته أحياناً.

فتح آدم التائه الباب على أمه في غرفتها فوجدها راقدة في نوم عميق،
فأغلق الباب بهدوء ودخل غرفة المكتبة، وحينما دخلت حواء المؤمن
عليه قال لها إنه يريد أن يكون وحده، وحينما سألته إن كان يحتاج لشيء
فأخبرها أنه لا يحتاج لأي شيء، سوى أن يتركه وحده.

في اليوم الثاني وبالرغم من أنه لم تكن هناك محاضرات في جدول
الدكتور إلا أنه قرر أن يذهب إلى مكتبه في الجامعة، وأثناء ذهابه إلى

الجامعة اشترى الدكتور آدم التائه بعض الصحف المعروفة الواسعة الانتشار لبحث في صفحات الإعلانات عن شقة للإيجار، وهذا ما فعله بعد وصوله إلى المكتب بالتوقف عند بعض الإعلانات وسجلها ثم خرج ليقوم بمعابقتها وتأجير المناسب منها. وفعلًا وجد شقة جيدة بغرفتين وصالة ومفروشة حديثًا، لكنها مرتفعة الإيجار نوعًا ما، وفي منطقة الحارثية الحديثة نسبيًا والتي تسكنها الطبقة الوسطى تقريبًا. اتفق مع صاحب مكتب العقارات الذي كان هو الطرف المعلن بأن يتم ترميم بعض الأشياء الضرورية في الحمام الذي وعده صاحب المكتب بانجاز هذه النواقص خلال أيام، ووعده بالعودة إليه بعد في الأسبوع المقبل.

لم يعرف الدكتور آدم التائه كيف مر هذا الأسبوع على الرغم من قلقه على أمه التي كانت تذبل يوما بعد يوم. في اليوم المحدد جاءت كما وعدت، لكنها وبرغم كونها ما زالت في ثياب الحداد إلا أنها كانت أكثر أناقة من المرة السابقة.

ذهبا معا لرؤية الشقة، لكن كل بمفرده بعد أن كتب لها عنوان مكتب العقارات، لكنه تأخر كثيرا بسبب الزحام. وصل هو بسيارة أجرة. هناك وجد سيارتها قد وصلت قبله، نزل من سيارة الأجرة، وحينما دخل إلى مكتب العقارات وجدها جالسة هناك على إحدى الأرائك، فقام صاحب العقار مرحبا وكأنه يعرفه منذ زمن قائلًا:

- أهلا دكتور المدام وصلت قبلك، وقد عاينت الشقة بنفسها، والحمد لله أعجبتها، وقد اتفقت معها على كل التفاصيل، وقد تكرمت فأعطت إيجارا لسته أشهر مقدما، ووقعت العقد باسمها، وكما وعدتك تم إصلاح كل النواقص التي اتفقنا عليها.

لم يجد الدكتور آدم التائه ما يقول فهو لا يعرف ما دار بينهما من حديث، لاسيما وأن صاحب المكتب أطلق عليها لقب المدام. نظر إلى حواء الغريب مستغربا فابتسمت له مشجعة.

بعد أن بارك صاحب المكتب لهما متمنيا إقامة طيبة، سألهما أن

كان لديهما أطفال، فنظر الدكتور آدم إلى حواء الغريب وقال: لا. علق صاحب المكتب بأنهما ما يزالان في عز شبابهما، وعليهما الاستمتاع بالحياة أولاً، ثم أعطى نسخة من العقد للدكتور ونسختين منفصلتين من المفتاح الرئيس للشقة.

خلال حديث صاحب المكتب نهضت حواء الغريب، وما أن استلم الدكتور آدم التائه نسخة من العقد ومفاتيح الشقة حتى قالت له أعطني العقد ونسخة من المفتاح كي أذهب أنا لشراء بعض الأشياء الضرورية للشقة بينما تذهب أنت إلى جامعتك، فناولها نسخة العقد دون أن يقرأ ما فيه، فقد ولدت رغبة في نفسه لحظة استلامه للعقد بأن يقرأ اسمها كاملاً، وكذلك نسخة من المفتاح، مستغرباً من سرعة البداهة وقوة الارتجال لديها، فهي لا تريد أن يعرف اسمها الكامل ولا أية معلومات خاصة عنها، لكن يا ترى أية وثيقة قدمت له بحيث لا ينتبه أنها متزوجة من شخص آخر غيره، ما أن أعطاها نسخة من المفتاح حتى خرجت، بينما ظل هو لدقائق بعدها وهو يتبادل التحية مودعا صاحب المكتب.

وبعدما غادر الدكتور آدم التائه مكتب العقارات توجه إلى مكتبه في الجامعة، وحينما دخل الرواق وجدها واقفة بانتظاره، ففتح الباب ودخلا، وكالمعتاد جلس هو على مقعده خلف الطاولة وهي على كرسيها أمامه. إرتبك الدكتور آدم التائه ولم يعرف كيف يبدأ، أحس بالخجل لأنها دفعت الإيجار لسته أشهر مقدماً. فقال:

- ما كان يجب أن تدفعي الإيجار وتوقعي العقد.
- ألم تنفق بأنني سأساعدك في النفقات
- صحيح ولكن..

- إذن، ما المشكلة، ادفع بعد ذلك. بالمناسبة الشقة جيدة ونظيفة والأثاث لا بأس فيه لكنه يحتاج لعدة القهوة والشاي، سأشتريها أنا، لدي مفتاحي. عموماً، في الأسبوع القادم وفي مثل هذا اليوم سأنتظرك هناك في الساعة العاشرة صباحاً، لديك مفتاح.

وأتمنى أن تأتي بكتاباتك الجديدة. وإذا ما طرأ أي شيء فسأكون
هناك في الأسبوع الذي يليه وفي نفس الوقت، وليكن هذا يوماً
وموعداً ثابتاً من كل أسبوع.. اتفقنا
فقال الدكتور آدم التائه وهو يفتش جيوبه:
- اتفقنا

فجأة بدأ القلق على ملامحه، وأخذ يفتش جيوبه ويقلبها:
- يبدو أن المفتاح قد ضاع، ربما سقط من جيبى في سيارة التاكسي..
بدا القلق على وجهها فقالت:
- ربما نسيته في مكتب العقارات..
- لا أبداً.. لقد سلمني المفتاحين، أعطيتك أحدهما ووضعت الثاني
في جيب سروالي..
صمتت للحظات ثم قالت:

- لا مشكلة، خلال الأيام القادمة سأحاول أن أعمل نسخة من
مفتاحي، لكن إذا لم أستطع إيصاله إليك فسأضعه فوق الباب
أو سأكون في الموعد المحدد الأسبوع القادم هناك..
قالت ذلك ثم قامت خارجة وفي عينيها ألح مجنون. بقي الدكتور آدم
التائه في مكتبه. دخل عليه الفراش أبو هابيل قائلاً له بأن السيد العميد
سأل عنه عدة مرات وأخبره بأنه يريد مقابله في مكتبه حينما يكون
موجوداً، فسأله إن كان موجود حالياً فأخبره بأن لديه اجتماعاً، فشكره
الدكتور ثم قام خارجاً.

حينما دخل الدكتور آدم التائه زقاقهم في تلك الظهيرة من الصيف
وجد الكثير من الرجال والنساء أمام باب دارهم، فتوقع حدثاً جليلاً قد
وقع، وخمن بأن شيئاً ما وقع لوالدته، وصدق ما توقعه، فقد كانت والدته
قد فارقت الحياة، ولم يبق في ذاكرته من ذلك الموقف سوى عويل
زوجته حواء المؤمن ولطمها لوجهها حزناً على رحيل الأم.

ربما يكون من الصعب وصف الحال التي كان فيها الدكتور آدم التائه عندما سمع بفقدان أمه، فقد انهار وأخذ يبكي ويتحب كالطفل لفقدانها، حتى استغرب الكثير من الجيران من الحال التي هو فيها، فقد كانوا يهابونه وينظرون إليه نظرة الرجل القوي والأستاذ الجامعي الذي يتمتع بمكانة خاصة بينهم، ولم يكن استغرابهم هذا سلبيا بل زاد من إعجابهم به فلم يتوقعوا أنه سيكشف عن عواطفه وضعفه أمامهم بهذه الطريقة.

بعد انتهاء مراسيم الدفن والفاتحة غرق الدكتور آدم التائه في حزن عميق. لم تستطع زوجته حواء المؤمن أن تخفف عنه. كان ينام معظم الوقت في غرفة المكتبة على الصوفا. لم يكلم أباه إلا نادرا مكتفيا باللقاء التحية وصارت علاقته معه أكثر جفاءً، وكأنه يحمله وزر موت أمه، وكان أكثر ما يؤلمه أنه لم يتحدث معها في فترة مرضها الأخيرة إلا نادرا، فدائما كانت نائمة حينما يأتي أو حينما يهيم بالخروج.

في الجامعة اضطر لمقابلة العميد الذي أخذ يحدثه بضرورة الانتماء إلى الحزب الحاكم وأن هناك الكثير من الأقاويل والتقارير تكتب عنه وحوله وكلها سلبية المضمون، وحينما لم يبد الدكتور آدم التائه استعداده للانتماء إلى الحزب بدأت نبرة العميد تتغير ويبرز فيها التهديد المبطن بأنه سيء استخدام مكانته كأستاذ والحرم الجامعي كحرم للعلم ليس لإقامة العلاقات العاطفية. انتبه الدكتور آدم التائه بان العميد يلمح إلى زيارات حواء المتكررة له، وأخيرا أنذره العميد بأن ينتبه لنفسه وإلا فإنه سيوقعها في مشاكل.

تذكر الدكتور آدم التائه بأنه لم يذهب إلى الشقة لمقابلة حواء في الأسبوعين السابقين. كانت وفاة أمه ضربة قوية له، بحيث احتاج لبعض الوقت كي ينتبه لما يدور حوله، وتذكر بأن يوم الغد هو اليوم الأسبوعي المتفق عليه للقاء.

حينما عاد الدكتور آدم التائه إلى داره ظهيرة ذلك اليوم لم يجد والده الذي عادة يرش باحة الدار في مثل هذا الوقت، ولم يسمع حركة لحواء

تأتي من المطبخ، فهي عادة ما تعد له الطعام تبقى تنتظره في المطبخ المقابل لمدخل الدار، قرب غرفة المكتبة.

كانت صدمة آدم التائه حينما دخل غرفته فوجد أباه جالسا على السرير بجانب زوجته. ارتبك الدكتور آدم حينما دخل الغرفة وجفل. زوجته ارتبكت أيضا. أما الأب فربما ارتبك للحظة لكنه استرجع وضعه وكأن الأمر لا يحتمل أي شك أو تفسير مريب.

قال الأب إنه كان يحدثها عن مستقبلهما، ولماذا لا ينجبان أطفالا ليزينوا بهم حياتهما الجافة، وإنه يسألها أن كانت هناك مشاكل بينهما أو أن عليهما مراجعة الطبيب. استقبل الدكتور آدم الأمر بغرابة ولم يعلق على كلام أبيه. كانت نظراته تائهة وثمة حقد دفين يتقد في أعماقهما. انسحب الأب من الغرفة دون أن يضيف أية كلمة أخرى عارفا أن الدكتور آدم التائه لم يصدق كلمة مما قاله، لكنهما على أية حال لم يكونا في وضع مريب، لقد كان جالسا بجانبها لا أكثر. صحيح أنه من الغريب أن يدخل غرفة نومهما وأن يجلس على سرير الزوجة وبجانبها، لكنه أبوه، ولا يمكنه أن يشك فيه. ربما هو يشك في زوجته وليس فيه.

أغلق آدم التائه باب الغرفة وبدأ ينزع ملابسه دون أن يعلق على ما شاهده. أحست حواء المؤمن بأنه شك في ما رآه. صحيح أنه لم يسألها عن أي شيء إلا أنه بات تلك الليلة في المكتبة.

في اليوم التالي نهض الدكتور آدم التائه مبكرا. خرج في حدود التاسعة، وبعد أن صار في الشارع العام أوقف سيارة أجرة، واتجه إلى منطقة الحارثية، فهو اليوم المتفق عليه.

صحيح أنه لم يذهب إلى الشقة لموعدين متتاليين لكن هذه المرة سيكون في الموعد المحدد، وسيخبرها بأن عليهما الحذر لأنه كما يبدو، وربما هي، وربما كلاهما مراقب.

حينما دخل البناية التي تقع الشقة فيها كانت الساعة تشير إلى العاشرة بالضبط. أراد أن يصعد إليها بالمصعد فوقف منتظرا للحظات، وفجأة دخل

المبنى رجل عجوز وامرأة ووقفا ينتظران المصعد أيضا. شعر الدكتور آدم التائه بالإحراج قليلا، أراد أن يذهب من خلال السلم لكن المصعد وصل فجأة فأضطر إلى الدخول مع الجارين، وفي المصعد سألاه هل هو جارهما الجديد فأوما برأسه إيجابا وتمتم بصوت خافت بنعم.

عند باب الشقة مد الدكتور آدم التائه يده إلى الإطار الحجري الذي يطوق الباب فلم يجد المفتاح. نظر إلى ساعته التي كانت تشير إلى العاشرة وثلاث دقائق. هذا يعني أنها في الداخل. ضغط على جرس الباب مرات عديدة دونما جدوى. لم يكن هناك من أحد في الشقة. انتظر قرب المصعد لعشر دقائق أخرى عسى أن تأتي، ولم تأت، فنزل سريعا على درجات السلم.

عند باب البناية لاحظ حارس البناية والمسؤول عن خدماتها جالسا على عتبة من الصفيح وهو يشرب الشاي، فقام له محبيا. حينما خرج الدكتور آدم التائه أوقف سيارة أجرة واتجه إلى الجامعة فربما ستأتيه إلى هناك لأنها لم تفهم لماذا لم يأت خلال المرتين الفاتنتين. حين وصل الجامعة ودخل الممر المؤدي إلى مكتبه أصيب بالخيبة لأنه لم يجدها واففة تنتظره. قفل راجعا من حيث أتى، وفي الشارع أخذ سيارة أجرة ذاهبا إلى الشقة ثانية، فعسى أن تكون هناك تنتظره.

حينما دخل المبنى وجد الحارس جالسا في مكانه. فكر مع نفسه في هذا الرجل الذي لم يترك مكانه خلال ساعتين تقريبا. صعد إلى الشقة، وضغط على جرسها لمرات عدة فلم يجيبه أحد.

نزل. مر من أمام الحارس. راودته خاطرة بأن يسأله عنها لكنه تراجع لأن ذلك ربما يثير فضوله ويثير الشكوك. خرج من المبنى، وانتظر قليلا في الشارع إلى أن جاءت سيارة أجرة فأوقفها ودخل راكبا.

لا يدري لماذا إستذكر ما دار بينه وبين العميد من حوار وما غمز به العميد من استخدام الحرم الجامعي مكانا للعلاقات العاطفية. ترى هل تتبعوها وعرفوا من هي ومن تكون ومن هو زوجها؟ شعر بالخوف

وبحالة ترقب لكارثة قد تحصل، لكنه لا يعرف كيف ومن أين.
كانت تلك الفترة هي التي تسبق الامتحانات بأيام لذا كان لديه بعض الوقت للكتابة، ولم تكن لديه الرغبة بالخروج إلا في اليوم المتفق عليه بينهما، لكنه وهو في البيت لم يشأ أن تلتقي زوجته مع أبيه بأي شكل كان إلا لواجبات تقديم الطعام والدواء.

كان يدعوها أن تكون معه في المكتبة عندما يكون هناك أو في غرفة النوم، ولم يكن له أي علاقة أو تواصل مع أبيه. خلال هذه الفترة اقترب أكثر من حواء التي كانت تذكره بأمه. لم ينس بأن أمه كانت تحبها وهي تحب أمه أيضا، وكان حزنها بفقدانها حقيقيا، لذا كان يتعاطف معها، لكنه من ناحية أخرى وخلال تواجدهما أطول الوقت في مكان واحد اقترب منها أكثر وأكتشف عالمها الجسدي بشكل كامل، وهذا ما خفف من رغبته الواهية أصلا في الخروج من البيت والذهاب إلى الجامعة.

كان وضع والده يزداد سوءا، وكانت زوجته حواء المؤمن تطلب منه أحيانا أن يتحدث معه أو يزوره لأنه صار لا يطاق فهو عصبي وحاد المزاج وأحيانا يرفض تعاطي الدواء، إلا أن زوجها كان يرفض طلبها بشدة وييدي غضبه دونما أي تعليق.

وفي يوم اللقاء الموعود في الأسبوع التالي نهض مبكرا وتزين فقد كان لا يحلق لحيته حينما لا يخرج إلى مكان ويبقى في البيت. في الشارع أوقف سيارة أجرة وتوجه إلى الحارثية حيث الشقة المؤجرة التي لم يدخلها غير مرة مع صاحب مكتب العقار.

عندما دخل المنطقة التي تتواجد فيها البناية أحس أن شيئا غير طبيعي يجري. ثمة سيارة إسعاف وسيارات النجدة التابعة للشرطة. طلب من السائق أن يسير بهدوء، وحين صارت السيارة على مقربة من البناية سمع صاحب مكتب العقارات يروي لضابط من الشرطة ورجل مدني معه بارتباك ما شاهده. طلب الدكتور آدم التائه من السائق أن يتوقف

للحظة ليعرف ما يجري. توقفت السيارة على مسافة بحيث يسمع الكلام من صاحب المكتب:

- لقد سجلت العقد باسمها، وكان معها زوجها واعتقد أنه أستاذ في الجامعة، لكنهما لم يسكنا الشقة أبداً، فقد كانت تأتي مرة في الأسبوع وفي وقت محدد وتبقى لساعة أو أكثر وتخرج. هذا ما أخبرني به الحارس. وزوجها أيضاً لم يكن متواجداً في الشقة بل جاء مرة في نفس اليوم الذي كانت تأتي فيه عادة لكنها صدفة لم تأت ذلك اليوم، ومرة ثانية كانت هي موجودة، لكنه صعد ونزل وخرج، ثم عاد بعد حوالي ساعتين وصعد وخرج أيضاً، بينما هي لم تخرج. إلى أن تصاعدت رائحة كريهة جداً في البناية كلها واشتكى بعض الساكنين منها، وعندما أخذ الحارس يتتبع الرائحة وصل إلى الشقة فطرق الباب وحينما لم يجبه أحد طلب مني أن أزوده بالمفتاح الإضافي و...

طلب الدكتور آدم التائه من السائق أن ينطلق وحاول جاهداً أن يحافظ على توازنه كي لا يكتشف السائق اضطرابه. ما أن ابتعدت السيارة عن مكان البناية ودلفت إلى شارع فرعي حتى أوقف الدكتور السيارة ونزل منها بعد أن نقد السائق الأجرة.

مشى الدكتور آدم التائه سريعا متجهاً إلى شارع عام آخر وأوقف سيارة أجرة أخرى وركبها متجهاً إلى البيت.

بقيَ الدكتور آدم التائه لأيام يعيش قصصاً وتخيلات مرعبة. كيف ماتت حواء الغريب؟ هل قُتلت أم كان حادثاً؟ ربما عرف زوجها بالأمر؟ وإذا ما كان الأمر كذلك فربما يعرفون عن علاقته معها؟ لكن صاحب العقار لا يعرف اسمه ولا يعرف في أي كلية يحاضر، كما أن العقد مكتوب باسمها، ولم تتكرر زيارته إلى الشقة ولا أعتقد أن أحداً يمكن أن يستذكره. بعد أيام حاول الذهاب إلى الجامعة. ما أن دخل الرواق الذي يقع فيه مكتبه حتى صادفه الفراش أبو هابيل فقال له بأن هناك أشخاصاً

مدنيين جاءوا يسألون عنه، لكنه لم يكن موجودا، وسألوا عن عنوانه، لكن العنوان الموجود في الإدارة هو العنوان القديم.

لم يواصل الدكتور آدم التائه السير ليذهب إلى مكتبه فقد أبدى للفراش بأنه قد نسي شيئا وعليه أن يرجع ليأخذه. خرج من الكلية مسرعا. عاد إلى البيت مذعورا، لكنه حاول أن لا يبين لزوجته أي شيء. أحس بحاجته الكبيرة لها، لا يعرف لماذا؟

فكر في الهروب بأقصى سرعة، لكن ماذا يفعل بأبيه المريض؟ عليه أن يتخلص منه بطريقة ما. ظل ليالي يفكر في الأمر إلى أن جاءتته فكرة أن يضعه في دار للعجزة، وفعلا بحث عن ملجأ للعجزة، ودفع كل الرسوم لخمس سنوات. قبلت إدارة الدار مبلغ السنة ووضعت المبالغ الأخرى إيداعا عندها، إذ شرح لهم بأنه سيذهب إلى إحدى الدول للتدريس لأن لديه عقد عمل هناك، فوافقوا.

بعد بضعة أيام من دفعه رسوم الملجأ جاء رجال إلى الدار لأخذ أبيه الذي أعترض وأخذ يسبه ويسب ويشتم زوجته ظنا منه أنها هي التي لا تريد خدمته وطلبت من زوجها إيداعه في دار العجزة.

بعد ذلك باع الدكتور آدم الدار بمبلغ أرخص بكثير من سعره الاعتيادي وحول المبالغ إلى الدولار وسافر مع زوجته إلى الأردن ومنها إلى أوروبا وطلبا اللجوء السياسي فيها.

في بداية علاقته وتعرفه على حواء الغريب بدأ الدكتور آدم التائه في كتابة روايته الجديدة التي وضع لها عنوانين الأول هو (المرأة المجهولة) والثاني هو (متاهة آدم)، لكن هذه الرواية أخذت تتطور مع تطور الأحداث، وهو لم ينته منها، ولا يعرف كيف ينهيها. إنها متاهة حقيقية، متاهته هو آدم التائه.

أحس الدكتور آدم التائه أن الأحداث التي جرت في الواقع وما تراكم لديه من تجارب يومية مع اللاجئين وغياب الوسط الثقافي والفكري من محيطه قد أثرت على شخصيته بشكل كبير. صار يتعرف على اللصوص

وعصابات الأجانب ويشاهد الأفلام الإباحية، وابتعد كثيرا عن زوجته حواء المؤمن، بل أحس أن وجودها صار عائقا بالنسبة إليه.

آدم البغدادي: هذا الفصل يمكن بحد ذاته أن يكون رواية، لكنني أعرف بأن الدكتور آدم التائه سيمر بتحويلات كبيرة في الفصول اللاحقة وأنه سيكتب روايته (المرأة المجهولة) أو (مهاة آدم) والتي سيواجهه نفس السؤال الإبداعي الذي واجهه هو آدم البغدادي وهو يرسم شخصية الدكتور آدم التائه: فإلى أي حد يستطيع الدكتور آدم التائه أن يعيد صياغة الواقع والأحداث والشخصيات ويضيف عليها؟ هل سيكتب نصا روائيا مستمدا مادته من بعض ما جرى له مع السيدة حواء الغريبة، المرأة المجهولة، التي لا يعرف اسمها الكامل، ولا أين تسكن، أو من أين هي؟ ومن هو زوجها؟ وأين كانت حينما ضغط جرس الشقة؟ وكيف ماتت؟ لكن إلى أي حد أستطيع أنا آدم البغدادي أن أتحكم في مشاعر وسلوكية الدكتور آدم التائه؟ هل هذه النزعات الجنسية التي تتجسد من خلال شخصية الدكتور آدم التائه هي حقيقية أم أنها نزعات مكتوبة عندي أنا آدم البغدادي الكاتب؟

لكن من هي حواء الغريبة يا ترى؟ هل توجد مثل هذه المرأة في الواقع؟ من أين انبثقت في ذهني؟ أذكر أنني صادفت امرأة متزوجة حينما كنت طالبا. تعرفت عليها صدفة عند صديقي الصانع المندائي رياض. جاءت لتشتري ذهباً وحلياً. عرفت أنها زوجة ضابط عسكري لكنها لم تعطني الكثير من المعلومات عن شخصيتها. أتذكر أنني كنت ألتقي بها في دكان صديقي. ندخل غرفة صغيرة جدا في أقصى الدكان، أمارس الجنس معها. لكنها اختفت فجأة. ترى هل كانت هذه المرأة هي التخطيط الأولي لشخصية حواء التي وضعتها في علاقة مع الدكتور آدم التائه؟ وأنها كانت تسكن في قاع الذاكرة واللاوعي؟ ربما.. وربما لا..

(7)

حمام في السرير

حين خرجت حواء المؤمن من الحمام وقد لبست ثوباً شفافاً، مبتلة الشعر، دخلت المطبخ فوجدت القهوة جاهزة. صبت لنفسها ولزوجها في كويين وحملت أحدهما إليه. وجدته ينظر متأملاً في الورقة البيضاء التي أمامه. وضعت كوب القهوة أمامه. لم ينتبه إليها للحظة لكنه سرعان ما نظر إليها وكأنه فوجيء بوجودها. نظر إليها بتأمل، حيث كان ثوبها الشفاف قد التصق بجسدها المبتل، ولم تكن ترتدي شيئاً تحت الثوب فشعر بدبيب الرغبة يسري في عروقه، لكنه فجأة قال لها:

- اجلسي.. بودي أن أسالك شيئاً
- نظرت إليه باستغراب وتوجست من سؤاله:
- خيراً إن شاء الله
- خير.. لا تقلقي.. أنا أحتاج رأيك في أمر
- تحتاج رأيي.. أنت الدكتور والأستاذ الجامعي تحتاج إلى رأيي..
- نعم.. ولم لا.. اجلسي
- هل سيطول الحديث
- لا ادري.. هذا متعلق بك
- إذن دعني آتي بكوب قهوتي
- طيب.. بسرعة

خرجت حواء المؤمن إلى المطبخ للحظة ثم عادت وهي تحمل كوباً من القهوة الذي جلست وهي تمسكه بيديها. نظر إليها زوجها

بتأمل ورقة وقال لها:

- سوف أروي لك قصة من دون تفاصيل كثيرة. أحتاج رأيك في احتمالاتها، لأنني محتر في نهايتها

- اسمع أولاً

- طيب.. كان هناك رجل ارتبط بامرأة متزوجة. وكان يزورها في شقتها. وذات يوم اتفقت معه على أن يزورها الساعة العاشرة صباحاً لأن زوجها مسافر خارج البلاد. ذهب الرجل إليها في الموعد المحدد. طرق الباب مرات عديدة لكن لم يكن هناك أحد في الشقة. بعد أيام جاءت الشرطة لتعتقله متهمه إياه بقتلها. لقد وجدت مقتولة في شقتها. الطبيب الشرعي حدد ساعة الجريمة في الساعة العاشرة صباحاً.

- كيف تتهمه وهو لم يقتلها

- المشكلة هنا.. جميع الأدلة ضده..

- أية أدلة..

- البواب كان يعرفه فهو صديق الأسرة. وحينما دخل البناية في ذلك الوقت شاءت الصدفة أن يسأله البواب عن الوقت فأجابه أنها الساعة العاشرة. وهو نفس وقت وقوع الجريمة. كما أنه حينما صعد المصعد كان معه هناك جار يسكن في نفس الطابق الذي تسكنه السيدة القتيلة، وشهد بأنه رأى السيد بطلنا وهو يطرق الباب، لكن الجار لم يرَ أكثر لأنه دخل شقته، وأنه كان يعرف بأن السيد بطلنا من أصدقاء العائلة.

استغربت حواء المؤمن من هذه القصة فقالت وهي سعيدة أن تشارك زوجها الدكتور أفكاره وأنه يأخذ رأيها في أمر مهم كهذا:

- ربما زوجها عرف بعلاقتهمما فقتلها

- زوجها العسكري كان مسافراً خارج البلاد.

- ربما ثمة لص دخل الشقة وقام بالجريمة

- لم يُسرق أي شيء من الشقة. علماً هناك أموال ومجوهرات ثمينة.
- ربما لديها أخ أو شخص آخر عرف بعلاقتها بالرجل الجديد فدخل وقتلها بعد صراع بينهما
- لم يجدوا أي علامات عنف على وجهها ولا أي توتر. كانت في أبهى زينتها. وكانت مطعونة بسكين من الخلف. وليس في الشقة أي أثر لأحداث عنف أو شجار.
- حيرتني..
- هي حيرة بالفعل. لأن الدلائل كلها تدين صاحبنا البطل. والمحكمة تؤكد بأنه سيسجن لفترة طويلة جدا بتهمة القتل.
- لكنه بريء
- لكنه أمام القانون مجرم
- أي قانون هذا الذي يحكم على البريء لأنه لا يستطيع إثبات براءته؟ نحن نعرف الحقيقية هو أنه لم يقترف الجريمة
- القانون هو القانون. على الرجل إثبات براءته
- لكن هذا ليس عدلاً.
- وهل القوانين تحقق العدالة كما تعتقدون؟
- هكذا أفهم القانون.
- وفي حالة بطلنا المسكين
- لا أدري. أنت قلت بأنه لم يجد أحدا في الشقة وهو لم يدخل إليها، علماً أن المرأة قُتلت في ذلك الوقت بالضبط.
- هذا صحيح
- ألم يسمع هو صراخا أو عراكا أو حتى صوتا قادما من الشقة؟
- أبدا
- هذه ورطة حقيقية. أنت ماذا تقول؟
- لا أدري.. لماذا أسالك إذن؟
- هل هذا حقيقة أم أنها قصة تكتبها؟

- نعم. إنها قصة أكتبها أو كتبتها، لكني لا أستطيع أن أجد نهاية لها.
- هل يمكنني قراءتها؟
- يمكنك لكن ليس الآن.
- متى؟
- قلت ليس الآن.

كانا يتحدثان ويرتشفان القهوة. شعرت حواء المؤمن بالسعادة وهي تراه يحدثها بجدية واحترام، إلا في اللحظات الأخيرة حينما ألحت عليه في ما يخص قراءة القصة.

أرادت حواء المؤمن أن ترضيه وأن تتقرب منه إذ أحسسته للحظات قريبا منها. قامت واستدارت حول الطاولة ووقفت إلى جانب كرسيه. أحس بحضورها الهائل، وبرغبتها الخفية في أن تكون قريبة منه. انحنى للأسفل قليلا ثم مد يده تحت ثوبها وصعد إلى الأعلى مداعبا ما بين فخذيهما، وجدها رطبة. لكنه ولرغبة عمياء في داخله أراد أن يعذبها فأستمر يداعبها برقة ويثيرها بينما كانت هي واقفة لا تتحرك من مكانها بينما تتصاعد الرغبة في جسدها، وحينما وجد بأنها بدأت تقترب من الذروة سحب يده فجأة. ارتبكت، ولم تعرف ماذا تفعل. أحست بإحباط شديد. لم تعرف لماذا توقف، وما الذي بدر منها كي يتوقف فجأة. ظلت لدقائق واقفة عسى أن يواصل مداعباته، لكن أبدى انشغاله بالورقة التي أمامه.

غضبت حواء المؤمن من نفسها ومن زوجها. خرجت من الغرفة متجهة إلى غرفتها. حينما دخلت الغرفة فوجئت بوجود جسد ممتد في السرير، ولا يظهر منه سوى رأسه الذي هو رأس حمار. أرادت أن تصرخ، لكنها حينما نظرت ثانية لم تجد شيئا.

أصابها الذعر مما رأيته أو خيل لها. فكرت للحظة عن معنى وجود حمار في السرير. خرجت من الغرفة للحظات. سمعت صوت بكاء طفل قادم من الغرفة. دخلت مذعورة إلى الغرفة فلم تجد أي شيء. خافت

فخرجت من الغرفة متجهة إلى الغرفة الأخرى حيث زوجها. نظر إليها
بتساؤل قائلاً:

- خيراً؟

- هل سمعت بكاء طفل؟

- لا

- لكنني سمعته في غرفة النوم

- إنك تتوهمين. ربما ابن الجيران

- ليس لدى الجيران طفل رضيع

- مجرد وهم لا أكثر

- لكنني سمعته

- يحصل أحياناً أن نرى أو نسمع أشياء غريبة

- نعم. لقد رأيت رأس حمار في السرير أيضاً

نظر إليها مستفسراً ثم ابتسم قائلاً:

- حمار في السرير

- نعم.. أفسم بجميع الأئمة والمقدسات..

- وبعد ذلك

- اختفى. أقصد حينما أعدت النظر ثانية لم يكن هناك أي شيء

- غريب أن تري حماراً في السرير

لم يعلق أكثر إذ غرق في صمته وكأنه يحلل ما قالته. ظلت هي

تنتظر للحظات لمواصلة الحديث لكنها استمر في صمته، تائها في

أفكاره. خرجت من الغرفة واتجهت لغرفتها. جلست أمام المرأة تمشط

شعرها، بينما ظل الدكتور يفكر في الدلالات الجنسية لوجود حمار في

السرير زوجته.

ربما لأنها امرأة شهوانية لذلك انعكست رغباتها الدفينة برموز

حيوانية، حيث يتميز الحمار بعضوه الكبير والطويل، وان هذه الرغبات

الدفينة لم تستطع كبتها فتجلت لها بهذه الصورة، لاسيما أنها كانت مشاركة

بشكل كبير لذا فإن عقلها الباطن حاول إشباع رغبتها بتجسيد الحمار في سريرها.

آدم البغدادي: أحس أن ثمة شيئاً ناقصاً في هذا الفصل. ربما من المفيد إنهاء الفصل بطريقة أخرى، أي أن الدكتور آدم التائه بعد هذا التفسير الفرويدي لرؤية حواء المؤمن كان عليه أن يقوم من مكانه ويذهب إليها لاسيما وأنها كانت متهيجة، وهناك يحاول أن يطفى رغبتها المتأججة.

لكن إذا ما دفعت الدكتور آدم التائه ليقوم بممارسة الجنس مع زوجته فربما ستتحول هذه الرواية إلى برنوغرافيا تضحج بالمشاهد الجنسية، لكن حياتنا مبنية على العلاقة الجنسية في الكثير من مفاصلها، وأن الأحلام الجنسية تطوق يوميات حياتنا بشكل لا فكاك منه.

(8)

المرأة المجهولة

استيقظت حواء المؤمن صباحا على شخير زوجها النائم على الأريكة في غرفة الاستقبال. اعتقدت أنه غير مرتاح في النوم لذلك حاولت إيقاظه قائلة له:

– دكتور.. دكتور.. قم إلى سريرك في غرفة النوم
لم يستيقظ الدكتور آدم التائه مباشرة، وحينما هزته ثانية برفق فز من نومه مرعوبا وكأنه مطارذ من قوى مجهولة، وتمتم بخوف:
– ماذا.. ماذا حصل

فقالت له حواء المؤمن بهدوء وهي تنظر إليه بإشفاق:
– لا شيء.. لم يحدث أي شيء..
انتبه لما هو فيه وعرف أنه نام بعد تعب شديد من التفكير. بهدوء استيقظ لكنه نظر إلى الساعة الحائطية فقام بسرعة وهو يقول:
– الساعة الحادية عشرة. لدي موعد لدى دائرة المساعدات الاجتماعية. علي أن أذهب. وربما سأتأخر اليوم إلى المساء لأنني سأذهب مع أصدقائي إلى مدينة (إيسن).
نهض خارجا من الغرفة وذاهبا باتجاه الحمام. تبعته زوجته متجهة إلى المطبخ لتعد لهما الفطور.

بعد قليل خرج من الحمام وهو ينشف وجهه بمنشفة وردية. كانت حواء المؤمن قد صببت الشاي في كوبين وأخرجت علبة المربي مع علبة القشطة من الثلاجة كما كانت قد وضعت الخبز في جهاز التسخين

الكهربائي. كانت تريد أن تضع هذه الأشياء في صينية لتذهب إلى غرفة الاستقبال كي يفطرا إلا أن الدكتور آدم التائه كان كما يبدو مستعجلا فعلا، لذا أخذ الخبز وبدأ الأكل وهو واقف في المطبخ. حينما نظرت إليه زوجته باستغراب نظر هو إليها مستفهما ثم قال:

– لماذا تنظرين إليّ هكذا؟ ألم أقل إنني مستعجل ولدي موعد..
ثم أخذ يشرب الشاي بسرعة بجرعات كبيرة، وما أن انتهى حتى خرج مسرعا من الشقة، بينما ظلت حواء وحيدة. وضعت كوبها وقطعة من الخبز وشيئا من القشطة والمربى في الصينية وحملتها إلى الغرفة الثانية ثم جلست لتأخذ فطورها لكن قبل ذلك ضغطت على زر الريموت كونترول فبدأ بث التلفزيون.

بعد أن أنهت حواء المؤمن فطورها انتبهت إلى الأوراق المبعثرة على طاولة الكتابة. راودها شعور غريب وفضول حارق بالاطلاع على هذه القصة التي يكتبها زوجها. وبما أنه سيغيب اليوم طويلا فبإمكانها قراءة ما مكتوب. فجأة جاءت حيوية غريبة. قامت من مكانها. أغلقت الباب بالمفتاح. اقتربت من الطاولة. جلست على الكرسي. أخذت رزمة الأوراق لتقرأ على الصفحة الأولى عنوان القصة (المرأة المجهولة). وجدت أنه وضع خطوطا عديدة تحت العنوان الثاني (متاهة آدم). قامت للحظة فحملت الصينية إلى المطبخ، ثم عادت بكوب مليء بالشاي وجلست ثانية لقراءة القصة.

**المرأة المجهولة
أو
مناهة آدم**

(1)

كانت الساعة في حدود العاشرة صباحا حينما دخل المهندس آدم المطرود مكتبه فوجد أن سكرتيته حواء اللهيبي، التي كانت في بداية الثلاثين من العمر، ترتب بعض الخرائط والملفات الموجودة على الطاولة، فبادرها مرحا:

- صباح الخير

فالتفتت إليه وقالت وهي تبسم بعدوية:

- صباح النور أستاذ آدم

دخل المهندس آدم المطرود إلى مكتبه الخاص بينما استمرت السكرتيرة حواء اللهيبي بترتيبها للخرائط والملفات. بعد فترة وجيزة توقفت. أخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها ونظرت لنفسها ثم أخرجت قلما للشفاه ومررته على شفيتها ورشت على نفسها عطرا من قنينة أخرجتها أيضا من حقيبتها، وبعد ذلك دخلت إلى المكتب.

حينما دخلت حواء اللهيبي المكتب كان المهندس آدم المطرود مشغولا بوضع أدواته الهندسية على الطاولة التي يرسم عليها الخرائط. تقدمت منه وهي تسعى إلى لفت انتباهه. تنحنحت قليلا وهي تبسم فانتبه لها فقالت:

- نسيت أن أخبرك بأن المحقق الجنائي آدم التكريتي جاء إلى المكتب وسأل عنك، فأخبرته بأنك ستكون هنا في الساعة العاشرة فقال أنه سيطلبك تليفونيا.

نظر المهندس آدم المطرود إلى ساعته وقال:

- لقد مرت عشر دقائق على العاشرة..

ولم يكمل المهندس آدم المطرود جملة حينما رن جرس التليفون في مكتب السكرتيرة فخرجت مسرعة وهي تقول:

- ربما هو

وحينما رفعت سماعة التلفون في مكتبها كان المحقق آدم التكريتي فعلا على الخط، فضغطت على جهاز النداء القريب يصلها بمكتب مديرها وقالت له:

- المحقق آدم التكريتي على الخط أستاذ آدم

- صليني معه

- حاضر

ووصلت بينهما ثم وضعت السماعة. وفي غرفته رفع المهندس سماعته وأخذ يكلم المحقق آدم التكريتي المعروف في المدينة وفي وسائل الإعلام:

- صباح الخير أستاذ آدم. نعم أخبرني السكرتيرة قبل لحظات عن زيارتك للمكتب وأنا أسف جدا لأنني لم أكن موجودا. بماذا أستطيع أن أفيدكم. ماذا؟ تحتاجني سريعا ولمدة نصف ساعة؟ أمر ضروري جدا؟ طيب. سأكون عندك خلال نصف ساعة.

وضع المهندس آدم المطرود السماعة. أخذ يفكر مع نفسه للحظات: ما هو الأمر الضروري الذي يطلبني فيه أشهر محقق في المدينة؟ وخلال هذه الأثناء دخلت حواء اللهيبي المكتب وسألته:

- هل أعد لحضرتك القهوة

فقال لها وهو يعد نفسه للخروج قاتلا:

- لا شكرا. سأذهب حالا إلى مكتب التحقيقات. إنهم يحتاجونني هناك لبعض الوقت في موضوع مهم لا أعرف ما هو.

حين خرج المهندس آدم المطرود شعرت حواء اللهيبي بالخيبة. ليس لأنه خرج فحسب وإنما لأنه خرج دون أن يتبها إليها ولم يعلق أي شيء، فمن عادته أن يعلق على ملابسها وأناقته ويمتدحها إذا ما أعجبتة أو أن

يعلق بكلمات رقيقة عن عطرها. لكنه اليوم خرج مسرعا ولم ينتبه إلى أنها استخدمت عطرا فرنسيا جديدا.

آدم التائه: هل آدم المطرود هو أنا أم شخصية أخرى حقا؟ ومن هي حواء اللهيبي؟ أنا شخصا أستاذ جامعي وليست لدي سكرتيرة، فمن أين جاءت حواء اللهيبي هذه؟ هل هي تكوينات الروح المبدع؟ وهل تُرى يتعامل المحققون بهذه الطريقة لدينا؟ لم لا وبطله مثله ليس سياسيا أبداً؟ السلطة تبطش بالسياسين أكثر من غيرهم. لم أكن أنا سياسيا وبطلني آدم المطرود ليس سياسيا أيضا.

واصلت حواء المؤمن القراءة. عرفت أن زوجها الدكتور آدم التائه علق على هذا الفصل، لكنها لم ترَ ما دونه آدم البغدادي على روايته التي هما أبطالها.

أعجبها أنه زوجها الدكتور آدم التائه استخدم اسمها حواء اللهيبي في قصته لكن لماذا اختارها لتكون سكرتيرة؟ على أية حال أعجبتها القصة وداهمها الفضول لمعرفة ما سيحدث، فواصلت قراءة الفصل الثاني.

انتبه آدم البغدادي لملاحظة الدكتور آدم التائه على هذا الفصل، تَرى هل هذه فعلا ملاحظة الدكتور آدم التائه أم أنها ملاحظته هو آدم البغدادي، وأنه دفع الدكتور آدم التائه لتسجيلها. كان في شك من هذا الأمر، وفكر في تعقيد التجربة الإبداعية.

(2)

حينما دخل المهندس آدم المطرود إلى دائرة التحقيقات الجنائية أوقفه أحد الموظفين وسأله:

– هل أستطيع أن أخدمك؟. هل جئت لرؤية أحد؟.

– نعم.. لدي موعد مع السيد آدم التكريتي

– مكتبه عند نهاية الممر.

– شكرا

مضى المهندس آدم المطرود إلى نهاية الممر فوجد الغرفة شبه مفتوحة، ووجد المحقق آدم التكريتي جالسا يشرب القهوة، وما أن دخل ورآه المحقق حتى قام له مصافحا ومرحبا، وبدوره قدم المهندس آدم نفسه:

– المهندس آدم المطرود

– أهلا أستاذ آدم. أهلا وسهلا. تفضل استرح. هل تشرب شيئا؟.

– شكرا جزيلا..

– ضروري أن تشرب شيئا

– شكرا جزيلا. فقط أردت أن أعرف بماذا يمكنني أن أفيدكم

وبهدوء وبلا أي توتر أجاب المحقق شاهين:

– يمكنك أن تفيدنا جدا. ويمكنك أن تتعبنا جدا. الأمر متوقف

عليك..

– متوقف عليّ. إذا كان الأمر كذلك فيسرني طبعاً أن أساعدكم.

انشغل المحقق بفتح علبة سجائره للحظات وكأن المهندس آدم

المطرود غير موجود، ثم فجأة نظر في عينيه محدقا فيهما بتركيز قائلاً:

- أستاذ آدم.. سأسألك سؤالاً واحداً

- تفضل

- متى شاهدت السيدة حواء آخر مرة؟

أحس المهندس آدم المطرود برعشة تسري في جسده. إذن أنهم يعرفون علاقته بالسيدة حواء الصايغ، وليس من الحكمة أن ينكر لكنه أراد كسب بعض الوقت، فسأل:

- أي حواء؟

ابتسم المحقق آدم التكريتي بخبث وكأنه يقول له لا تلعب معنا فنحن نعرف كل شيء:

- كم حواء توجد؟ إنها حواء واحدة تلك التي تعرفها يا أستاذ آدم، إنها حواء الصايغ زوجة الأستاذ آدم الولهان، ونحن نعرف عن علاقتك معها منذ.. منذ.. منذ أن كنتما في الجنة..

- إذن كنت تقصد السيدة حواء الصايغ

- هكذا بدأت تتعاون معنا..

- منذ أسبوع أو خمسة أيام كما أعتقد، لا أتذكر تماماً..

- يجب أن تتذكر يا سيد آدم

أحس المهندس آدم المطرود بالارتباك وأراد أن يخفي ارتبائه، فأخذ يسترسل من حيث لا ضرورة للاسترسال:

- إنني لا أذكر تماماً. فأنا أراها في أماكن متعددة. أحياناً في نادي

العلوية وأحياناً في نادي الصيد، وأحياناً في مطعم ما، وأحياناً

أزورهم. يعني أراها بمناسبة وبدون مناسبة، وأحياناً صدفة، لكن

ذلك لا يعني شيئاً، ولست ملزماً بأن أدون ذلك في مفكرتي.

نظر المحقق آدم التكريتي إليه بإمعان وكأنه يقرأ أفكاره. تضايق

المهندس آدم المطرود من نظراته وفكر للحظات في نفسه بأن هذه

وقاحة منه لذا بادر ليسأله:

- لكن هل لي أن أعرف لو سمحت سيد آدم، لماذا كل هذه الأسئلة؟

نظر المحقق آدم التكريتي إلى آدم المطرود بهدوء ثم قام عن كرسيه ودار حول طاولته، واقترب من المهندس آدم المطرود دون أن يخفض نظراته عن وجهه، ثم قال ببرود:

– لأنها قد قُتلت؟

هب المهندس آدم المطرود واقفاً دون إرادة منه ويقول:
– قُتلت؟ كيف؟

نظر إليه المحقق آدم التكريتي وكأنه مسك شيئاً خفياً، فيقول له ببرود:
– كان يجب أن تسأل متى؟ هل تعطيني سيجارة من فضلك؟
لم يفهم المهندس آدم المطرود شيئاً من إشارات المحقق آدم التكريتي ولم ينتبه إليها لأنه كان مشغولاً بالخبر في أعماقه. أراد أن يرتب الأشياء في داخله، لذلك وجد أن طلب المحقق سيجارة فرصة للتفكير للحظات، فقال له:

– أنا لا أدخن.

– هل أنت متأكد بأنك لا تدخن؟ سأله المحقق

– طبعاً لا أدخن.

– ظننتك تدخن

فجأة سحب المحقق سيجارة من علبة سجائره، وأخذ ينفث دخانها بهدوء، وكأنه يريد من المهندس آدم المطرود أن يفقد أعصابه، فلعله حينها يفصح عن أشياء تفيده وتؤكد شكوكه. قام المحقق وأخذ بالمشي في الغرفة وراحا ومجيتاً دون أن يعير للمهندس آدم المطرود انتباهها.
أحس آدم المطرود بنفسه وكأنه يختنق وداهمته رغبة في البكاء لموت حواء الصايغ، لكنه لا يريد أن يكشف عن ذلك. عضَّ على شفثيه كي يمنع نفسه عن البكاء. فجأة، انتبه المحقق لحالة المهندس آدم المطرود فسأله مغتتماً حالة النفسية تلك:

– أين كنت أمس الساعة العاشرة صباحاً؟

– كنت في طريقي إلى المكتب

- هل تعتقد بأن هناك من رآك في الطريق أو لديك شهود على ذلك؟.

- شهود على أنني كنتُ في طريقي إلى المكتب؟ من أين أتى بالشهود؟ من الشارع؟ ثم هل أنا متهم يا سيد آدم حتى تسألني كل هذه الأسئلة؟

لم يجبه المحقق آدم التكريتي وإنما اقترب منه وجلس على كرسيه قبالة وقال له بهدوء:

- أستاذ آدم، أنت مهندس ممتاز، ولديك سمعة جيدة في مجال عملك، ومشهود لك بالذكاء لكنك لا تريد أن تساعدنا في التحقيق

- أي تحقيق؟ قال المهندس آدم بضيق وعصية

- لا تريد أن تخبرنا كيف قُتلت السيدة حواء الصايغ؟

- أنا الذي أريد أن أسألكم كيف قُتلت؟

ابتسم المحقق آدم التكريتي وهو ينظر إلى وجه آدم المطرود وقال:
- أنت تسأل كيف قُتلت؟ أنا الذي أسألك كيف قُتلت؟

لم يتحمل آدم المطرود أكثر فقفز من كرسيه غاضبا وقال للمحقق:
- سيد آدم إذا كنت تريد القول بأن لي علاقة بمقتل السيدة حواء

الصايغ فوفر على نفسك هذا الطريق المسدود. يمكنني أن أساعدك في تحقيقك عن الجريمة، لكن قبل كل شيء يجب أن تضع في رأسك شيئا واحدا هو أنني لم اقتل حواء الصايغ وليست لي أية علاقة بهذه الجريمة، بل أنا أريد أن أعرف من قام بهذا الفعل الشنيع.

قال آدم المطرود ذلك بعصية وأراد أن يهجم بالخروج، فنظر المحقق آدم التكريتي إليه بحزم وقال:

- أنت موقوف أيها المهندس آدم المطرود، فأجلس لو سمحت إرسمت علامات الدهشة والغضب على وجه آدم المطرود، لكنه لم

يستطيع أن يقول أي شيء وكأنه صُقع.

آدم التائه: أحسُّ أن ثمة خللاً في طريقة التحقيق فالأمور لم تجر بهذه الطريقة، لأنني بالأساس لم أعتقل ولم يجر معي أي تحقيق، وهذا كله من مخيلتي الروائية، وربما لا تجري الأمور بهذه الطريقة، لاسيما في قضايا التحقيقات الجنائية، ففي بلد مثل العراق لا تجري الأمور دائما حسب القانون وبهذا التهذيب، وربما دونتُ طريقة سير التحقيق مع آدم المطرود تحت تأثير الأفلام الأميركية أو الأوربية، لاسيما أفلام الجريمة والتحقيقات.

شعرت حواء المؤمن بالخوف بعد أن انتهت من قراءة هذا الفصل. سألت نفسها من هي يا ترى حواء الصايغ هذه؟ ولماذا البطل هنا أسمه المهندس آدم المطرود وليس الدكتور آدم التائه؟ وإذا لم يكن هو فلماذا يحمل نفس الاسم؟ ولماذا يكتب زوجها مثل هذه القصص المخيفة وكأنها فيلم بوليسي؟
وبرغم ذلك أعجبتها القصة فواصلت القراءة في الفصل الثالث.

انتبه آدم البغدادي لملاحظة الدكتور آدم التائه عن سير التحقيق مع آدم المطرود في قضية موت حواء الصايغ. وجد أنه ربما انتبه بشكل صحيح لهذه الجانب.

(3)

في صالة واسعة لأحد الفنادق الراقية في إحدى المدن الساحلية التركية المطلة على البحر الأبيض المتوسط. وعند مكتب استعلامات الفندق كان فريق مختلط من سائحين ألمان وأجانب ينتظرون إستلام مفاتيح غرفهم. وعلى المقاعد والأرائك المنتشرة في باحة الفندق الذي يُطلق عليه اسم (اللويي) عدد من النزلاء الذين وكما يبدو من ملامحهم ينتمون لشعوب وبلدان مختلفة. كان موظف الاستعلامات يوزع المفاتيح على السائحين فالتفت إلى المهندس آدم المطرود الذي جاء في مهمة المشاركة في المؤتمر العلمي الهندسي الذي سيعقد في هذه المدينة الساحلية بعد يومين قائلاً:

– السيد آدم المطرود رقم غرفتك 611

أخذ آدم المطرود المفتاح وسحب حقيبته الصغيرة الحجم نسبياً قياساً لحقائب السائحين الآخرين وتوجه إلى المصعد. انتظر هناك نزول المصعد التي جميعها كانت في الأعلى وفي طوابق متفاوتة، وعندما وصل المصعد وفتحت الباب خرج منه عدد كبير من النزلاء. فجأة، ذهل آدم المطرود عندما رأى أمامه امرأة في الأربعين من العمر. لا يمكن القول إنها جميلة أو جميلة جداً بالنسبة له وإنما كانت مذهلة.

كانت المرأة هادئة الملامح، حزينة النظرات، مثيرة الجسد، ليست مثل عارضات الأزياء والممثلات في المجالات الفنية، وإنما كانت امرأة متناسقة الجسد، بل تميل شيئاً إلى الامتلاء، تفيض أنوثة، حنطية البشرة، ذات وجه حزين، بل يفيض حزناً هادئاً.

خرج الجميع من المصعد بيد أنها ظلت واقفة ولم تخرج. تردد آدم المطرود منتظرا خروجها لكنها لم تخرج وإنما بقيت مكانها. ضغطت على زر يشير إلى الطابق السابع فعرف المهندس آدم أنها تريد أن تصعد ثانية. دخل هو وسلم باللغة الإنكليزية فأجابته بابتسامة آسرة بدلا من الكلام. أغلق المصعد بابه وصعد إلى الأعلى.

انتبه آدم المطرود إلى أنه لم يضغط على زر الطابق الذي يشير إلى وجهته، فضغط على الرقم ستة (6). ظل ينظر إليها. انتبهت هي إلى ذلك لكنها لم تبد أي رد فعل، وحينما وصل المصعد إلى الطابق السادس توقف وفتحت بابه، لم يتبته المهندس آدم المطرود إليه. ابتسمت المرأة مع نفسها فانتبه هو إلى أنه قد وصل فخرج بطريقة مكنته أن ينظر إليها بينما كان المصعد يغلق بابه ليواصل الصعود.

في الطابق السادس وجد آدم المطرود نفسه أمام ممر طويل ومتعدد الاتجاهات، فنظر إلى لوحة تشير إلى سلسلة الغرف الموجودة في كل اتجاه فانطلق في الاتجاه الذي تقع غرفته ضمن تسلسله. كانت الممرات مفروشة بالسجاد الأحمر في كل الاتجاهات. فجأة ظهرت إحدى عاملات الخدمة من غرفة في منتصف الممر. ومن الغرفة التي تحمل الرقم خمسة خرج عامل خدمة شاب. اجتازه آدم المطرود، لكنه سمعه يقول بالتركية لزميلته عاملة الخدمة:

– هذا كما يبدو كنز.. أكيد جيوبه مليئة بالمال

– وهل سيوزع ماله علينا يا كمال.. أجابته المنظفة

لم يكونا يدركان بأن آدم المطرود يعرف اللغة التركية لأنه درس الهندسة في جامعة اسطنبول. ابتسم هو مع نفسه ثم توقف، فقد كان أمام باب غرفته. أدخل البطاقة البلاستيكية الذكية وفتح الباب داخلا في الغرفة.

دخل المحقق آدم التكريتي إلى الزنزانة المنفردة في مبنى التحقيقات الجنائية التي تم حجز المهندس آدم المطرود فيها لحين النظر في حيثيات

الجريمة. كان آدم المطرود مستلقيا على اللوح الخشبي الذي فُرشت عليه بطانية كي يبدو وكأنه سرير، غارقا في أفكاره، متسائلا عن كيفية موت حواء الصايغ. لم يكن قلقا جدا على مصيره لأنه كان متأكدا من براءته. جلس آدم المطرود على السرير حينما دخل المحقق. ارتسمت على وجهه ملامح الغضب الخفي والإحساس بالغبن. لم يقل المحقق شيئا، وإنما أخذ يمشي في الزنزانة جيئةً وذهابا. فجأة ألقت إلى آدم المطرود قائلا:

- اسمع سيد آدم، أنت الآن في وضع صعب جدا. ولا أخفيك أن جميع الأدلة والشواهد تشير إليك، وتدينك، لذا أرجو منك أن تكون في غاية الحذر عندما تجيب على الأسئلة. وأنصحك بأن تتعاون معنا لأن كل محاولة لتضليل العدالة ستدفع المحكمة بأن تكون شديدة معك. وربما ستحتاج إلى محام بارع جدا لينقذك من ورطتك هذه.

كان آدم المطرود ينظر إلى المحقق نظرة متألمة ومستخفة بينما ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة هازئة. انتبه المحقق إلى نظراته الساخرة فلم يتحمل ذلك فترك الزنزانة سريعا. عاد المهندس آدم المطرود إلى استلقائه مجددا غارقا في بحار ذكرياته المتلاطمة.

دخل آدم المطرود إلى صالة الطعام الرجبة، وكان قد ارتدى ثيابا جديدة. كانت الصالة مليئة بالزائرين. من بعيد لمح آدم المطرود صديقه المهندس آدم الصاحب، وهو من الأعضاء المشاركين في المؤتمر العلمي فاتجه نحوه. تبادلا التحية وجلس إلى طاولته الصغيرة المخصصة لأربعة أشخاص. أخذ قائمة الطعام ليقراً ما فيها. حينما جاء عامل المطعم ليسجل طلبيهما تحدث معه صديقه بالتركية، فقد درسا الهندسة معاً في جامعة اسطنبول.

بدأت الفرقة الموسيقية تأخذ موضعها بالقرب من ساحة الرقص استعداداً لتقديم برنامج السهرة، وفي ذلك الوقت جاء المضيف بالطعام

إلى المائدة وبدأ بترتيبها. حينما أراد آدم المطرود أن يبدأ بالطعام توقف فجأة وعلى وجهه إمارات الدهشة.

كانت المرأة الجميلة الحزينة التي رآها في المصعد قد دخلت إلى صالة الطعام ومعها رجل في منتصف عقده السادس. كانت المرأة قد ارتدت ملابس السهرة فبدت وكأنها إحدى نساء القرن التاسع عشر. اجتازت المرأة الجميلة والرجل الذي معها الصالة بحثا عن طاولة فارغة، ومن حسن حظ آدم المطرود لم يكن هناك من طاولة إلا واحدة قربهما فاتجها نحوها.

لم يحول آدم المطرود عينيه عنها قط فانتبه صديقه آدم الصاحب الذي يجلس بجانبه إليه، واتجه هو أيضا بعينه نحوها وارتسمت على وجهه علامات الإعجاب الشديد والرغبة الفاضحة وقال:
- إنها رائعة حقا.. امرأة حقيقية...

لم يجب آدم المطرود على ملاحظة صديقه إذ ظل يواصل نظرات الدهشة والإعجاب والذهول إلى المرأة ومرافقها اللذين جلسا على المائدة وبدأ كل منهما يتفحص قائمة الطعام. فجأة وكأنما هناك إشارة خفية وصلتها التفتت المرأة إلى الطاولة التي يجلس حولها آدم المطرود فالتقت نظراتهما، فارتبكا كلاهما. لقد عرفته.

جاء موظف الخدمة في المطعم ليسجل طلبات الطعام فانشغلت المرأة معه، حاولت أن تتفاهم معه بالانكليزية، فجأة التفتت إلى الرجل الذي معها وسألته بالعربية وباللهجة العراقية:

- أنت اختاريت شي؟

- بلي، اختاريت رقم اثنين واربعين

لم يخف آدم المطرود سعادته فهمس لصديقه:

- إنهما عراقيان

وأحس بشهية كبيرة فأخذ يضع الخضار والسَّلَطَة في صحنه. فجأة حدثت ضجة في أقصى القاعة إذ سقطت الصينية من يد العامل الذي

يحمل الطعام فالتفت الجميع نحو جهة الصوت.
دخل رجل يحمل صينية الطعام إلى الزنزانة. كان المهندس آدم المطرود لا يزال مستلقيا على اللوح الخشبي مسترجعا ذكرياته. وضع الرجل الصينية أمامه ودون أن يقول شيئا خرج من الزنزانة. قبل أن يغلق الباب سأله آدم المطرود:

– قل لي رجاءً. هل من جديد؟ هل اكتشفوا شيئا يدلهم على القاتل؟
لم يشأ الرجل أن يجيب في البداية لكنه نظر إلى المهندس آدم المطرود وقال:

– لقد اكتشفوا بعض الآثار التي ربما ستؤكد لهم هوية القاتل.
لم يأخذ آدم الأمر بغير أنه سيؤكد براءته، فقال بفرح خفي:
– الحمد لله

بحلق الرجل في وجه المهندس آدم المطرود مستغربا، فانتبه إليه وسأله:
– لماذا تنظر إلي هكذا..
فارتبك الرجل وتمتم على عجل:

– لا شيء.. لا شيء..

لم يفهم آدم المطرود شيئا من إجابته، وبينما كان الرجل يغلق الباب من الخارج بالمفتاح أخذ آدم المطرود التفاحة من الصينية ولم يمس بقية الطعام.

لم يكن آدم المطرود يائسا لأنه كان واثقا من براءته، وأنه كان متأكدا من أن الجهات المختصة بالتحقيق ستكتشف القاتل وتعلن براءته قريبا جدا، لكن ما كان يؤلمه هو موت حواء الصايغ، لذا ما أن قضم التفاحة حتى غرق ثانية في بحر الذكريات.

بدأت الفرقة الموسيقية برنامجها بقطعة موسيقية راقصة. بدأ بعض رواد المطعم من الأجانب التوجه إلى ساحة الرقص، كما توجه بعض الرجال إلى بعض السيدات الجالسات إلى طاولات أخرى لدعوتهن

إلى الرقص.

قام المهندس آدم صاحب متجها نحو امرأة تجالس رجلا كهلا يبدو أنه أبوها داعيا إياها لمراقصته فاستأذنت الرجل الذي معها وقامت لتراقصه.

نظر آدم المطرود إلى السيدة الجميلة في اللحظة التي نظرت هي فيها إليه أيضا فالتقت نظراتهما مرة أخرى. أحس كل منهما بالحرج من الآخر لكنه أكد في الوقت نفسه اهتمام كل منهما بالآخر أيضا. حدث نفسه بالقيام لدعوتها إلى الرقص لكنه كان متردداً، وفي اللحظة التي حسم أمره وقرر أن يدعوها قام جليسا ليدهوها إلى الرقص، فلعن نفسه لتردده وتأخره في دعوتها للرقص.

بينما كانت تراقص الرجل الذي معها نظرت إلى المهندس آدم المطرود مستفسرة ومعاتبه ومعتذرة في الوقت نفسه وكأنها تود أن تقول له لماذا لم يدعوها إلى الرقص.

ظل في مكانه يتابعها بعينه، وكانت هي بين لحظة وأخرى تنظر إليه كلما استدارت وصارت في مواجهته. حين عاد صديقه آدم صاحب إلى المائدة بعد أن أوصل مراقصته إلى مائدتها ورأى آدم المطرود وحده سأله مستغرباً:

– لماذا تجلس وحيداً؟.. لماذا لم تبادر لدعوتها للرقص؟..

فأجابته مداريا خبيته:

– أنا أحب مشاهدة الآخرين وهم يرقصون، أحس بالمتعة أكثر مما لو كنت أرقص.

عادت السيدة الجميلة الغامضة ومرافقها إلى طاولتهما، ولم تمض إلا لحظات حتى بدأت موسيقى بطيئة وناعمة. أراد جليسا مراقصتها ثانية لكن يبدو أنها اعتذرت. أخذا يتحدثان، ثم قام جليسا خارجا من القاعة، متجهاً إلى الحمام.

كان آدم المطرود ينظر إليها بحب وشغف، فقال له صديقه:

- اسمع.. السيدة تنتظر لك لدعوتها للرقص.. انهض قبل أن يأتي مرافقها أو زوجها.

- هل تمزح.. إنها تنتظره ولن تقوم معي.. إنها عراقية وليست أوروبية حتى تقوم معي.

- أقول إنها تريد أن تدعوها.. لا تضع الفرصة يا رجل..
- إنني مرتبك.. أخشى أن تعتذر.. ولا أريد أن أجد نفسي في مثل هذا الموقف..

- اسمع.. إذا لم تذهب أنت لدعوتها فسأذهب أنا... من المؤسف أن تُعزف مثل هذه الموسيقى وأمامك هذه السيدة الرائعة ولا تدعوها للرقص..

- حاول أنت، وأنا متأكد من أنها سترفض.. جرب
كانت السيدة الجميلة الغامضة قد انتهت بأنهما يتحدثان عنها، لاسيما وأنها أدركت من خلال ما تناهى إلى سمعها بأنهما من العراق، لكنها لم تسمع كل ما قيل.

ارتسمت خيبة الأمل على وجهها حينما رأت الصديق مقبلاً نحوها وليس هو. تقدم المهندس آدم صاحب منها قائلاً بأدب وباللغة الانكليزية:

- هل تسمحين سيدتي
نظرت السيدة إلى آدم المطرود نظرة عتاب للحظات ثم قامت لتراقص صديقه وكأنها تعاقبه على ذلك، فما كان منه إلا أن ينهض ويغادر القاعة نقمة وغضباً من نفسه وغضباً منها.

خرج آدم المطرود من المصعد مجتازاً الممر الطويل المفروش بالسجاد الأحمر. أخرج البطاقة البلاستيكية من جيبه وأخذ ينظر لأرقام الغرف إلى أن وجد غرفته.

جلس آدم المطرود على سريره تعباً. كان حانقاً من نفسه. استلقى وهو بملابس السهرة. نظر إلى سقف الغرفة، ثم إلى المنضدة التي كانت

إلى جانب السرير من جهة الرأس فرأى جهاز الريموت كونترول فمد يده وأخذه. ضغط على أحد أزراره فبدأ التلفزيون يث أغنية روسية. انتقل إلى محطة أخرى فكانت تبث أغنية تركية، ثم انتقل إلى قناة ثالثة فكانت تبث برنامجا بالتركية أيضا. أخذ ينتقل بين القنوات فكانت معظمها بالتركية، ومع أنه يجيد التركية فإنه لم يرغب بمتابعة التلفزيون. ضغط على الزر الأحمر فانقطع البث. بقي للحظات مستلقيا. فجأة جلس. ظل في جلسته وعلامات التفكير مرتسمة على وجهه.

لم يفهم هو نفسه ما الذي يجري بداخله منذ لحظة رؤيته لهذه السيدة الجميلة الغامضة. لم يفهم لماذا غادر صالة الطعام؟ لماذا غضب كل هذا الغضب حينما قامت السيدة الجميلة لمراقبة صديقه آدم صاحب؟ كان عليه هو أن يدعوها للرقص فلماذا لم يفعل ذلك؟ ثم لم كل هذا الانفعال؟ هل وقع في حب هذه السيدة؟ من هي يا ترى؟ ومن هو هذا الرجل الذي معها؟ لقد تحدثا بالعربي وباللهجة العراقية، لكنها لا تشبه العراقيات كثيرا. ثم ما الذي يريده هو منها؟ هل يحبها؟ هل يرغب فيها ويريد أن يضاجعها؟ لا.. لم يطرأ في ذهنه ونفسه شيء من الرغبات الجنسية، انه موله فيها، مسحور برقها وأنوثتها وشخصيتها، وحزنها الشفاف، وبرغم ذلك لم يتوصل إلى السبب الواضح الذي يشده إلى هذه السيدة.

فجأة بدا على وجهه وكأنه إتخذ قرارا. نهض بنشاط ونظر نظرة خاطفة وسريعة إلى أرجاء الغرفة.. وغادرها بعد أن ضغط على زر النور فغرقت الغرفة في الظلام.

عندما دخل آدم المطرود إلى صالة الطعام والمقصف ثانية رأى أن روادها أقل مما كانوا حينما غادرها. توجه بنظره إلى الطاولة التي كان يجلس إليها فلم يجد صديقه المهندس آدم صاحب. نظر إلى الطاولة التي كانت السيدة تجلس إليها فلم يجدها وإنما رأى مرافقها فقط يجلس وحيدا. توجه آدم المطرود إلى طاولته وجلس إليها. فتش بنظره في أرجاء الصالة، ثم إلى ساحة الرقص فلم يجد أثرا للسيدة، لكنه لمح صديقه

مشغلا بحديث جاد مع امرأة شقراء يبدو أنها روسية.
التفت ثانية لطاولة السيدة فرأى مرافقها وهو يهيم بمغادرة الصالة،
ويبدو أنه كان ينتظر شيئاً لذلك تقدم منه موظف الخدمة في المطعم
حاملا علبة من السجائر، وما أن استلمها ووقع على قائمة الطعام حتى
قام مغادرا الصالة.
جاء موظف الخدمة إلى طاولة المهندس آدم المطرود على أثر إشارة
منه، وحينما وصل إليه قال له:

– فودكا

ابتسم موظف الخدمة وغادر الطاولة بينما أحس هو بخيبة كبيرة
وحزن يجتاح روحه.

حينما أنهت حواء المؤمن قراءة هذا الفصل لم تجد أية ملاحظة
من زوجها عليه، لكنها أحست بالحيرة، فهذا المهندس الذي اسمه آدم
المطرود ليس زوجها الدكتور آدم التائه، كما أن هذا المهندس يعرف
التركية وزوجها لا يعرف التركية، ثم أنها تعرف أنه لم يسافر في حياته
فكيف يكتب الآن وكأنه كان في تركيا.

أحست بالشفقة والتعاطف مع المهندس آدم المطرود المتهم بجريمة
قتل حواء الصايغ.. ولكن من هي حواء الصايغ هذه؟ هل هي نفس المرأة
الجميلة التي التقى بها في تركيا؟ ربما هي حواء الصايغ. هذا سيتضح في
الصفحات القادمة. لتواصل القراءة وتنتهي قبل أن يصل زوجها الدكتور
آدم التائه.

ترك آدم البغدادي حواء المؤمن تبدي مع نفسها ملاحظاتها، وهي
ملاحظات قارئة عادية تتفاعل ببساطة مع الأحداث والشخصيات دونما
أي تأويل.

(4)

سحب المهندس آدم المطرود ستائر نافذة غرفته فامتلات بنور الصباح الذي تدفق بكرم من النافذة وكشف عن منظر رائع للبحر الذي يمتد على امتداد البصر.

تأمل البحر، ساحل البحر الرملي، طيور البحر المحلقة في السماء. كانت في أفق البحر ثمة سفينة تبدو وكأنها واقفة.

مط آدم المطرود جسده ليترد ما تبقى فيه من نعاس وكسل ورغبة في العودة إلى السرير. فتح ذراعيه مؤدياً بعض التمارين الرياضية. توجه إلى غرفة الحمام وأطبق الباب خلفه، وبعد فترة وجيزة خرج من الحمام ثم بدأ يرتدي ملابسه على عجل كي يسرع إلى قاعة الطعام عسى أن يرى سيده هناك.

دخل إلى صالة الطعام عجلًا. يبدو أنه تأخر قليلاً عن موعد الفطور، لأنه وقبل أن يجتاز الصالة مفتشا عنها واجهته السيدة مع مرافقها وهما يغادران الصالة.

ارتسمت علامات الخيبة على وجهه، إلا أن السيدة التي لاحظت خيبته ابتسمت له ابتسامة خفية لم ينتبه لها أحد غيره. بعد لحظات انتبه إلى صديقه المهندس آدم الصاحب الذي كان يلوح له من أحد أطراف القاعة. تقدم منه ملقياً تحية الصباح، فبادره:

– ماذا.. هل سهرت ليلة أمس طويلاً.

– لا، إنما لم أوقت المنبه فأخذني النوم.

– على أية حال، الفطور على المائدة. قبل قليل أعلنوا عن برنامج سياحي لطيف من قبل إدارة الفندق لجميع النزلاء وليس

المؤتمرين فقط. ستكون تحت تصرفنا سيارتان سياحيتان لزيارة إحدى القلاع الشهيرة القريبة. أنا أنهيت فطوري. سأنتظر في اللوبي..

قال المهندس آدم صاحب ذلك وغادر القاعة أما آدم المطرود فتوجه إلى موضع الفواكه والأغذية التي بدأ عمال المطعم يجمعونها شيئاً فشيئاً. ملأ لنفسه قدحا من عصير البرتقال، ووضع في صحن صغير بعض القطع من الجبن والزيتون وقطعة من الخبز الأسمر، وكان حينها يفكر إن كانت السيدة ستذهب معهم في الرحلة أم لا.

في الساحة العريضة لوقوف السيارات السياحية بالقرب من الفندق كانت هناك سيارتان سياحيتان إحدهما قد امتلأت بالركاب ومستعدة للحركة، أما السيارة الأخرى فلاتزال أبوابها مفتوحة تستقبل بقية الراغبين بزيارة القلعة.

حين وصل المهندس آدم المطرود إلى الساحة ونظر للسيارة الأولى رأى وجه السيدة الجميلة من جانب أحد النوافذ، وفي اللحظة التي نظرت هي إلى جهته بدأت السيارة بالتحرك. لم يجد أمامه سوى أن يتجه إلى السيارة الثانية التي كما يبدو ستتأخر عن الأولى التي توجهت إلى طريق القلعة. شعر بالغيظ حينما صعد وكانت السيارة الثانية شبه فارغة.

بعد نصف ساعة تحركت السيارة الثانية، وحينما وصلوا إلى مكان القلعة التي بُنيت على مرتفع بدأوا بالصعود إليها. ما أن وصلوا إلى هناك حتى التقوا بركاب السيارة الأولى وهم ينزلون. لم تكن السيدة ومرافقها بينهم، فمضى النفس بلقائهما في القلعة. هناك فتش عنها ولم يجدها.

عند فترة الغذاء دخل القاعة وعلى وجهه ترسم علامات اللهفة. كانت صالة الطعام مزدحمة برواد الفندق. وجد طاولة فارغة فجلس إليها. كان صديقه قد جلس إلى طاولة صديقه الشقراء. فتش بنظره في أرجاء القاعة عن السيدة ومرافقها فلم يجدهما. تناول طعامه بدون شهية ثم قام وأتى بصحن وضع فيه فواكه، لا لأنه يريد ذلك وإنما ليجد حجة

لبقائه في المطعم، ثم طلب شايًا.

مر الوقت ولم تظهر السيدة. صار البقاء في المطعم محرّجا بالنسبة له إذ لم يترك أية فقرة في القائمة لم يطلبها لذا قرر مغادرة المطعم فقام خارجا. عندما صار خارجا أحس بالصدمة إذ أنها جاءت مع مرافقها وكانت قد غيرت ملابسها وتزينت.

أحس آدم المطرود بالحنق من نفسه ومن تصرفاته التي لا يحصد منها سوى الخيبة، وأخذ يلوم نفسه. لماذا لم ينتظر لدقائق أخرى؟ الآن صارت عودته إلى المطعم محرّجة. أحس بالغضب تجاهها أيضا فلماذا لم تأت قبل فترة؟ ما واسباه في تلك اللحظات أنه لاحظ ظلالة من الخيبة ارتسمت على وجهها أيضا وكأنها استاءت من خروجه.

جلس في بهو الفندق مؤملا النفس أن تأتي السيدة إلى البهو بعد وجبة الغداء، وبينما هو جالس جاء صديقه المهندس آدم صاحب فرحا ومشرقا وقال بحيوية:

– الساعة الخامسة ستكون هناك رحلة بحرية عامة أيضا. هل ستأتي؟

ستكون رحلة ممتعة. سأذهب مع ايها صديقتي الروسية

– سأذهب بلا شك

لا يدري لماذا لم يود مواصلة الحديث مع صديقه، فقال له بأنه يود أن يأخذ القيلولة لنصف ساعة على الأقل، ثم قام متوجها إلى غرفته. لم ينتبه المهندس آدم صاحب إلى حالته، ولم ينتبه بأنه لا يود مواصلة الحديث معه، لأنه هو أيضا كان يريد أن يسرع إلى ايها الروسية.

عند العصر وفي الساعة الخامسة تقريبا وبالقرب من الشاطئ الرملي الذي يمتد بين الفندق والبحر كان المركب السياحي منتظرا السائحين من رواد الفندق. كان رواد الفندق يتوافدون على المركب ويأخذون أماكنهم المرصوفة على سطحه. بعضهم كان لا يجلس وإنما يظل واقفاً مطلقا على البحر متكئا على سياج المركب.

جاء المهندس آدم صاحب محتضنا صديقتة ايفا وطلب منه الصعود

معهم فلم يكن أمامه سوى أن يصعد إلى سطح المركب. فجأة لمح السيدة الجميلة ومرافقها وهما قادمان ليصعدا المركب فغمرته فرحة عارمة.

فكر المهندس آدم المطرود أنها فرصة ذهبية للتعرف إليهما، لكن عليه أن يتعرف على مرافقها أولاً، لاسيما وهما عراقيان مثله. لا يدري إن كان مرافقها هو زوجها أو صديقها أو مديرها. لمحهما على جانب من سطح المركب. لكن ها هو مرافقها يتركها وحدها ويتجه إلى إحدى الجهات حيث كان واضحاً بأن هناك بوفيه لبيع الحلوى والقهوة والشاي والفطائر. انتبه المهندس آدم الصاحب للأمر فقال له هامساً:

– تحرك.. إنها وحدها. هذه فرصة لن تتكرر. الأمر لا يثير أي شك أو انتباه

فكر آدم المطرود لحظة. هم بالتوجه إليها لكنه فجأة توجه نحو مرافقها الذي أخذ مكانه في طابور الذين يودون شراء شيئاً من البوفيه فوقف خلفه مباشرة. حينما جاء دور مرافق السيدة فإنه تحدث بلغة انكليزية سليمة طالباً كوبيين من القهوة. لم يفهم الشاب التركي ماذا يريد بالضبط فاستغل آدم المطرود هذا الموقف فتدخل شارحاً له بالتركية ما يريده. ابتسم التركي وقدم له كوبيين من القهوة، فابتسم مرافق السيدة له وشكره بالانكليزية معاتباً بأن معظم العاملين في قطاع السياحة في تركيا لا يتكلمون الانكليزية بشكل جيد. فجأة لمعت فكرة ذهبية في ذهن المهندس آدم المطرود فسأله بالانكليزية:

– من أين حضرتكم

– من العراق

صرخ المهندس آدم المطرود مبهتجاً وكأن الأمر مصادفة وقال بالعربية وباللهجة العراقية:

– وأنا من العراق، من أي مدينة حضرتك

– من بغداد

- يا للمصادفة، أنا أيضا من بغداد
ومد يده مصافحا ومقدما نفسه إليه:
- أنا المهندس آدم المطرود
- وأنا رجل الأعمال آدم الولهان
- تشرفنا
- لي الشرف

أخذ آدم المطرود كأسا من عصير البرتقال دافعا للتركي ثمن القهوة
والعصير، غير أن آدم الولهان لم يقبل ذلك فأصر آدم المطرود بأن ذلك
عربون الصداقة، وانسحبا من الطابور، فما كان من آدم الولهان إلا أن
يقترح عليه بأن ينظم إليهما، وقاده إلى حيث تقف المرأة الغامضة، التي
فوجئت بقدمهما معا، وما أن وصلا إليهما حتى قدمه لها قائلا بمرح:
- اسمحي لي أن أقدم المهندس آدم المطرود..

- أهلا وسهلا
- زوجتي حواء الصايغ
- تشرفنا

وتصافحا. لم يصدق آدم المطرود أنه قربها ويكلمها بل ويصافحها.
أحس بالحر. فأراد زوجها أن يخلق جوا أليفا فقال:
- المهندس آدم المطرود يتحدث التركية، وكذلك الانكليزية طبعاً..
ارتسمت ملامح الدهشة المحببة على وجهها وكأنها تبحث عن تفسير
لذلك، فانتبه آدم المطرود لذلك فقال موضحا:

- القصة وما فيها أنني درست الهندسة في اسطنبول، وأعمل في
بغداد طبعاً، علما أنني عملت صحافيا لسنوات عديدة..
- يعني أنت كاتب صحفي
- كنت.. صحافياً.. و مترجماً أحيانا
- والآن..

- تركت الصحافة والترجمة منذ سنوات، لكني لم أترك الكتابة..

– كيف ذلك.. ماذا تقصد

كان آدم الولهان ينظر بسعادة إلى هذا الحوار بين زوجته والمهندس آدم المطرود، فكثيرا ما كان لا يجد ما يتحدث فيه معها كي يثير اهتمامها، وها هي تثار وتسري الحيوية في نفسها، كما أن حضور هذا المهندس في هذه الرحلة سيكسر روتين الحوار بينهما. استمر آدم المطرود يشرح لها:

– أقصد إنني على الرغم من أن مهنتي الهندسة المدنية إلا أنني كاتب. ولست صحافيا

– كاتب. تقصد أديب. تؤلف الكتب

قالت ذلك بانبهار وفرح. فأجاب منتشيا بالسعادة:

– نعم. لقد نشرت رواية واحدة، وحاليا أخطط لكتابة رواية أخرى

– لديك رواية منشورة؟ ما أسمها؟

– أوه.. رواية يتيمة بعنوان (البرزخ) أو (الأقنعة الزجاجية)

– مع أنني أعتبر نفسي قارئة جيدة ومتابعة للنشاط الأدبي والثقافي

بشكل عام لكنني مع الأسف لم أطلع عليها

فقال بمرارة:

– لقد نُشرت على نطاق ضيق. ظلت في الرقابة لأكثر من عام، ولما

نُشرت عنها بضع المقالات والأخبار في الصحافة الثقافية اللبنانية

والمصرية تم الإفراج عنها.

– ماذا؟.. ظلت في الرقابة لأكثر من عام؟.. ما هو السبب؟

كان زوجها آدم الولهان مستمتعا بالنقاش بينهما بل لقد أيقظا في

نفسه الفضول لمعرفة سبب عدم السماح للرواية بالوصول إلى القارئ

العراقي، لذا دعاهما للانتقال إلى طاولة قريبة، فاتجهوا إليها وجلسوا

حولها، فقال المهندس آدم المطرود:

– لا أدري ماذا أقول. لقد تم منعها بحجة أنها إباحية أو أنها تثير

موضوعا حساسا يخل بالآداب والتقاليد.

انتظرت السيدة حواء الصايغ أن يوضح أكثر. لقد أحسست بانجذاب

شديد نحوه. انتهت لإحساسها هذا منذ أول لقاء بينهما في المصعد.
الآن تجد أن لهما اهتمامات مشتركة، لذا توجهت إليه بكل حواسها،
وقالت له:

- أفصح أكثر. لا تخف لسنا من أهل القمة كما يقال. تستطيع أن
تتحدث معنا بحرية. زوجي آدم رجل أعمال متفتح، وقد زار
بلدان عديدة وتعرف على شعوب كثيرة، ولديه أفكار متحررة،
فيمكنك أن تأخذ راحتك معنا..

أحس المهندس آدم المطرود وكأن حملا ثقيلا انزاح عن كاهله،
فقال بهدوء:

- روايتي تتحدث عن ازدواجية المثقف الشرقي، فهو متحرر مع
الآخرين لكنه رجعي ومتردد مع نفسه أو مع أهله. تراه يدعو
لحرية المرأة لكنه يحجب هذه الحرية وينظر إليها بريبة وشك
حينما يجب منحها لأخته أو زوجته أو ابنته.
ساد الصمتُ عليهم للحظات وكأنه مسَّ شيئا خطيرا أو اقتربَ من
منطقة محرمة، وحينما استمر الصمت أكثر، سألته:

- عن أي شيء تتحدث الرواية؟

- كنت أتحدث عن إحدى الإشكالات الاجتماعية، عن البكارة
عند المرأة، أقصد غشاء البكارة ومفهوم الشرف، والمسافة بين
القول والفعل.

- مع الأسف لم أقرأ هذه الرواية، فكما يبدو أن موضوعها حساس
جدا، لكن لماذا تحمل عنوانين. أذكر أنك ذكرت البرزخ أو
الأقنعة الزجاجية

سأل آدم الولهان وكأنه يريد المشاركة أيضا في النقاش، ليؤكد لهما
أنه أيضا موجود وأنه مثقف ولديه اهتمام بالأدب أيضا وليس بالمال فقط:

- ولماذا جعلت الأقنعة زجاجية؟

- لأنها حينما تسقط أو تنكسر فأنها ستجرح

ابتسمت السيدة حواء الصايغ من طريقة إجابته التي لم يستطع زوجها التعليق عليها، لكنه قال بمرح مصطنع، لكنه مكشوف:

- هذا كلام صحيح..

فقالت السيدة حواء الصايغ وكأنها تريد أن تعرفه أكثر:

- سيد آدم. من هو كاتبك المفضل؟

- أوه... لديّ عدد من الكتاب المفضلين.

- مثلا.

- كافكا، ميلان كونديرا، يشار كمال، هنري ميلر، موباسان، أميل

زولا، نجيب محفوظ، عبد الرحمن منيف، محمد ديب، الطاهر

وطار..

- هذه سلسلة من الكتاب، ولو سألتك من هو الأقرب بين هؤلاء؟

- صدقيني لا أدري.. كلهم قريون

سادت الصمت للحظات. لقد توغلت إلى مساحات كبيرة في نفسه

لذا أراد أن يقوم بالخطوة المماثلة، فسألها:

- وأنت.. أي الكتاب مقرب إليك أو المفضل لديك؟

- أنا أختلف عنك. أنا قارئة بينما أنت كاتب.

- ومع ذلك من هو كاتبك المفضل أيتها القارئة؟

ابتسمت بعدوبة فسحرتة ابتسامتها وشعر بنشوة روحية كبيرة. نظرت

إليه وقالت:

- كقارئة لدي ربما عدد من الكتاب ربما أكثر منك. لكني أحيانا لا

أفضل مؤلفات الكاتب الكاملة. فأحيانا أحب عملا واحدا للكاتب

أو عمليين وليس جميع أعماله، وأحيانا أحب فصلا في رواية أو

قصيدة محددة في مجموعة شعرية، بل وبيتا معنا في قصيدة.

- مثلا..

- مثلا أحب رواية أنا كارنينا لليف تولستوي، ورواية مدام بوفاري

لفلوبير. ومن العرب أحب معظم روايات حنا مينه، الطاهر وطار،

وهاني الراهب

- وأنت سيد آدم. أي الكتاب تفضل
- أنا.. أنا.. أنا أفضل الشاعر نزار قباني. لكني أحب الفن التشكيلي
أكثر. أحب أن ازور المتاحف حينما أكون في أي بلد أجنبي..
- رائع جدا...

- لكن قل لي سيد آدم.. هل لديك اهتمام بالفن التشكيلي؟..

- لحد ما.. لكن ليس كمتخصص، وأنت؟

- أنا لسْتُ متخصصا في الفن التشكيلي لكن يمكن أن تقول أنذوقه.
أحب اللوحات الغربية ذات الموضوعات الشرقية. أحب الفنان
الفرنسي ديلاكروا وأحب أعمال روبنس.

- أنا أحب رينوار.

فجأة انتبه المهندس آدم المطرود إلى نفسه، وكأنما ستارة سوداء
انزاحت عن مشهد في لاوعيه. لقد اكتشف سر تعلقه بالسيدة حواء
المجهول من أول نظرة له. إنها تشبه (لورا انتونيللي)، الممثلة السينمائية
الايطالية التي شاهدها في فيلم (الغريب) لفيسكونتي. المرأة الشهية
والمثيرة والفياضة بالأنوثة والحالمة والتي تفيض طهرانية وقداسة لكنها
أيضا شهية وفياضة بالرغبة، وهنا التفت إلى السيدة حواء الصايغ وسألها:

- هل تحبين السينما؟

- نعم، ولكني أميل للأفلام الرومانسية

- هل شاهدت شيئا من أفلام المخرج الايطالي فيسكونتي

- لا أركز على أسماء المخرجين، لكن لماذا تسأل؟

- لاشيء.. هل شاهدت لوحة (اللوج) للرسام الفرنسي رينوار

- لقد تصفحت ألبوم أعماله، لكني لم أركز على هذه اللوحة وإنما

على سلسلة النساء العاريات. من المؤكد أنني شاهدها لكني لم

أتوقف عندها بشكل خاص. لماذا تشير إلى هذه اللوحة بالذات؟.

- أنا أحب أحد الفنانين الروس واسمه سوريكوف. علق آدم الولهان

مقاطعا

- يبدو أنك ملّم بالفن جيدا يا سيد آدم. شخصيا يمكنني أن أقول عن نفسي بأنني أحب جميع الفنانين وجميع المدارس الفنية والتيارات الأدبية. أحب جميع الألوان، حتى أشدها تناقضا. عمري خمسة وثلاثون عاما. مؤمن بالله الواحد الأحد، لكنني لستُ على وفاق مع الأديان. ثم ماذا بعد.. ها.. ليس لدي أي ضمان على الحياة، سوى ضمان سيارتي.

ضحكوا جميعا من تقديمه لنفسه بهذه الطريقة. نظرت حواء الصايغ إليه نظرة متعاطفة يغمرها الحنان، إذ أحست بأنه قريب منها وأنها قريبة منه، لكنها برغم ذلك قالت له:

- إن لديك طريقة غريبة في الكلام. لقد قلت كل شيء عن نفسك تقريبا، لكنك أيضا لم تقل شيئا قط..
- وأنا أتفق معها. فمثلا أنت لم تقل لنا هل أنت متزوج أم لا..
- ما هذا يا آدم، هذه أشياء شخصية..
- أعتذر..

- لا داع للاعتذار. لستُ متزوجا، كما..
وقبل أن يبدأ يسترسل بالكلام تقدم صديقه المهندس آدم الصاحب الذي أندهش من طريقة التعارف التي تمت بين آدم المطرود وساحرته الجميلة، لاسيما وهو كان يراقبهم من بعيد وشعر بأن العلاقة قد تأسست بين صديقه المهندس آدم المطرود والمرأة التي سحرتة، وحينما سمع أنهم يتحدثون بالعربية وباللهجة العراقية، قال:

- إنها رائحة بغداد التي جذبتني. يا إلهي.. كم هي طيبة ورائعة رائحة العراق..

لم تكن مفاجأة لهما لأنهما شاهداهما معا لمرات عدة في المطعم كما أنه راقص السيدة حواء الصايغ قبل ذلك. قام المهندس آدم المطرود بتقديمه لهما.

- صديقي المهندس آدم الصاحب. السيد آدم الولهان وزوجته السيدة
حواء الصايغ
- أهلا وسهلا..

في هذه الأثناء التحقت ايضا الروسية بصديقها آدم الصاحب الذي
قدمها لهم بالانكليزية، فرحبوا فيها من باب المجاملة، ولكن كما يبدو
أن حواء الصايغ استاءت من حضورها، لذا قالت لزوجها، وكأنما تريد
إنهاء الموقف:

- لقد بدأت الشمس تميل للغروب، إنها ستذهب للنوم في أعماق
البحر..

- يا له من تعبير شاعري. علق المهندس آدم المطرود
- إنها تكتب الشعر والخواطر أحيانا.. قال السيد آدم الولهان
- هذا شيء رائع، وتقولين إنك قارئة فقط؟ اتضح أنك كاتبة وشاعرة
أيضا، يمكننا سماع أي شيء مما كتاباتك..
- لا. لا. لا أحفظ أي شيء مما أكتب
- هيا.. هيا.. لنسمع ما كتبتة ليلة أمس..
- نبيل لا تخرجني. لا أحفظ شيئا مما كتبتة. إنها خاطرة. من الصعب
أن تسميها شعرا
- لي الشرف بأن أسمع شيئا مما تكتبين
- صدقني لا أحفظ شيئا، لكنني أعدك بأنني سأقرأ شيئا مما كتبتة
في ما بعد..

انتبه المهندس آدم الصاحب إلى أن وجود إيضا الروسية قطع سلاسة
وتلقائية الجلسة، فأخذها من خصرها قائلا للجميع:
- اسمحوا لنا. سأراكم فيما بعد. تشرفت بمعرفتكم
- أهلا وسهلا لنا الشرف

قال السيد آدم الولهان باحترام شديد ذلك، وبدا الارتياح على وجهه،
ثم التفت إلى المهندس آدم المطرود وقال ضاحكا:

- يبدو أن صديقك يبلي بلاءً حسناً، هل لديكم مؤتمر هنا..
- نعم.. لقد دعوتنا إحدى الجامعات التركية بالاتفاق مع جامعات
فرنسية وألمانية إلى هذا المؤتمر.
فسألته حواء الصايغ مستفهمة ومستغربة هذا الانتقال من الأدب إلى
الهندسة والمعمار:

- وعن أي شيء يتحدث مؤتمركم
- عن تيار (الهاي - تيك) في عمارة ما بعد الحداثة
فسأل السيد آدم الولهان باهتمام وفضول حقيقي:
- وما هو تيار (الهاي - تيك) هذا؟
- (الهاي - تيك) اختصار لمصطلح (التقنية المتقدمة - هاي
تكنولوجي) وهو من أكثر التيارات انتشاراً في فن العمارة المعاصر
والذي يكاد يمثل قطيعة معرفية مع بقية أشكال العمارة والتصميم
المعماري المعروف سابقاً. وقد برز هذا التيار في السبعينات،
ويعتبر مبنى مركز جورج بومبيدو للفنون المظل على ساحة
بوبر في باريس والذي شُيد ما بين الأعوام 1971-1977 أبرز
علامة أو رمز يمثل هذا التيار الذي يستخدم جماليات التراكيب
المعدنية مع الألواح الزجاجية.

كان السيد آدم الولهان وزوجته حواء الصايغ يستمعان بانتباه واستمتاع
للمهندس آدم المطرود وهو يشرح لهم عن تيار التقنية المتقدمة في فن
العمارة. فجأة سألته حواء الصايغ سؤالاً محرراً:

- هذا التيار كما فهمت يمثل توجهات ما بعد الحداثة ويلقي بكل
الجماليات السابقة جانبا، لكن ومن خلال حديثك عن الأدب
بل وحتى الفن التشكيلي فأنت تميل للتعبيريين والكلاسيكيين
وجمالياتهم الأدبية والفنية، فهل أنت من أنصار هذا التيار؟
فكر المهندس آدم المطرود للحظات في هذا السؤال وأجرى وخلال
لحظات مراجعة داخلية مع نفسه ثم نظر إلى أعماق أعينها وكأنه

يتوغل في أعماقها، وقال:

- معرفتي لهذا التيار وتقبلي له كخطوة في مجال فن العمارة لا يعني أبدا أنني من أنصاره، ففن العمارة فن الحيز والمكان والزمان، لكنني شخصيا أميل للروح الشرقية لأنني أحس أحيانا بالاعتراب مع تيارات العمارة الحديثة التي تعتمد على تصميم الفضاء وتشكيل الهياكل المعمارية غير العادية التي يحتاج المرء لإدراكها على التفسير الذاتي والتأويل الشخصي لكل التصميم المعماري المقدم. إنني مع تيار الحداثة في فن العمارة وليس مع تيارات ما بعد الحداثة التي أجدها بعيدة عن الروح الشرقي.

- هل تستفيد من فن العمارة في بناء رواياتك؟

ابتسم المهندس آدم المطرود قائلا:

- شخصيا لم أنتبه إلى هذا الأمر. ربما في اللاوعي، كما أنك تتحدثين عن روايات وأنا لم أكتب سوى رواية واحدة لم يحالفها الحظ بالانتشار

- يمكنك إعادة طباعتها وتوزيعها ثانية

- إنني مشغول بالتخطيط لرواية جديدة، بل لقد كتبت بعض فصولها..

- وعن أي شيء تتحدث روايتك الجديدة؟

- عن الحياة، عن أحد الأزقة وأهله وشخصياته وفي حقبة سياسية عصبية من تاريخ العراق، وبالتحديد في بداية السبعينات..

- يعني مع بداية نشوء تيار (الهاي - تيك) وبداية إنشاء مركز بومبيدو للفنون

فضحك المهندس آدم المطرود عاليا، وقال:

- لم أكن أعرف أن لديك ذاكرة بلورية بهذا الشكل، وكل هذه القدرة على الربط والسخرية، عموما، لقد استخدمت الأسلوب الكلاسيكي التقليدي في السرد..

- هل لي أن أتشرف بقراءتها؟..
- لي الشرف في أن تكوني أول قارئة لها، لكنها لم تكتمل بعد..
- على العكس سيسرني متابعة تشكيلها فالعمل الإبداعي ينمو مثل الجنين، وجميل أن أرى وأتبع تشكل عملك الروائي هذا..

كان الظلام قد خيم على البحر والأمواج بدأت تتلاطم بشكل خفيف تمهيدا لحركة المد. كانت أضواء المركب ترقص على صفحات الموج الخفيف الذي تحدثه حركة المركب، وكان الساحل بعيدا وأضواء الفنادق تبدو مثل نجوم على الأفق. كانت تلك الأمسية بداية لحياة جديدة لكل من حواء الصايغ وآدم المطرود، حياة وسط ظلام البحر وتلاطم الأمواج.

أحست حواء المؤمن بالملل من هذا الفصل الذي كان فيه الكثير من النقاشات عن الأدب وفن العمارة، لكنها أخيرا عرفت بأن هذه المرأة هي حواء الصايغ.

مرة أخرى فكرت بأن زوجها الدكتور آدم التائه هو أستاذ جامعي وليس مهندسا، يعني أن القصة ليست قصته، وإنما هو يحكي قصة إنسان آخر، لكن لماذا أسماه آدم المطرود. فكرت في أن تواصل القراءة فربما ستعرف نهاية هذه القصة..

لم يدون آدم البغدادي ملاحظة وإنما اكتفى بملاحظات حواء المؤمن. ربما فعلا هناك الكثير من النقاشات الثقافية، لكنه شخصيا يميل إلى هذا الأسلوب في الرواية. إنها الرواية المعرفية التي لا تعتمد على قصة الأحداث وإنما على ذلك التراكم المعرفي الذي يمنح القارئ ليس المتعة الأدبية فحسب وإنما المتعة الفكرية كذلك.

(5)

كان المهندس آدم المطرود يمشي مقيد اليدين وسط حراسة مشددة تتألف من شرطيين وأمامهم يمشي شرطي وخلفهم شرطي. توقف الجميع أمام باب عريض. دخل الشرطي الذي كان يتقدم المجموعة أولاً ثم خرج ليفتح الباب لهم كي يدخلوا.

كانت الغرفة واسعة وعريضة، وكان في وسطها طاولة كبيرة جلس حولها أربعة محققين. كان المحقق آدم التكريتي بينهم. أجلس رجال الشرطة المهندس آدم المطرود على كرسي أمامهم وفكوا قيوده وخرجوا ولم يبق منهم سوى شرطي واحد وقف منتصب قرب الباب الخارجي. دخل رجل يحمل صينية فيها أربعة أكواب مليئة بالقهوة. وضعها أمامهم ثم غادر المكان، بينما أخذ المهندس آدم المطرود يفرك ساعديه ويحركهما.

الرجال الأربعة كانوا ينظرون بلا مبالاة إلى المهندس آدم المطرود. فُتح الباب ودخل رجل نحيل يضع على عينيه نظارة طبية حاملاً آلة كتابة. نظر للحظة بعينية ثم توجه إلى زاوية حيث هناك منضدة وكرسي فوضع الآلة الكتابة هناك ومد سلكها ليدخل الموصل في القابس الكهربائي عند حافة الجدار الأرضية ثم جلس على الكرسي، منتظراً بدء التحقيق. فجأة قام أحد الجالسين الذي يبدو أنه الأكبر منصباً بينهم وأخذ يتجول في أرجاء الغرفة على مهل، ثم جلس على كرسيه ثانية وتوجه إلى المهندس آدم المطرود بلهجة ودية حقيقية ودونما اصطناع:

– نحن آسفون جداً سيد آدم، فلقد اضطررنا أن نمنع عنك المقابلات. لقد عاد السيد آدم الولهان من سفره خارج العراق أمس وأراد أن

يقابلك. تستطيع أن تفهم لماذا لم نسمح له بذلك. إننا نأسف لذلك. كما جاء صديقك المهندس آدم الصاحب أيضا. نظر المتحدث إلى بقية الجالسين نظرة عابرة وكأنه يستشيرهما عن جدوى هذا المدخل للتحقيق، لكن المهندس آدم قاطعه قائلا بهدوء:

– أيها السادة، لا أستطيع أن أرى مبررا لمنع الزيارات أو المقابلات عني في هذه المرحلة من التحقيق على الأقل. لقد كنت أود مقابلة السيد آدم الولهان فلماذا منعتوه. كما أود أن يزورني صديقي المهندس آدم الصاحب عسى أن يفتح أحد المحامين ليوكله لمتابعة وضعي.

– لكن السيد آدم الولهان هو زوج القتيلة حواء الصايغ يا سيد آدم، وقد كان في حالة نفسية سيئة، وقد ارتبنا من هذا اللقاء وما ينتج عنه. إنه إجراء احترازي لسلامتك قبل كل شيء.

– هل يشك السيد آدم الولهان فيّ؟ ثم ماذا عن صديقي المهندس آدم الصاحب؟ لماذا لم تسمحوا له أيضا؟

– لقد اقتضى استكمال التحقيق مثل هذا الإجراء.

ثم نظر المتحدث إلى بقية المحققين وسألهم:

– هل نبدأ؟

نظر المحقق آدم التكريتي نحو آدم المطرود وهز رأسه بالموافقة. نظر الإثنان الآخران نحوه أيضا وأشارا برأسيهما بالموافقة. التفت المحقق الرئيس إلى المهندس آدم المطرود وسأله:

– ما هي علاقتك بالسيدة حواء الصايغ؟ كيف تعرفت عليها؟

– إنها وزوجها الأستاذ آدم الولهان من أقرب أصدقائي. لقد تعرفت

عليها وعلى زوجها صدفة في إحدى سفراتي إلى تركيا لحضور

مؤتمر علمي أقيم في إحدى المدن الساحلية، ثم تعمقت علاقتنا

أكثر حينما رجعنا إلى بغداد، وكنت أزورهم باستمرار وأحيانا كنا

نذهب معاً للعشاء في أحد المطاعم.

تبادل المحققون النظرات. أخرج أحدهم علبة للسجائر ووضعها على الطاولة وسأل:

– هل هذه العلبة تخصك؟

– لقد أخبرتكم أنا لا أدخن

فسأله المحقق الرئيس مقاطعاً:

– هل كنت تزور السيدة حواء الصايغ ذلك اليوم في الساعة العاشرة صباحاً؟

ارتبك المهندس آدم وقال بتردد:

– كنتُ أحاول زيارتها لكنني لم أجدها.

فقاطعته المحقق آدم التكريتي قائلاً:

– لقد قلت سابقاً أنك كنت في الطريق إلى العمل

– كنت أقصد الفترة التي سبقت زيارتي للسيدة حواء الصايغ

فسأله أحد الجالسين بهدوء:

– ولماذا أردت زيارة الضحية؟

تألم آدم المطرود من تسمية حواء بالضحية، فقال بآلم:

– إنها زيارة ودية عادية، فقد كنتُ أزورهم بمناسبة وبدون مناسبة.

فسأله المحقق الذي لم يتحدث لحد الآن:

– هل كنت تعرف أن زوجها السيد آدم الولهان غائب وأنه خارج

العراق في سفرة عمل؟

– نعم

– إذن كيف سمحت لنفسك بزيارتها؟ هل علاقتكم من العمق والقوة

بحيث يمكنك القيام بذلك؟ وهل يعرف زوجها بأنك تزور زوجته

بغيبابه؟ كيف هو وضعك المادي؟

استغرب آدم المطرود هذا السؤال، وأحس أن الأمور تتخذ مجرىً

آخر، فأجاب:

– ماذا تقصد؟ إن علاقتنا قوية جداً، وكنت أزورهم حينما يكون

السيد آدم الولهان غائبا أحيانا ثم يلتحق بنا، بل كثيرا ما كان يطلب مني الذهاب إليهم لمجالسة السيدة زوجته لأنها تترتاح للحوار معي، لاسيما إذا ما أراد التأخر في العمل بالمكتب؟ ثم ما علاقة وضعي المادي بالتحقيق في موت السيدة حواء الصايغ؟ (صمت لحظة) على أية حال أن وضعي لا بأس. صحيح أنني لا أستطيع الدخول في مقاولات كبيرة، لكن وضعي المادي جيد.

فجأة أحس آدم المطرود بغشاوة من الظلام تكبس على عينيه وعقله، وأحس بأن قلبه قد توقف عن النبض، وأنه ينهار في لجة عميقة سوداء، سوداء، وأن هناك من يسحبه إلى المجهول. حين أفاق وجد نفسه في زنزانته. لم يتذكر كيف انتهى التحقيق. أحس أنه في مكان آخر، ولم يكن يحس بجسده. كانت روحه تقاوم من خلال الذكريات.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ليلا حينما رن جرس التليفون في غرفته فرفعه بمرح ظنا منه أن المتصل هو صديقه المهندس آدم الصاحب كي يروي له شيئا من مغامراته مع ايفا الروسية، لكنه فوجئ بصوت آخر:

– تحياتي أستاذ آدم.. أنا آدم الولهان..

– أهلا أستاذ آدم. أرجو أنني لم أضايقكم بالحديث عن الأدب والفن والهندسة، إذ لم أترك لكم الوقت لتكونوا لأنفسكم فقد شغلتكم بالحديث ولم أترككم لأنفسكم.

– أبدا يا سيدي. حواء منذ أن رجعنا قبل ساعة وهي تحثني على الاتصال بك، فلقد جهزت بعض نصوصها الشعرية وتريدك أن تقرأها الليلة

– يشرفني ذلك. كيف سأستلمها؟..

– لحظة من فضلك. إنها تريد أن تقرأها بنفسها، وتدعوك إذا لم

يضايقك ذلك للنزول إلى اللوبي. هل لديك الوقت أم أنت متعب؟ إذا كان الأمر كذلك نؤجله إلى الغد..
لم يصدق المهندس آدم المطرود ما سمعه، هل سيراهما ثانية؟ ويتأملها وهي تقرأها نصوصها، فقال بلهفة وبشاش:
- سأنزل حالاً.. أو لنقل بعد عشر دقائق. اتفقنا
- اتفقنا

حينما وضع آدم المطرود سماعة الهاتف لم يصدق نفسه. دخل إلى الحمام بسرعة ومشط شعره ورش شيئاً من العطر على وجهه وجوانبه وصدره وخرج مسرعاً حتى أنه لم يُطفئ الضوء في الغرفة.
حينما وصل صالة الاستقبال في الفندق لم يجدها، إذ لم تمض الدقائق العشر التي قال إنه سينزل خلالها. ولم يكن هناك الكثير من الزوار في الصالة. ثمة رجل وامرأة في إحدى زوايا الصالة يتهاامسان، وموظفو الاستقبال قرب الباب الزجاجية الكبيرة.

فتش عن زاوية مريحة بعيدة عن الأنظار. جلس هناك منتظراً. سمع باب المصعد يُفتح. فجأة رآها قادمة وقد غيرت الملابس التي كانت تلبسها عصر هذا اليوم على سطح المركب البحري وتحمل بيدها ملفاً، كما أن زوجها السيد آدم الولهان قد غير ملابسه أيضاً.

وقف في استقبالهما مرحباً داعياً إياهما للجلوس، ثم أشار للنادل في زاوية البهو كي يأتيهم. ما أن جلسا حتى كان النادل قربهم، فسألهم عما يشتهون شربه. طلب زوجها كأساً من الويسكي بينما طلبت هي كأساً من عصير الجزر، أما هو فطلب قهوة اكسبريس.

اعتذر السيد آدم الولهان قائلاً:

- نحن نعتذر، لقد أقلقناك في هذه الساعة من الليل.

ونظر لزوجته بحنان وواصل الحديث:

- لكنها أصرت، وأنا شخصياً ضعيف أمامها، لا أستطيع أن أرفض لها طلباً، لذا اتصلت بك.

- لا تعتذر فأنا شخصيا كنت في شوق لقراءة نصوصها، وها هي تريد أن تقرأها بنفسها فيا للسعادة.

أحست السيدة حواء الصايغ بسعادة غامرة تسري في أنحاء روحها وجسدها، وخلال ثوان سألت نفسها: هل هي سعيدة لرؤيته مجددا أم أنها حقا ترد أن تسمعه ما كتبت؟ ولكون حواء الصايغ تتحقق دائما من أفكارها ومشاعرها في أعماقها فقد أجابت على هذا السؤال في أعماقها: إنها تريد رؤيته، وهي متأكدة من نفسها ومن مشاعرها.

جاء النادل بما طلبوا من مشروبات ووضعها على الطاولة وذهب. هي تعرف أنه بانتظار أن تسمعه نصوصها فهذا هو السبب الظاهر الذي على الأقل اجتمعوا من أجله. فتحت الملف الذي أمامها وأخذت بعض الأوراق التي أمامها. صمتت لحظة. كانوا ينتظرون أن تقرأ. أخذ زوجها رشفة من الويسكي بينما ظل المهندس صامتا ومتأملاً ومنتظرا عما سيكشف عالمها وأحلامها وطريقة رؤيتها للعالم، كانت هي مرتبكة، فقالت والكلمات تكاد تختنق في حنجرتها:

- أحس بالارتباك..

علق المهندس آدم المطرود بتعاطف وحنان:

- لا ترتبكي. دائما نرتبك حينما نقرأ نصوصنا أمام الآخرين الذين لا نضمن ردود أفعالهم إزاء ما نقرأه لهم.

- شكرا لتشجيعك.. سأقرأ..

أخذت إحدى الأوراق وقرأت بصوت هادئ وحزين، كان في البداية مرتعشا لكنه صار فيما بعد واثقا:

- أيام...

يوم يسلمني لآخر

ومدينة تسلمني لمدينة

زقاق يسلمني لزقاق

ودهليز يسلمني لدهليز

كابوس يسلمني لكابوس

تعبت روحي

فلمن سأسلم نفسي؟

صمتت للحظات منتظرة أن يعلق شيئاً على ما قرأت. كان هو غارقاً
في شيء بعيد وكأنها مست شيئاً في أعماق روحه. أما زوجها فلم يبد أي
تعليق بل أخذ رشفة أخرى من كأسه. نظرت هي إليهما وواصلت القراءة:

– اعتذار

آه..

أسمع صوتَ ناي حزين في الشارع

لأنزل من شرفتي

صوت الناي الحزين يبتعد

أيتها الوردة اعذريني

سأمضي مع صوت الناي الحزين

لبلادي رائحة الرازقي المتفتح ليلاً

أيتها الوردة

هذه بهجتي تذوب مثل شمعة حزينة

وعمري يهرب مذعوراً

مثل عصفور وحيد

في سماء مليئة بالصقور

نظرت إليهما. كان هو متوهج الروح، نظراته تفيض أسى وحنين.

نظر إليها نظرات ذات معنى وكأنه يتوسل أن تواصل قراءة نصوصها:

– معرفة

في مقابر الليل

وأمام ضريح نجمة عاشقة

رقصتُ

وتذكرتُ

كيف كانت أُمي تغمضُ عينيها
من دخان الموقد في الشتاء
وتذكرتُ غزالةً شاردةً
انقضَّ عليها النمر عند النبع
وتذكرتُ بأنني ذات يوم
لن أذكر شيئاً
في مقابر الليل
عرفتُ الصباح

نظرت إليهما مرة أخرى. لم يجيبها أحد. زوجها كان قد أنهى كأسه
وأشار من بعيد رافعا كأسه بأنه يريد كأساً أخرى. لم يستطع المهندس
آدم المطرود أن يقول شيئاً فقد كان مختنفاً بالكلام، لذا أشار إليها بأن
تستمر. نظرت إليه وكأنها تقول أنا أقرأ من أجلك أنت وحدك:

مصاييح الطفولة

مصاييح طفولتي شاحبة الضوء

المصاييح التي عرفتها ترتعش دائماً

ورغم ذلك ليس هناك في ظلمتي

غير هذه المصاييح...

أيتها المصاييح..

يا مصاييح العالم... اتقدي

وأنت أيها الحارسُ

حذار أن تسمى مصباحك في البيت.

صمتت للحظات ونظرت إليه فوجدته ينتظر أن تواصل القراءة.

استفهمت منه بنظراتها، فقال هامساً:

- واصلي القراءة رجاءً

لم تجبه وإنما استمرت في القراءة:

غريب

ليل بهيم
سماء ليس فيها قمر
سماء تسح مطراً وعممة
المطر والظلام المنهمر بقوة
ليس هناك في المحطة سوى الرجل الغريب
ليس من نامة سوى صوت انهمار المطر والظلام
من تُرى سيوصله إلى البيت
البيت الكئيب
إنه يكره البيت،
لكن فكر في نفسه
ليته الآن في البيت
في البيت الكئيب.. الكئيب
ليته الآن هناك.
- وهذا نص آخر. قالت ذلك دون أن تنتظر:

هذيان
هل أنا
حطام سفينةٍ أحرقتها القراصنة
أم نجمة تهرب من السماء
قلتُ للأرض: إنني وردة جريحة
قلتُ للريح: اذكري خطوتي وباركيها
قلتُ للأشجار: وداعاً أيتها الجذور
قلتُ لأمي: آه.. كم أحبُّك
ثم قلتُ لنفسِي: ما هذا الهذيان؟؟
صمتت للحظة ثم قرأت نصاً جديداً:
لو
أذكرُ من طفولتي

إنني كنتُ جائعة ذات مساء
أذكرُ من مدينتي
مقبرة لجنود الحرب الأولى
أذكرُ من بلادي
هاوية بمساحة بلادي
أذكرُ من الورد
شوكة جرحتي
أذكرُ من جنوني
أنني دفنتُ في كهوف الليل راسي
أذكرُ من الليل
أنني قذفتُ في خلجان النجوم بأهة محرقة
أذكرُ من النسيان
أنني نسيْتُ نفسي
آه

لو أنسى الذكريات

نظرت إليه. سبق لها أن قرأت نصوصها على زوجها الذي لم يتحمس لها. كان لا يريد أن يفصح لها عن رأيه بأنها لم تعجبه، لذا كان يتعذر بأن هذا الأمر ليس من اختصاصه ولا يستطيع أن يقول لها شيئاً، لكنه يرى أنها كئيبة.

كان تنتظر أن يقول آدم المطرود لها شيئاً. ولم يكن أمامه إلا أن يبدي رأيه، وكم تمنى لو أنهما وحدهما لقال لها الكثير، لأختصر اللغات جميعها في كلمة واحدة: أحبك. لكن زوجها هنا، وهو ينتظر رأيه أيضاً ولو من باب الفضول. تملل المهندس آدم المطرود في مكانه وقال:

– لا أريد أن أجاملك أبداً..

– وأنا لا أريد أن تجاملني

– بصراحة شديدة أقول: إنك تكنين برقة وحساسية عالية. صورك

تشي بعزلة روحية. لمست في أعماقك غربة روحية وبراري من الوحشة. إنك تكتبين عن غربة الروح وسط العالم. تكتبين عن الخلاص أو بشكل أدق عن محنة الخلاص، بل تبحثين عنه وسط عبث الوجود الذي يحيط بنا. كتاباتك تنم عن موهبة. رغم أنك من الناحية الإسلوبية ربما تحتاجين إلى خبرة أكبر. هل لديك نصوص أخرى؟.

- نعم.. لدي الكثير منها..

- ألم تنشري منها شيئاً؟

- أبدا... أنا أكتب لنفسني. لا أريد أن انشر شيئاً مما اكتب

هنا تدخل زوجها آدم الولهان موجهها كلامه للمهندس آدم المطرود
مازحا:

- سيد آدم. الله يخليك لا تورطنا بالنشر. حواء تكتب لنفسها. تشعر بالحزن لأسباب كثيرة، فهي حساسة جدا. لا تستطيع أن ترى الأخطاء وعالمنا مليء بالأخطاء. هذا هو سر حزنها وسر كل هذه الكتابات.

أخفضت حواء الصايغ رأسها وأخذت تنظر إلى الطاولة والنصوص التي أمامها شاردة الفكر، بينما أحس المهندس آدم المطرود بأن زوجها إما أنه لا يفهما وإما أنه يفهما لكنه يحاصرها خوفاً من أن تنطلق إلى عالمها، وهذا يعني مغادرة عالمه وترك كل شيء وراءها، لكن آدم المطرود لم يود أن يوتر الأجواء فقال موجهها كلامه لحواء:

- يسرني أن أقرأ أو أسمع منك نصوصاً أخرى

- إن شاء الله، ربما في بغداد

- بالمناسبة، إلى أي وقت أنتم باقون هنا؟..

وجد زوجها السؤال فرصة للانتقال بالحديث عن شيء آخر غير الكتابة وعن وحشة حواء وخواء عالمها، فقال بمرح:

- غدا صباحاً نساfer إلى اسطنبول، ومنها إلى جنيف، ومن هناك

نمر بباريس ومن باريس نعود إلى بغداد أن شاء الله. يعني خلال
أسبوعين سنكون في بغداد. وأنت، كم ستبقى هنا؟
- غدا سيبدأ المؤتمر، وسيستمر ليومين، ربما سأبقى لبضعة أيام.
سأحاول السفر إلى اسطنبول لأبقى فيها بضعة أيام ثم أعود إلى
بغداد

- سنلتقي في بغداد إذن، لأننا ربما لن نلتقي في اسطنبول حيث
سنبقى يومين فقط، بعدها سنطير إلى جنيف.

أحس آدم المطرود وكأن تشنجا قبض على صدره. نظر إلى حواء
الصايغ التي كانت مستسلمة لعالمها ولم تعلق شيئاً، أما هو فأحس برغبة
مفاجئة في البكاء، لذا تمنى لهم سفرة سعيدة وتبادل مع زوجها العناوين.
فوجئت حواء الصايغ من تسارع الأحداث وقرب النهاية. أحست
بحزن شديد، بينما وقف المهندس آدم المطرود مودعا. مضى نحو
النادل وتحديث معه ثم وقع على قائمة المشروبات التي وضعها على
حساب غرفته.

حينما مضى من أمامهما ثانية أحس وكأنه تركها وحيدة. أدرك أن
علاقتها بزوجها برغم تعلقه الواضح إلا أنها علاقة غير طبيعية، وأن
نصوصها تكشف عن طفولتها الفقيرة والبائسة، ربما أن زوجها يحاصرها
بثروته وبالسفر والرحلات والفنادق الراقية والعواصم الجميلة.
وسأل نفسه هل سيراه مرة أخرى؟. لا بد من ذلك، لقد أخذ عنوان
مكتب زوجها وتليفونه المدون على بطاقته الشخصية. لا بد له أن يراها.
لقد أحس بسعادتها لوجوده معها فلماذا يترك كل هذا؟.

حينما أنهت حواء المؤمن هذا الفصل أحست بالتعاطف مع حواء
الصايغ. إنها امرأة، برغم الثراء الذي هي فيه لم تنكر طفولتها الفقيرة.
أحست بتعاطف مع المهندس آدم المطرود أيضاً، وأشفقت عليهما، فهما
يحبان بعضهما لكنهما وجدا نفسيهما في الزمان والمكان الخطأ.

أحست بشوق لمتابعة القصة، فقد كانت متلهفة لمعرفة القاتل. قلبت الأوراق بين يديها، إذن، لم يبق الكثير من القصة، ستعرف كل شيء، وبدأت بقراءة الفصل السادس.

انتبه آدم البغدادي إلى أن تضمين الرواية نصوصاً شعرية هي تقنية قديمة، فقد ترك الشاعر الروسي السوفيتي بوريس باسترناك مجموعة شعرية كاملة تقريباً باعتبارها النصوص التي كتبها الدكتور زيفاكوف في الرواية التي تحمل اسمه أيضاً، وكذلك استخدمها الكاتب الروائي الألماني هيرمان هيسه في روايته (لعبة الكريات الزجاجية)، وكذلك استخدمها صديقه الشاعر والروائي العراقي حميد العقابي في روايته (أصغي إلى رمادي)، فلا ضير أن يترك حواء الصايغ تقرأ نصوصها.

(6)

دخل المهندس آدم المطرود إلى غرفته واستلقى على السرير سارحا في أفكاره حول حواء الصايغ وزوجها، وما سمعه من نصوص. فكر أنها مشروع شاعرة مهمة لو انتبهت لنفسها ووجهت قراءاتها ووسعت من معارفها النقدية، لكن يبدو أن زوجها لا يريد لها أن تبرز في أي مجال ثقافي فهو في أعماقه يخاف أن يفقدها، لاسيما إذا ما دخلت إلى تلك الأوساط التي أكيد ستقابل فيها رجالا أكثر منه ثقافة وشبابا، وربما هي لا تريد مثل هذه الأوساط لانطوائها على نفسها وإحساسها بالإكتفاء الذاتي وتواضعها وعدم رغبتها في الشهرة والأضواء، بل على العكس يبدو أنها تخاف الأضواء. أحس بأنها ارتاحت له وتود أن تعمق علاقتها معه، أما هو فيعشقها، فهي المرأة الحلم، المرأة الجميلة الغامضة، المرأة المستحيل، لكن هل هي مستحيل حقا؟

راودته أفكار غريبة فتصور نفسه معها وتساءل: كيف لمثل زوجها أن يضاجعها، وكيف هي في السرير، هل ستبقى حزينة وشفافة وحالمة كما يراها دائما أو أنها ستتحول إلى امرأة أخرى تصرخ من الشهوة وتنطق بكلمات بذئية؟ لا.. إنها هادئة وشفافة حتى في تلك العلاقة.

حين استيقظ آدم المطرود صباح اليوم الثاني لم يجد في نفسه الرغبة أن ينزل إلى المطعم، لكنه إضطر لذلك لأن المؤتمر سيبدأ بعد الفطور في القاعة الكبرى في الطابق الثاني، فنهض متثاقلا ودخل غرفة الحمام. بعد الفطور توجه إلى قاعة المؤتمر وعند باب القاعة رأى شابة تركية وضعت أمامها عددا كبيرا من البطاقات العاجية التي تحمل أسماء المشاركين ودولهم، إلى بعض الكراريس والمعلومات عن المؤتمر وجدوله.

لمح صديقه المهندس آدم الصاحب وهو يتحدث مع إحدى المشاركات الأجنبية، فأخذ البطاقة التعريفية التي تخصه بعد أن وقع على استمارة مقابل اسمه، كما أخذ جدول المؤتمر وبعض المنشورات الأخرى واتجه نحو صديقه. تصافحا وبادر صديقه المهندس آدم الصاحب بتقديمه لزميلته معرفاً بعضهما ببعض، فهي حواء كوناى (وتلفظ هواء لأن حرف الحاء غير موجود بالتركية)، مهندسة ألمانية - تركية وجاءت لتمثل إحدى شركات المقاولات الكبرى، وهو آدم المطرود من العراق لكنه خريج اسطنبول.

نظر كل منهما في وجه الآخر للحظات قبل أن ينطقا شيئاً، ثم تحدثا مباشرة بالتركية وانسجموا وكأنما يعرفون بعضهم منذ زمن فقد قربت اللغة بينهم.

بدأ المؤتمر بأول فقرات برنامجه بعد كلمات الترحيب التقليدية. كان المتحدث الأول هو المعماري العالمي (ريجارد روجيرز) الذي تحدث عن تجربة تصميم مبنى المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان في مدينة ستراسبورغ. كانت محاضرة ممتعة وعميقة، على الرغم من أنه لم يستوعب بعض المفاهيم التي تحدث عنها، إذ كان يدعو إلى خلق مبنى مميز في لغته التصميمية ضمن البيئة المحيطة، أي خلق مبنى صرحي من دون صرحية. الغريب أنه تذكر حواء الصايغ وتمنى لو أنها كانت موجودة. عند استراحة الغذاء وعلى المائدة جلس مع المهندس آدم الصاحب والمهندسة حواء كوناى التي شعر برغبة في أن يكون معها. أحس المهندس آدم الصاحب برغبة صديقه آدم المطرود فهمس له باللهجة العراقية أن ينتظر إلى الليل وحينها سيدعوها وسيدعو صديقه الروسية ايضا وسيشربون النبيذ والفودكا، والبقية عليه، وعلق على المصادفة التي جمعتهم بنساء كلهن اسمهن حواء.

في الجلسة الثانية بعد استراحة الغذاء سره أن عرف أن المحاضر هو معماري عراقي ترك العراق لأسباب سياسية ويعيش حالياً في الدنمرك

واسمه (د. خالد السلطاني). كانت محاضراته تعريفية عن تيار (الهاي - تيك) عرج من خلالها على تيارات ما بعد الحداثة، متوقفا عند مفخرة عراقية في فن المعمار العالمي هي (زهاء حديد) وعمارته التي أطلق عليها (واقعية الفضاء الافتراضي)، متحدثا عن انجازاتها العالمية وفلسفتها التفكيكية، ثم تحدث المحاضر، مستعينا بصور السلايد، عن تنويعات عمارة ما بعد الحداثة، مقدما أنموذج مبنى (البنك المركزي العراقي) والمصمم من قبل مكتب (ديسون ووايتلين) الدانمركي، مينا قيمته الجمالية الجديدة المتمثلة في مفردة تكوينية واحدة دعاها النقاد في ما بعد بـ (الفضاء الفسيح الواسع والرحيب)، والتي سبق للمعماري (جون بورتمان) توظيفها في الستينات في سلسلة من الفنادق الفخمة ذات اللغة المعمارية المعبرة والمتفردة التي شيدها في مناطق مختلفة بأميركا.

بعد محاضرة (د. خالد السلطاني) التي أثارها الجميع بغزارة معلوماتها تقدم منه بصحبة المهندس آدم الصاحب وعرفا بأنفسهما فرح بهما جدا، برغم حذره الشديد من أتباع النظام والحزب الحاكم، فهو إلى جانب كونه معماريا شهيرا معارض سياسي نشيط، يكتب عن النظام ويكشف ممارساته القمعية بل وأحيانا يتناول دور النظام في تشويه فن العمارة العراقية والبغدادية بالتحديد.

حاولا دعوته إلى العشاء فاعتذر منهما بأدب جم، وبعد أن تركهم فكر المهندس آدم المطرود للحظات بهذه الكفاءات العراقية المهاجرة والتي لا يستفيد العراق منها، بل إن السلطة هناك طوتهم في النسيان فلا أحد يعرف عنهم شيئا بينما يستمتع العالم كله إليهم لغزارة معارفهم وتميز تجربتهم. وفكر للحظة أنهما محظوظان إذ ليس هنا أي شخص من العراق غيرهما وإلا ربما كانا سيواجهان المشاكل عند عودتهما إلى بغداد.

عاد المهندس آدم المطرود إلى غرفته ليأخذ قسطا من الراحة إذ تنتظره سهرة لا يعرف نتائجها، لكنه متحمس لخوضها، فهذه المهندسة

التركية الألمانية تعجبه ويبدو هو أيضا يثير إعجابها لأنه راقبها فوجد أنها تنظر إليه وفي أعماق عينها رغبة دفينه.

استلقى على سريره ودون إرادته غط في غفوة عميقة لم يوقظه منها إلا رنين جرس الهاتف، وحينما أخذ السماعه سمع صوت صديقه المهندس آدم الصاحب يأتيه قلعا عليه:

– أين أنت يا رجل. نحن ننتظرك. ايفا الروسية وحواء كوناى هنا أيضا، وهي تسأل عنك.

– أوه.. لقد أخذتني الغفوة

– اتصلت بك ثلاث مرات ولم تجبني إلا هذه المرة

– لم أسمع. يبدو أنني كنت غارقا في نوم ثقيل.

– على أية حال أسرع فنحن ننتظر

– لا أحس برغبة في السهر..

– ما الذي جرى يا صديقي. إنها تنتظرك، وأنت كنت متلهفا لها

– لا أدري. أحس أنني أخون حواء

– تخون من؟

– حواء

– أي حواء منهن يا آدم. حواء كوناى أم حواء الصايغ

– حواء الصايغ طبعا

– هل أنت في كامل قواك العقلية يا آدم..

– أقول الحقيقة. هذا هو إحساسي. أشعر أنها معي في كل لحظة،

بل أشعر أنها سكنت أعماقي، فهي في داخلي، ولا أرغب في

أية امرأة سواها. أريدها. إنني في شوق لها..

– يبدو أن وضعك خطير. تعال يا بني وسأشفيك. تعال. وإذا لم

تعجبك الجلسة غادرنا..

– قلت لا رغبة لدي

– تعال فقط لربع ساعة، بعدها تحجج بأي شيء لتذهب. وضعي

مخرج. لقد أخبرت حوائي الروسية بأن تساعدنا في ترتيب الأمور. أوضحت لها بأنك تريد المهندسة حواء التركية. اتفقت معها أن تستعلم عن مدى استعدادها. تعال يا أخي..

– حسنا لربح ساعة فقط

– سنكون بانتظارك في المطعم الذي يحمل أسم ألف ليلة وليلة الذي في الطابق الأول ولسنا في صالة المطعم.

نهض آدم المطرود بثقل شديد وبدون رغبة حقيقية في السهر علما أنه كان قبل غفوته متحمسا لهذه السهرة. فكر مع نفسه في الأمر وسأل نفسه لماذا جرى هذا التحول في مزاجه، وكيف اختفت رغبته، بينما فكر هو بالمهندسة منذ لحظة رؤيتها.

حينما دخل آدم المطرود إلى المطعم وقف للحظات مستكشفا المكان. أحس أن الأجواء لطيفة وهادئة، والطاولات موزعة بشكل يحفظ خصوصية الزائرين، والأجواء ليست بالمعتمة لكن الإنارة خافتة. لمح صديقه المهندس آدم صاحب يجلس بجانب ايها الروسية بينما جلست المهندسة حواء كوناى قبالتهما منتظرة أن ينظم إليها. أشارت حواء كوناى إليه لترشده. كانت هي في أبهى زينتها، وكأنها ليست تلك المهندسة الوقورة والرسمية التي كانت عليها في المؤتمر. تقدم منهم وسلم عليهم جميعا مصافحا، ثم جلس بجوار المهندسة حواء كوناى التي كانت ترتدي ثوبا ضيقا وقصيرا يكشف عن ذراعها وعن مساحة كبيرة من فخذيها ويبرز جزءا كبيرا من نهديها الثائرين.

كان المهندس آدم صاحب قد سبقه بطلب قئينة من النيذ الفرنسي الأحمر، كما كانت المائدة عامرة بالمقبلات الشهية وكان قد طلب العشاء لهم أيضا، وكانوا بانتظاره فعلا، وما أن جلس حتى صب صديقه النيذ في الأقداح. رفعوا كؤوسهم وشربوا نخب صداقتهم مقرين الكؤوس من بعضها.

بعد الكأس الثانية طلبوا قئينة أخرى، وما أن شربوا الكأس الثالثة

حتى كان الدفء والانتشاء قد تسرب في نفوسهم جميعا وصاروا أكثر استرخاء في الحديث. كان معظم الكلام بالتركية، وأحيانا بالانكليزية مجاملة للروسية ايفا التي كانت تتفاهم معهم بالانكليزية.

انحنى المهندس آدم الصاحب إلى ايفا الروسية وهمس في أذنها فابتسمت، وبعد لحظات نظرت إلى المهندسة حواء كوناى نظرة ذات مغزى ثم قامت طالبة الأذن لدقائق، وبعدها بلحظات قامت المهندسة حواء كوناى أيضا طالبة الأذن لدقائق. حينما بقيا وحدهما قال المهندس آدم الصاحب مازحا:

– ستأتيك حواء الروسية بالخبر اليقين، فقد دعته إلى حمام النساء وهناك ستسألها عنك أن كانت تريد أن تقضي الليل معك وستخبرني سلبا أو إيجابا، وستكون إشارتي بأن أقبل حواء الروسية أمامكم، فهذا يعني تحرك فالأبواب مشرعة، وإذا لم أفعل فهذا يعني أن التصميم غير ناجح.

ولم يكملا حديثهما لأن المرأتين وصلتا، وكانت ملامح ايفا فرحة ومبتهجة، فقاما لكي يجلسا. بعد لحظات ملأ المهندس آدم الصاحب الأقداح الفارغة بالنبيذ، فرفعوا الكؤوس. كانت ايفا الروسية مرحة أكثر من الجميع وهمست في إذن صديقها آدم الصاحب الذي ارتسمت ملامح الدهشة والفرح على وجهه فأخذها بين ذراعية وقبلها من فمها قبة حارة. ارتبك آدم المطرود للحظة ونظر إلى وجه حواء كوناى التي أثارها مشهد التقبيل بين الروسية ايفا وآدم الصاحب، إذ اتقد وجهها بالرغبة، فنظرت إلى آدم المطرود وكأنها تسأله: ما رأيك؟ أو تدعوه لفعل أي شيء مشابه، فأبتسم لها. وكان هو أيضا منتشيا من شرب النبيذ، فمد يده ليداعب يدها وقال لها بالتركية:

- هل لديك رغبة بالبقاء هنا أم نذهب لمكان آخر؟
- لنذهب.. هل لديك في الغرفة ما نشربه، هنا الجو صاحب
- لنذهب أولا وبعدها سنرى

قاما بين ابتسامات ايغا الروسية والمهندس آدم صاحب الذي علق
قائلا:

- يا خائن..

ابتسم المهندس آدم المطرود، فلم يكن يتوقع أن مزاجه سيتغير بهذه
السرعة. أخرج محفظته ووضع مبلغا من المال على الطاولة مساهمة منه
لدفع وليمة العشاء، وأخذ بيد المهندسة حواء كوناى التي اتكأت عليه
لأنها شعرت بأنها غير متوازنة.

حينما دخلا المصعد كانت حواء كوناى تشعر بالثمالة والرغبة
المتأججة، وكادت تفقد رزانتها التي كانت عليها سواء في المؤتمر أو
حتى بداية السهرة. ضمته إلى صدرها محتضنة إياه مقدمة له شفتيها فلم
يستطع أن يرفض عرضها فقبلها بحرارة وشبق.

ما إن وصلا إلى غرفته وفتح الباب حتى هجمت عليه مقبلة إياه،
لكنه كان من التهييج والشبق بحيث لم ينتظر فدفعها إلى السرير وفتح
فخذيها رفعا ساقيها إلى الأعلى ساحبا سروالها معها بيد بينما كانت
يده الأخرى تفك حزام سرواله، وفي لحظات أولجه فيها بعنف، كانت
هي رطبة، أخذت تصرخ فيه أن يمزقها، أن يشقها إلى نصفين، أن لا
يترك منه شيئا، أن يقذف فيها ويملاها بمائه وبذوره.

في الصباح استيقظ المهندس آدم المطرود على شخير في غرفته.
التفت فوجد المهندسة حواء كوناى عارية إلى جانبه في السرير. أحس
بالخجل، وفي هذه اللحظة فتحت حواء كوناى عينيها فقالت له:

- صباح الخير

- صباح الخير.

- كم الساعة الآن

- التاسعة

- علي الذهاب إلى غرفتي للاستحمام وتبديل ملابسى
قامت من السرير عارية، وضعت سروالها في حقيبتها، ارتدت ثوبها

سريعا وحملت وحذاءها وخرجت مسرعة، بعد أن قبلته قبله سريعة وخاطفة، وهي تقول:

– سنلتقي في المؤتمر.

بقي المهندس آدم المطرود في فراشه لدقائق مسترجعا كل ما حدث ليلة أمس. انتبه إلى أنه كان عاريا بالكامل أيضا. نهض ودخل الحمام وصعد إلى حوض الاستحمام وفتح دش الماء على قوته وبقي هناك تحت وابل الماء البارد. كان في حالة ذهول. كيف اختفت صورة حواء الصايغ أمام بعض كؤوس من النبيذ؟ هل علاقته معها عابرة بحيث لم تصمد أمام شهوته المتفجرة؟ كيف هذا وهو منذ أيام لا يرى في العالم غيرها، بل كان يرى العالم من خلالها؟

لا، لا يمكن أن تكون كل مشاعره مزيفة إلى هذا الحد؟ هل هو مريض نفسيا ومصاب بمرض انفصام الشخصية؟ أحس بالخوف من نفسه، بينما ظل وابل الماء ينهمر على جسده.

بقي لفترة طويلة في الحمام ثم خرج منه وقد ارتدى ثوب الحمام الأبيض. لم يفعل شيئا بل ألقى بنفسه على السري محدقا إلى سقف الغرفة دون أن يحيد نظره إلى أية جهة وكأنه يحدق إلى نقطة في الفراغ.

أحست حواء المؤمن أن بين المهندس آدم المطرود وزوجها الدكتور آدم التائه شيئا مشتركا، خاصة طريقة ممارسة المهندس آدم المطرود الجنس مع حواء كوناى، فقد كان من عادة زوجها الدكتور آدم التائه أن يلقيها إلى السرير ويرفع ساقها ويسحب سروالها الداخلي بيد بينما يده الأخرى تفك أزرار سرواله ثم ليدفعه فيها بقوة. وتذكر أنها أحيانا ومن فرط التهيج والشهوة كانت تصرخ فيه أن لا يترك منه شيئا وأن يمزقها وأن يملأها بالبدور. هذه هي كلماتها وليست كلمات المهندسة حواء كوناى، وسألت حواء المؤمن نفسها أترى كل النساء هن هكذا في تلك اللحظة؟. تذكرت حواء المؤمن المشاهد التي كانت تجري بينهما، وتخيلت

هذا المشهد المكتوب في القصة، أنها هي، لكنها ليست تركية ولا مهندسة، كيف له أن ينقل كلماتها إلى هذه التركية؟
أعجبتها شخصية حواء الصايغ، صحيح أنها لم تفهم كل ما كتبه، فهذا ليس شعرا، لكنها أحست بحزن هذه السيدة الجميلة، ولم تجد مبررا لكي تُقتل، وكانت تريد أن تتسارع الأحداث كي تعرف النهاية، لذا باشرت بقراءة الفصل السابع.

أحس آدم البغدادي أن الدكتور آدم التائه كان موفقا في اقتناص حالة التداخل التي جرت بين حواء المؤمن زوجة الدكتور آدم التائه وبين المهندسة حواء كوناى لحظة الممارسة الجنسية، وكيف أن حواء المؤمن نفسها كشفت ذلك حينما شبهت زوجها بآدم المطرود.

لكنه بحث في ذاكرته مسترجعا تجربته الشخصية: من ترى من النساء هكذا تصرفن وتحدثن هكذا، فلم يستطع أن يحدد واحدة منهن لأن معظمهن، كما يتذكر، كن يتحدثن بشبق وبهذه الطريقة، مع شيء من الاختلاف له علاقة بطبيعة المرأة ومجتمعها.

(7)

لم يتتبه المهندس آدم المطرود لمرور الوقت. الساعة كانت قد تجاوزت الثانية عشرة. لم يعرف كيف مر كل هذا الوقت، فهو في شبه غيبوبة وكأنه ملقى في الفراغ. كان ذهنه ساكنا وكأن رأسه جمجمة فارغة، فهو مفرغ من الانفعالات وبارد الأحاسيس، وكأن نفسا أخرى تهيمن على جسده.

نهض من سريره بشكل آلي. فتح دولاب الملابس، وارتدى سروالا جديدا وقميصا داخليا، ثم دخل مجددا إلى الحمام وحلق ذقنه. تعطر، ثم خرج من الحمام وجلس ليضع قدميه في فردتي الحذاء. نظر للمرأة الكبيرة التي تتوسط أحد جوانب الغرفة، ثم أطفأ النور وخرج.

كان يحس بنفسه خفيفا، وربما تسرب لنفسه شيء من الشعور المرح الايجابي. حين دخل المصعد رأى رجلا كهلا يتوكأ على عكازه فسلم عليه بالانكليزية، فلم يجب الرجل، ربما أنه لم يسمع، أو لا يعرف الانكليزية. وصل المصعد إلى الطابق الأرضي وفتح الباب، سمح للرجل العجوز أن يخرج أولا ثم خرج بعده، لكنه فجأة انبته إلى أن قاعة المؤتمر تقع في الطابق الأول، فأراد الدخول إلى المصعد ثانية إلا أن بابه أغلقت وصعد فارغا، فاتجه إلى باب الصعود عبر الدرج، ومن هناك اتجه إلى قاعة المؤتمر.

دخل إلى قاعة المؤتمر. جال بنظره سريعا في أرجائها، وأتجه بنظره إلى منصة المحاضرة، فاستغرب لوجود المهندسة حواء كوناى وإثنين آخرين يتحدثان بالتركية عن التوجهات الحديثة لفن العمارة في تركيا ارتباطا بالزيادة السكانية وكثافتها في المدن الرئيسة والناطقة عن الهجرة

من الريف إلى المدينة ومن المدن الصغيرة إلى الكبيرة مما دفع بالكثير من المعماريين الترك إلى إعادة النظر في أساليبهم المعمارية والتوجه نحو فن العمارة الحديثة. وكان بعض الوافدين الأجانب يتواصلون معها عبر الترجمة الفورية التي تصلهم من خلال السماعات التي يضعونها على آذانهم.

لم يجلس المهندس آدم المطرود حول أي طاولة، وإنما ظل واقفاً عند باب القاعة شابكا يديه على صدره مستمعاً لها. لم تكن هي المرأة ذاتها التي كانت ليلة أمس تصرخ فيه أن يمزقها، أو التي طلبت منه أن يمارس معها أشياء كان يتجنبها سابقاً خوفاً من الأمراض لكنها أصرت أن يفعلها معها.

كانت ترتدي قميصاً محتشماً وسترة تلقي عليها ملامح الرزانة والحشمة، وما أثار دهشته أنها نظرت إليه مرات عديدة لكنها أشاحت عنه وكأنها لا تعرفه بتاتاً، وبرغم ذلك أعجبه ما قالت وأوضحته في محاضرتها. حينما بدأ زميلاها بالحديث خرج المهندس آدم المطرود من القاعة وتوجه إلى بهو الاستقبال لحين انتهاء الجلسة.

بدأ المؤتمرون يهبطون بالمصعد وبعضهم من خلال الدرج الجانبي، وأخذوا يتوجهون إلى المطعم، فعرف أن الجلسة قد انتهت. فجأة وقف أمامه صديقه المهندس آدم صاحب متسائلاً:

– لماذا تأخرت، ولماذا لم تجلس أصلاً، يبدو أن ليلتك الحمراء

أنستك كل شيء.

– أجلس.. أنا مصدوم.

– مصدوم؟

جلس المهندس آدم صاحب على الصوفا المقابلة له، وسأل:

– ماذا حصل؟

– هذه المهندسة حواء كوناى..

– ما لها، أما ذهبتما ليلة أمس معا، هل تركتكم؟

- لا.. قضت ليلتها في سريري... لكن صمت المهندس آدم المطرود قليلا وكأنه يتحدث عن شيء بعيد جدا يحاول تذكره وعن شخص آخر لا يمت إليه بأية صلة. سأله صديقه بعد أن طال صمته:

- تكلم يا أخي. فأنا جائع، أو تعال نتكلم ونحن في المطعم..
- غريبة هذه المرأة..

- لا غريب إلا الشيطان

- إذن، ربما هي الشيطان

- يا رجل.. تحدث وخلصني

- هل تتوقع من هذه المرأة التي كانت اليوم تحدث كل هذه العقول والمواهب العلمية أنها كانت ليلة أمس تتصرف وكأنها عاهرة مرت بكل كهوف الفسق والرذيلة..

- ماذا يعني.. أقصد ماذا فعلت؟

- فعلت كل الذي يمر في ذهنك وخيالك من أوضاع وحركات
وكلمات بذيئة

- معقول!

- هذا ما جرى

- ثم ماذا... لماذا أنت مهموم من هذا؟

- لا.. إنما استغربت حينما رأيتها في المؤتمر بزيها المحتشم..

- لا تبالغ يا صديقي. هل تريدها أن تأتي عارية إلى المؤتمر. طبعا

تأتي بلباس محتشم ورسمي لأنها تتوجه لأشخاص مهمين..

- أعرف. لا أقصد ذلك، لكني لا أتصور أنها نفس المرأة التي ضاجعتها ليلة أمس.

- لا. يمكنك أن تتصور. ظننتك تعرف النساء جيدا. هيا. هيا. أنا

جائع، وايفا الروسية ستسافر اليوم لذا علي أن أكل جيدا وأذهب

بعد ذلك لتوديعها.

قاما معاً واتجها إلى المطعم. حينما دخلا كانت المهندسة حواء كوناي تجلس حول مائدة قريبة من الباب مع زميلها اللذين كان على المنصة معاً. مرا من جانبها فلم تعرفهما اهتماما وكأنها لا تعرفهما. استغرب المهندس آدم الصاحب من ذلك لكنه فكر ربما لم ترهما، بينما حاول المهندس آدم المطرود ألا ينظر إليها.

انتبهت هي لتجاهل المهندس آدم المطرود لها، لذا وجدت نفسها تتجه إليهما بنظراتها، وحينما جلسا حول مائدة لا تبعد كثيرا من مائدتهما ظلت تنظر إليه لكنه تجاهلها بالكامل، ولأكثر من مرة التقت نظراتهما فحاول تجاهلها وكأنه لا يعرفها، وهذا ما بث القلق فيها فألحّت بملاحقته بنظراتها حتى انتبه اللذان معها فالتفتا إليهما ولم يكن منها إلا أن همست لهما بشيء لم يسمعه سواهم.

بعد أن أنهيا طعامهما قام المهندس آدم المطرود وآدم الصاحب ومرا من جانب طاولتها دون أن ينظرا إليها، مما بث تيارا من الغضب الخفي في نفسها.

سألت حواء كوناي نفسها غاضبة: لماذا يتجاهلها؟ ألم يفعل معها ليلة أمس كل شيء؟ ألم يسافر في كل زاوية من جسدها هائجا كالثور مخترقا إياها من كل الجهات؟ ألم يبك كالطفل على صدرها، فهدأته كي ينام؟ لماذا يتصرف وكأنه لا يعرفها، لماذا يتعامل معها وكأنها عاهرة قضى وطره منها وألقاها على قارعة الطريق؟ هل هي رخيصة إلى هذا الحد؟ لكن لا غرابة فالرجل الشرقي يبقى شرقيا، يشارك في الإثم لكنه ينسى ذلك، سوف أحدثه وأعطيه درسا في كيفية التعامل مع النساء؟ من يرى نفسه؟

وبطريقة دبلوماسية ولطف شديد دون أن تثير أي شك قامت المهندسة حواء كوناي عن مائدتها وانسحبت معذرة من زميلها.

حين خرجت إلى بهو الفندق كانت متأكدة أنها ستره هناك، إلا أن خيبتها كانت كبيرة حينما لم تجده بل وجدت صديقه المهندس

آدم الصاحب مع صديقتة الروسية جالسين في زاوية يتحدثان وأمامهما فنجانان من القهوة.

كانت عازمة على رؤية المهندس آدم المطرود ومحادثته والاستفسار منه عن تصرفه غير المهذب معها، فتقدمت منهما وسلمت بتوتر وسألت صديقه آدم الصاحب عنه، فقال لها إنه في غرفته، ثم دعاها للجلوس معها لشرب القهوة لكنها لم تنظر أن يكمل جملته إذ استدارت متوجهة إليه. لم تتذكر رقم الغرفة فرجعت إليهما معتذرة وسألته عن رقم الغرفة فقال لها: 611، فاستدارت ثانية بعد أن شكرته بصوت خافت وكأنها تحدث نفسها.

وقفت المهندسة حواء كوناى أمام باب الغرفة 611 للحظات. كانت مترددة وكانت تبدو وكأنها تتنصت على من في الداخل، بل وخلال لحظات مرت في ذاكرتها كل ما جرى ليلة أمس، فاختلطت مشاعرها، لكنها حزمت أمرها وطرقت الباب.

كان المهندس آدم المطرود مستلقيا على سريره حينما سمع طرقات على الباب فقام وسحب اللسان النحاسي الذي يوضع في أعلى الباب وفتحه. فوجيء بالمهندسة حواء كوناى الذي كان وجهها ينم عن غضب وخجل وارتباك ورغبة خفية. وكانت تبدو أكثر جمالا وأنوثة بثيابها المحتشمة. البنطلون والقميص المغلق حتى الرقبة والذي يبرز نهديها النافرين والسترة التي تمنحها رزانة وأنوثة عما كانت عليه ليلة أمس برغم أنها كانت حينها أكثر كسفا لأجزاء مثيرة من جسدها.

ظل لحظات ينظر إليها فقالت له:

– هل سألني واقفة عند الباب

– أوه.. عفوا.. تفضلي. قال لها بارتباك

دخلت إلى الغرفة وجلست على الكرسي الذي وضع مقابلا للسريـر حول طاولة زجاجية مستديرة. وضعت حقيبتها اليدوية على الطاولة فما كان منه إلا أن جلس على الكرسي الآخر المقابل لها حول نفس الطاولة

وكأنه ينتظر منها أن تبرر قدمها له، نظر إليها فقالت له:
- هل يمكنك أن تطلب لنا قهوة أو شايا.

لم يعلق هو شيئا وإنما أخذ سماعة الهاتف وطلب شايا وقهوة ثم رجع جالسا إلى كرسيه. نظرت إليه متفحصة وكأنها تستشف مدى استعدادها لما ستقوله. ظل هو صامتا ينتظر لأنها بالتأكيد لم تأت إلى غرفته لشرب الشاي أو القهوة، وأخيرا تحدثت بهدوء وثقة، وبدا صوتها في أول كلماتها مرتعشا لكنها سرعان ما انتبهت لعرشة صوتها فسيطرت على نفسها وصوتها، قائلة:

- قبل كل شيء أود أن أقول إن تصرفك اليوم معي لا يمكن أن يفسر إلا أنه تصرف غير محترم، وينم عن عقلية شرقية مريضة، ومتعجرفة.

صدم أول وهلة من كلماتها وأراد أن يوقفها أو أن يقاطعها مستفسرا عما تقصده لكنه سكت وواصل تأملها. سكتت هي للحظات ثم واصلت:
- أنا لستُ عاهرة تنتقل من رجل إلى رجل ومن غرفة إلى أخرى ومن سرير إلى سرير، وإذا ما كنت قد جئت معك ليلة أمس، فلأني امرأة حرة بنفسي وجسدي، وأحترم نفسي وجسدي، ولا أسلمه إلا لمن أحس بأنه يستحقه، وهذا الاستحقاق لا يأتي من رجولته، أو مكانته، أو وسامته، وإنما لقناعتي الشخصية فيه، بشخصيته وأسلوبه مع الآخرين وذوقه، وحينما قبلت على نفسي أن أكون معك فهذا لا يعني إنني أفعل ذلك ليليا ومع كل من هب ودب، لذا أعتبر أن تعاملك معي اليوم وتجاهلي بهذه الطريقة المهينة هو احتقار لي لأنني أعرف تفكير الرجل الشرقي فهو ينظر للمرأة التي تذهب معه قابلة كأنها مومس.

بهدوء شديد سألتها المهندسة آدم المطرود:

- ما الذي يا ترى فعلته أو صدر مني كي تعتبره احتقارا؟
- إنك تجاهلتني بالكامل وكلما أنظر إليك لأسلم عليك وأحبيك

تشيح بنظرك عني وكأنني دائن تتهرب منه كي لا يراك.

– أنا. أنا. متى كان ذلك؟

– في المطعم عند الغداء.

– يا إلهي. أتدرين لماذا؟

– لماذا؟

– لأنني شعرت نفس شعورك هذا، بأنك كنت معي ليلة أمس ونمت في سريري حتى الصباح لكنني حين دخلت صالة المؤتمر ووقفت عند الباب أنظر إليك، تجاهلتنني وكأنني غير موجود، ومضيت مع زملائك، وفي المطعم مررت بالقرب من طاولتك فلم تتكرمي بنظرة واحدة تجاهي، فماذا تنتظرين مني بعد هذا؟ أنا بدوري غضبت منك، ولا أخفيك، تصورتك شخصية غريبة الأطوار.

لا تدري حواء كوناي كيف صدقته، واستغربت من نفسها حينما شعرت بأن كل غضبها منه وتحاملها عليه زال ولم يبق منه شيئاً في نفسها. في تلك اللحظة طرق الباب فقام لفتحه. كان موظف الخدمة قد جاء بصينية فيها دورقان أحدهما فيه ماءً ساخن والآخر فيه قهوة، وفي الصينية صحن فيه بعض أكياس الشاي وكوبان. وضع الصينية على الطاولة أمامهما، ووقع المهندس آدم المطرود على القائمة التي تحمل رقم غرفته واسمه. خرج موظف الخدمة، وحينما جلس على كرسيه ثانية وجد أساريها منبسطة.

سألها ماذا تود أن تشرب فقالت القهوة، فصب لها القهوة في أحد الكوبين، ووضع أحد أكياس الشاي في الكوب الثاني وصب الماء الساخن من الدورق الآخر. نظر إليها وكأنه يبحث في وجهها عن شيء مجهول، فانتبهت له وسألته:

– ما بك؟ لماذا تنتظرين لي هكذا؟

– أريد أن أسألك شيئاً..

– أسأل

- قبل كل شيء أعجبتني شجاعتك واحترامك لذاتك بهذه الطريقة.
وبودي أن أسألك، من أنت؟
- توقعت أن تسألني هذا السؤال، لأنه أسلوب المثقفين وبياعي الكلام والكتاب والفنانين، فحينما يودون التقرب من امرأة يطرحون أسئلة مثل هذا السؤال وغيره، ويمنحون المرأة شعورا بالتميز فيعجبها ذلك ويرضي غرورها، وبالتالي تبدأ بتقديم التنازلات لهم، وشيئا فشيئا يأخذون باحتلالها.
- ماذا.. هل هي حرب؟
- نعم، حرب ناعمة، حرب جميلة.
- إنك قاسية تجاه الرجال.
- أنا واقعية. تاريخ البشرية وتاريخ الأدب والفن يؤكد ما أقول. الرجل يبدأ بالحب الروحي الأفلاطوني ليصل إلى الحب الجنسي.
- لكن العكس يحدث أحيانا. يبدأ بالحب الجنسي ليسمو إلى الحب الروحي
- هذا يحصل نادرا جدا، وحتى إذا ما حصل فهو يحصل بحكم العادة والتكرار، ويبقى حبا جنسيا، وإذا ما خَفَتَ فإنه يتحول إلى صداقة.
- أوه.. بدأنا نتحدث بالفلسفة
- لقد درست تاريخ الفن في بداية حياتي الجامعية برغم أن درجاتي كانت تؤهلني لدراسة الطب أو الهندسة، لكنني كنتُ مولعة بالفن والموسيقى، ثم مررت بظروف دعنتني أن أعيد تصميم حياتي فدرست الهندسة لكي لا أحتاج لأحد.
- إذن، كنتُ محقا عندما سألت من أنت؟
- ارتشفت شيئا من القهوة بعد أن انشغلت بوضع مسحوق الحليب أو المبيض في كوبها، وقالت:
- غريب هو الإنسان. لم يدر في ذهني أبدا أن ينتهي بي الأمر إلى

أن اجلس معك هذه الجلسة اللطيفة لتحدث عن الفن والحب وأعماق الإنسان ونحلل شخصيته، فأنا كنتُ غاضبة منك جدا. كنت آتية لأسمعك بعض الكلمات القاسية على موقفك، بينما أتضح أنك مستاء مني لنفس السبب. يا له من سوء فهم، ويبدو لي أن مآسي البشر تأتي دائما من سوء الفهم المتبادل. ابتسم لها، وقال:

– أكيد، أتفق معك. هل قرأت رواية (مرتفعات وذرينغ) لأميل برونتي
– نعم قرأتها، فهي رواية شهيرة، وكذلك شاهدت الفلم المأخوذ عنها..

– إن سبب المأساة في قصة الحب العنيفة تلك جاء من سوء الفهم، حينما اعترفت حبيبة البطل للخادمة بأنها لا تستطيع الزواج من حبيبها هيثكليف، وفي هذه الأثناء كان هو في الجانب الآخر من المطبخ ولم تنتبه له، فقام خارجا، بل مغادرا ذلك المكان، بينما هي أكملت كلامها بأنها برغم ذلك لا تستطيع الحياة بدونه، فهو الصخرة التي تستقر عليها حياتها.. لكنه مع الأسف لم يسمع بقية كلامها، وإنما سمع النصف الأول منه، ولم تكن عودته إلا للانتقام منها ومن زوجها وعائلة زوجها بل وحتى من ابنتها. إنه الغضب بل الحقد الذي يولد من سوء الفهم، ومن الجمل الناقصة، والعجلة في إطلاق الأحكام. إنها رواية تؤكد مقولة سيغموند فرويد بأن الحقد هو حب معكوس، فبنفس قوة الحب سيكون الحقد، لاسيما حينما يكون المرء في المنطقة الأخرى، منطقة سوء الفهم.

نظرت إليه منبهرة وكأنما تكتشف شخصا آخر:

– هل تدري، أنا قرأت هذه الرواية وشاهدت الفيلم، لكنني لم أفهمه بهذه الطريقة. أنا فهمتها كرواية مأساوية عن حب مأساوي لم

يتحقق نتيجة للفوارق الطبقيّة فدفّع بأبطاله إلى جحيم الغيرة.
إنك الآن فتحت ذهني على جوانب لم انتبه لها. سأعيد قراءة
الرواية حينما أعود لألمانيا.

- يمكن فهمها هكذا أيضا، فهي كذلك في مسار أحداثها لكن ليس
في الصراعات والتحوّلات النفسية في أعماق أبطالها. ثم لماذا
بالألمانية؟ ألا يمكنك قراءتها بالتركية؟

- أنا لا أستطيع القراءة الأدبية بالتركية. أنا أتحدث بطلاقة وأستطيع
الحديث في مجال اختصاصي جيدا، لكن القراءة العميقة
أستطيعها بالألمانية، لغتي الحقيقية هي الألمانية، فقد ولدتُ
هناك وترعرعت، ودخلت المدرسة هناك بل إن جميع مراحل
الدراسة كانت في ألمانيا، أما التركية فكانت لغتي البيت.

- هل أنت تركية بالكامل؟

- نعم، لكنني أشعر بازدواجية الانتماء، وهذا ما يقلقني، فلا أنا
بالتركية، ولا أنا بالألمانية، صحيح ولدتُ هناك، وأفكر بالألمانية،
لكنني لستُ ألمانية، بل إن الألمان أنفسهم لا ينظرون إليّ هكذا
حتى لو عشت عمري كله بينهم، صحيح أنني أحمل جنسيتهم،
لكن أنا إنسانة بلا جذور.

- هل أنت فنانة؟

- لا

- لكنك قلت بأنك درست الفن

- نعم، درست تاريخ الفن، لكن دعنا من كل هذا. أخبرني عنك
فقدت أثرت فضولي

- أنا أثرت فضولك. بماذا. بعقليتي الشرقية المتعجرفة كما تقولين

- أنا أعتذر عن القسوة في حكّمي عليك

- بالمناسبة، ربما أنت محقّة. أنا شخصا لا أعرف نفسي جيدا،

وأحيانا أتسرع في أحكامي وعواطفني..

- لا يبدو لي ذلك..
- بلى
- هل عشت خارج بلدك، أقصد في أوروبا؟
- لا. في اسطنبول وطبيعي كنت في الجزء الأوربي منها، لكن هذا لا يعني أوروبا، لماذا؟
- لأنك تفكر بطريقة متحضرة
- ولماذا تعتبرين أبناء الشعوب الأخرى من غير الأوربيين بأنهم غير متحضرين؟ في النهاية نحن أحفاد حضارات إنسانية مهمة
- لا أقصد ذلك، وإنما عقليتك، رؤيتك للأمور مختلفة عن الرجال الشرقيين.
- لا أعتقد. أنا إنسان شرقي، ربما الأمر له علاقة بالتربية وليس بالحضارة، ثم أنك لم تجيبي عن سؤالي. من أنت؟ لماذا أنت هكذا؟ لا أتصور أن امرأة، لا يهم هنا جنسها، أوروبية أو شرقية، تذهب مع رجل وهما ثملان، ويفعلان ما يفعلان. ثم تستاء منه وتحاول استرداد كرامتها لأنه أشاح بنظره عنها؟ هذا غير طبيعي، ولا تفعله أي امرأة إلا إذا كانت مجروحة الكرامة، وتم معاملتها وإذلالها لمدة طويلة.
- أوه. دخلنا في علم التحليل النفسي..
- ثم ماذا؟ يمكننا أن نحلل كل الأمور وفق آلياتها. وحينما نقرب من النفس فأننا نحتاج لعلم يساعدنا والتحليل النفسي هو هذا العلم..
- ليس دائما.
- أتفق معك أنه ليس دائما، لكن في كثير من الأحيان
- يستطيع الإنسان أن يحلل ذاته إذا ما كان يمتلك وعيا ذاتيا لذاته.
- عليه أن يمتلك الشجاعة لمواجهةها..
- هذا صحيح. لكن ليس من السهل القيام بذلك

- أنت شجاعة، وأعتقد أنك قادرة على مواجهتها..

- تقصد لديّ الشجاعة على الاعتراف..

- نعم

نظرت إليه بتفحص وهي تقرأ ما يدور في ذهنه

- أتود أن أعترف؟

- إذا كنت تودين ذلك، لأنني أحس أنك تبحثين عن إنسان تلقي

أمامه حملك الثقيل، تبحثين عن فرصة للاعتراف. وأعتقد أنه

حانت الفرصة لذلك..

نظرت إليه وكأنها تطلب منه أن يطلب منها ويشجعها أكثر على

الاعتراف لأنها ما زالت مترددة.

كلما استمرت حواء المؤمن في القراءة، زادت قناعتها بأن زوجها

الدكتور آدم التائه كان يقصدها حينما يتحدث عن المهندسة التركية حواء

كوناي، لكن يا له من كذاب، يحاول أن يبين بأن الآخرين سيئون وأنه

هو الإنسان الوحيد الذي لا يخطئ.

لقد أحست أن حواء كوناي قريبة منها، لذا لم تتوقف كثيرا عند هذا

الفصل وإنما أرادت مواصلة القراءة لتستمع إلى اعترافات حواء كوناي.

انتبه آدم البغدادي إلى تعليق حواء المؤمن ووصفها للدكتور

آدم التائه بالكذاب، وهو توصيف أخلاقي وشعبي لعملية تغيير

الأحداث والحقائق وإعادة صياغتها ونسبتها إلى آخرين، فهي لا

تفهم العملية الإبداعية والجمالية ومفهوم الفن والإبداع عموما،

لكن هل فن الرواية هو فن الأكاذيب المقدسة؟.

(8)

صمتت فجأة، وشحب لونها، ونظرت في كأسها. ألهمت نفسها بصب القهوة في الكوب بالرغم من أنه لم يكن فارغا. كانت تريد كسب الوقت. هل تقول ما عندها أم لا؟ أخيرا انبسطت أساريرها لكن نظرتها ظلت حزينة وكأن ألما دفيناً كان يرقد في أعماقهما. رفعت رأسها ونظرت إليه وكأنها تريد أن تقرأ شيئا في وجهه، ثم قالت:

– المرأة التي تجلس أمامك والتي تعتبرها إنسانة شجاعة وقوية هي إنسانة محطمة من الداخل.

نظر إليها نظرة متسائلة وقال:

– أنت؟

– نعم أنا إنسانة محطمة وضعيفة جدا من الداخل، وشراستي التي تراها قوة وشجاعة هي محاولة يائسة للدفاع عن نفسي من احتلال الآخرين لي ولعالمي وشخصيتي.

صمت آدم المطرود بينما كانت هي تتوقع أن يعلق شيئا على ما قالته فانتظرت لحظة، وحينما لم يقل شيئا واصلت حديثها بهدوء وبنبرة ألم وكأنها تسترجع شريطا سينمائيا يُعرض على شاشة ذاكرتها، فقالت: – ولدتُ في ألمانيا. أنا الوحيدة لوالدي. كانت أمي قد هربت مع أبي من تركيا، وأبي كان عاملا بسيطا، لكنه مات في حادث مؤسف أثناء العمل، كنتُ حينها في السادسة من عمري.

بقيتُ وحيدة مع أمي التي خافت الرجوع إلى تركيا، وأرادت لي أن أنعلم وأواصل دراستي في ألمانيا، ولم تشأ أن أواجه نفس مصيرها القاسي الذي كان ينتظرها في قريتها البعيدة في أقاصي شرق تركيا،

لذا عشنا أول الأمر من التقاعد الذي خلفه لنا والدي، ولكن بمرور الوقت، وارتفاع الأسعار للحاجات والحياة عموماً، وبنمو جسدي واتساع دائرة حاجاتي سواء الشخصية أو المدرسية لم يعد مبلغ التقاعد يكفي، فاضطرت أمي للعمل في مصنع للعطور خارج مدينتنا الصغيرة.

كانت أمي المسكينة تستيقظ في الخامسة فجراً لتعد لي الفطور وأحياناً وجبة الغذاء ثم تمضي للعمل، وكانت تعود مع هبوط الظلام لتعد لي العشاء وأحياناً تطبخ بكمية كبيرة لعدة أيام كي لا أجوع حينما أعود من المدرسة.

ما زلتُ أذكر حينما كانت تعود إلى البيت تعباً عند المساء، بالكاد كانت تقف على قدميها، فتمدد على الصوفا القديمة التي لدينا وتطلب مني أن أدلك قدميها، بل وكثيراً ما كانت تغفو أثناء تديلكي لهما، لكنها كانت تفز بعد وقت قصير لتقوم بإعداد وجبة العشاء، أو لغسل الملابس، ولم تشأ أن أساعدها لأنها كانت تقول لي لا تفكري بشيء ولا تشغلي نفسك بشيء سوى الدراسة.

وفعلاً كنت جيدة في دراستي بل حينما أنهيت الدراسة الثانوية حصلت على درجات عالية جداً تؤهلني لدخول الجامعات العلمية لكنني اخترت دراسة الفن، وكنت قد حصلت حينها على الجنسية الألمانية بعد بلوغي الثامنة عشرة على الرغم من أن أمي لم تحصل عليها وإنما على الإقامة فقط، كما حصلت على منحة المساعدة الدراسية التي تقدمها الدولة للمحتاجين الذين لا يستطيع أهلهم الأنفاق عليهم لمواصلة دراستهم.

كانت أمي سعيدة بل فخورة بتقدمي الدراسي ونجاحي الباهر، وكأنها انتصرت على قدرها، لكنها كانت واهمة لأنها لم تستطع أن تتمتع بنصرها طويلاً إذ أن الموت أخذها مني ورحلت معه إلى عوالمه الغامضة.

حينها لم أكن ناضجة بما فيه الكفاية. وكنت على الرغم من روح التمرد التي تغفو في داخلي ما زلت أسيرة التقاليد التي ورثتها عن أمي.

لم يكن لدينا أقارب سوى العم آدم كوناي الذي كان يُعد من أقارب أبي البعدين. كان هذا العم البعيد أرملاً، ويعيش مع ابنه آدم تورك الذي كان يكبرني بعامين تقريبا. لا أريد أن أشوه صورة أُمِّي لكنني كنت أحس بأن ثمة علاقة قوية تربطها بالعم آدم كوناي. بالمناسبة، حين سمعت باسمك انجذبت إليك مباشرة، فهو اسم محبوب لنفسي. آدم.

العم آدم كوناي كما أخبرتني أُمِّي ذات مرة، ولم تكرر ذلك الحديث قط، عاقب زوجته، أم آدم تورك، ابنه، لأنه كان يشك أن لها علاقة بقريب لها، فطلقها وأرسلها إلى قريتها التي تقع في جنوب شرق تركيا، في منطقة هكاري.

كان يشك في أن آدم تورك ليس ابنه، وإنما هو ابن ذلك الرجل الذي كان يعيش في مدينة قريبة من مدينتنا، والذي وجد مقتولا في شقته ذات يوم. وبرغم أن الشكوك كانت تحوم حول العم آدم كوناي لأن زوجته أم آدم تورك أتهمته بقتله، إلا أن الشرطة لم تجد أي أثر للجريمة. عموما ماتت أم آدم تورك في قريتها بعد سنوات، وظلت علاقة العم بابنه آدم تورك سيئة جدا، وكان آدم تورك يكرهه أيضا، أو على الأقل لا يحبه.

على أية حال، لا أدري ما هو سر العلاقة بين أُمِّي وبين العم آدم كوناي، لكنها حينما انهارت صحيا وكانت على مشارف الرحيل طلبت مني أن أتزوج آدم تورك ابن العم. لم استطع أن أرفض لها طلبها الأخير، بيد أنني لم استطع أن أكشف لها مصيبي الشخصية، بل لا أخفيك، وربما يبدو كلامي لا إنسانيا وقاسيا إذا ما قلت إنني شعرت ببعض الراحة عند موتها، لأنني أحسست أن موتها جنبها عار فضيحتي، إذ لم أكن حينها عذراء، وأنت تعرف ماذا يعني ذلك لامرأة شرقية، وسأحكي عن ذلك.

بعد موت أُمِّي كنت مضطرة أن أتواصل معهم وكأنهم من تبقى لي في هذه الدنيا. كانت مسألة زواجي من آدم تورك وكأنها تحصيل حاصل، فهم يعيشون وحدهم وأنا المرأة الوحيدة التي بينهم، وكنت أحيانا أعود للعيش في شقتنا المؤجرة. عند المساء كان آدم تورك يأتي

ليأخذني عندهم، وأحيانا كان العم آدم كوناى يأتي إلي، وحينما كنت أريد أن أبقى لأغسل ملابسي أو أعد لبحث دراسي مطلوب مني، كانا يأتيان للمبيت في شقتنا.

كان العم آدم كوناى قد فاتحني بموضوع الزواج من ابنه مرات عدة، وكنت أتهرب من الموضوع متحججة بالدراسة، لكنني كنت أوفر لنفسي المال كي أجري عملية ترقيع لغشاء البكارة المفقود، وكنت قد استطلعت عن الموضوع من بعض الفتيات التركيات والعربيات اللاتي أعرفهن، وفعلا أجريت العملية في مدينة بعيدة نسبيا عن مدينتنا.

وبعد نهاية السنة الثانية من الجامعة، وفي العطلة الصيفية وبعد مرور سنة وثمانية أشهر من رحيل أمي، تزوجت من آدم تورك.

لم أكن أحب آدم تورك لكنني كنت استلطفه، ولم أكن مرتبطة عاطفيا بأي كان، وكل تجربتي كانت لا تتجاوز اندفاعات مراهقة تملك حرية واسعة بالقياس إلى الكثير من الفتيات، لغياب الأب وانشغال الأم.

كنت أقيم علاقة مع شاب ألماني لم نتجاوز القبل السريعة المسروقة، لكن أحد الشبان الأتراك تشاجر معه من أجلي وهدده، فخاف صديقي الألماني وتركني للشباب التركي آدم عصمان، الذي أول من لامسني وداعب جسدي، ومارس معي أول الأمر من الخلف حفاظا على بكراتي، وبقيت معه إلى أن أنهيت الثانوية، ولكونه كان يعمل في سوق الخضار الكبير مع أخوته وأبيه فلم يتمكن من النجاح وإنهاء الدراسة الثانوية.

مع آدم عصمان عرفت أفراح الجسد. لم تكن العلاقة طبيعية أول الأمر حيث كان يأتيني من الخلف، وكنت في البداية أكره ذلك، وأكره نفسي، وأشعر بالألم والاختناق، لكنني مع مرور الوقت، واستمرار المداعبات والشبق تعودت، بل وكنت أطلب ذلك بنفسني في لحظات معينة من التهيج، نعم تعودت على ذلك بل وأحببته، لكنه كان أيضا يداعبني من الأمام، ولا أدري كيف إننا في لحظة تهيج وشبق التحمنا، واخترقني.

ليت ذلك لم يحصل، لأن آدم عصمان بدأ يتهرب مني، وابتعد شيئاً فشيئاً، ربما لأنه خاف أن أطالبه بالزواج مني، لكنني تجاوزت الفضيحة من خلال صديقاتي التركيات والعربيات، وبالتحديد إحدى التونسيات التي كانت قد رتقت نفسها لثلاث مرات. وهكذا تزوجت آدم تورك. كان عرسنا متواضعا. احتفلنا في إحدى المطاعم التركية، ثم انتقلنا إلى شقتهم. شقتنا أنا وأمي بقيت فارغة. لكنني لن أنسى تلك الليلة ما حيين.

مشكلتي مع آدم تورك أنه شبح، ظل إنسان، فعلى الرغم من أنه شاب وسيم قوي البنية، لكنه كان بلا شخصية، إذ طغت عليه شخصية أبيه الذي تجاوز منتصف الخمسينات، الوسيم، القوي البنيان. لم يكن لدى آدم تورك أي رأي أو وجهة نظر خاصة، كان رأيه من رأي أبيه، وحتى إن كانت لديه وجهة نظر فإنه لم يكن يعترض أو حتى يكشف عنها أو يبدي رأيه.

في تلك الليلة كنا أنا وهو في شقتهم، فقد ذهب الأب لينام بعد انتهاء حفل الزفاف في شقتنا، إذ كان يوماً متعباً حقاً. قبل ذلك طلب العم من جيرانهم أن يساعدوني في إعداد نفسي وتجهيزها، ثم ذهبنا أولاً إلى المسجد لتتزوج على الطريقة الإسلامية، بعدها إلى المحكمة للتسجيل الرسمي، ومن ثم السياحة بالسيارة في أزقة المدينة، ثم إلى المطعم الذي أكتظ بأصدقاء وأقرباء العم.

على أية حال، تلك الليلة التي كانت بالنسبة لي كارثة بكل المقاييس، إذ أحسست أن آدم تورك مرتبك جداً. حاولت أن أساعده. تخففت من ملابسني ولبستُ ثوباً شفافاً جداً يكشف عن كل شيء تحته، حتى وكأني عارية كلياً، ثم استلقيت على السرير بوضع مغرٍ منتظرة، لكنه لم يأت. كان قد ذهب إلى الحمام وبقي هناك فترة طويلة. ناديته لكنه لم يجب. حينما عاد وجدته شبه منهار. دعوته للاقتراب مني فاقتراب. لقد كان طائعا. أحسست أنني أقوى منه ويمكن أن أقوده، وأن أساعده، فهو

على أي حال صار زوجي، لكنه فجأة أخذ يبكي كالطفل. ارتبكت. بدأت أهدئه، فهدأ. ثم أخذت أنزع عنه ثيابه، وحينما وصلت إلى سرواله رفض أن انزعه. بدأت أشك في قدرته، وأردت أن أستكشف الأمر بنفسي. خلعت ثوبي فصرت عارية، اقتربت منه لكنه ابتعد خائفاً.

استلقيت على ظهري وطلبت منه أن يستلقي إلي جانبي ويسترخي. غطيت جسدينا بملاء ناعمة، وبدأت أقرب منه، لكنه كان هامداً. بدأت أداعبه، فكان يستجيب، لكن بلا توهج أو إثارة. أخذت يده وبدأت أتجول معها في جسدي، فكان كالنائم. ترك يده في يدي، لكنه لم يبادر بأي شيء.

بدأت أشعر بالإحباط فسألته عن حاله وما يشكو منه، هل أني لا أعجبه، فأجاب كالمذنب، بأنه على العكس من ذلك، أنه يحبني جدا ويراني جميلة جدا، وأنه سعيد بزواجه مني، ثم أخذ بالبكاء مجدداً، مؤكداً بأنه لا يستطيع أن يفعل أي شيء. إنه يريدني، يريد أن يكون معي، لكنه لا يستطيع. سألته هل هو عاجز، فنفي أن يكون عاجزاً، بل إن لديه شهوة جنسية عارمة، لكنه يضاجعني في خياله، وقد ضاجعني بشبق وعنف وجدارة مرات عديدة، لكن في خياله، حيث كان يمارس عاداته السرية وأنا حاضرة في خياله، لكنه الآن عاجز رغم أنا عارية وجسدي بين يديه.

حاولت مساعدته، داعبته، أخذت أقبله من كل جهات جسده عسى أن يتأثر أو يتهيج، لكن دون جدوى. طلبت منه أن يريحني، فأنا متهبجة ومتوترة، كما ذكرته بأن العم ينتظر منه أن يريه رجولته ودم بكارتي. حينها بدأ يبكي وألقى بنفسه بين يدي يقبلها، وانحنى ليقبل قدمي وهو يولول: خلصيني، أنقذيني، لأن أبي لو عرف سيقتلني ويزيلني من وجه الأرض.

أشفقت عليه، وأحسست أن واجبي أن أحافظ عليه من طغيان العم.

لم يكن أمامي سوى أجد مخرجا من هذه المحنة. تذكرت أن العم آدم كوناي كان يعاني من ارتفاع بسيط في السكر وأنه يحتفظ بجهاز القياس في الشقة، فأتيت بالجهاز وغرزت فيه الإبرة، وبدأت ألسع نفسي بالإبرة وأعصر إصبعي، فيخرج الدم منه فأمسحه بمنديل أبيض كان الأب قد أعطاه له ليضعه تحتي لحظة الفتح العظيم. كررت هذا الأمر مرات عدة وبمعظم أصابعي، وطلبت منه أيضا ذلك فوافق، حتى تلوث المنديل حقا بالدم، حينها قلت له أن يقدم ذلك لأبيه كي لا يشك بشيء.

في اليوم الثاني جاء العم ليستكشف الأمر. إنزوى مع زوجي آدم تورك ودخلا إلى غرفة أخرى، بينما حاولت أنا أن أشغل نفسي فدخلت إلى الحمام لأستحم وأعطيتهما الفرصة لمناقشة مسألة فحولة الابن.

خرج العم مزهوا وكأنه هو العريس لأن الابن أثبت رجولته ورفع رأسه عاليا، وهكذا اجتزنا هذه المحنة. بعد ذلك تدهورت حالة آدم تورك إذ أصابته الكآبة، ربما لخجله أمامي، أو لعجزه عن مضاجعتي برغم رغبته فيّ، أو خوفه من أن يكتشف الأب الحقيقة.

لا أعرف بالضبط ما جرى له، لكنه صار حزينا، قليل الكلام، عصبي المزاج. أحيانا أحسست نمو روح التمرد فيه، إذ بدأ يبحث عن أعمال تتركه بعيدا عن البيت، حيث صار سائقا للسيارات التجارية الكبيرة التابعة لإحدى للشركات الكبرى التي تتيح له السفر لفترات زمنية طويلة.

كنتُ أفهمه، ولم أعترض على تصرفاته، لكن العم آدم كوناي كان لا يفهم كيف يترك العريس الجديد عروسه ليسافر أسابيع ويرجع في الشهر لبضعة أيام ليغادر ثانية. هذا الأمر مبعث توتر بينهما، لكنني لاحظت أن آدم تورك صار أكثر ميلا إلى التمرد على أبيه، ويتحجج بأنه يريد أن يجمع المال ليضمن مستقبله ويكون نفسه.

تمرد آدم تورك النسبي على أبيه أثر على مزاج العم، فصار أكثر عصبية و صار يتأخر في المقهى الذي يرتاده الأتراك والذي يقع بالقرب من البيت، وأحيانا يأتي ثملا. أما أنا فأصبحت أكثر حرية. أتابع جميع

محاضراتي، لا أطبخ الطعام إلا نادرا إذ أن العم حسن تورك يأكل معظم وجباته في المطعم أو المقهى، بينما أنا أكل في مطعم الجامعة.

حين يعود آدم تورك في إجازة ليقضي أيامه بيننا أقوم بالطبخ. كنا نذهب معا إلى الدكان التركي الكبير، وكنا نقابل بعض المعارف من النساء والرجال فكانوا يسألون عن حياتنا الجديدة وهل هناك طفل في الطريق، فكنت أبتسم وأقول بأن الأمر بيد الله، وأنا ما زلت أدرس، وأماننا وقت كثير، بينما كان الانزعاج يبدو على وجه آدم تورك.

وفي الليل، حينما ندخل إلى غرفة نومنا، كنت أحس فيه يحاول أن يقترب مني وكنت أرحب بذلك فأنا أيضا أحتاج إليه، لذا كنت أساعده، فقد لاحظت أنه صار أكثر جرأة مما كان عليه في الليلة الأولى، وفسرت ذلك بخبرة السفر وأحاديث أصدقاء العمل، وربما حصلت له بعض التجارب، والحقيقة لم أكن أعترض حتى لو حصل له ذلك لأنني أرى أن ذلك ربما سيسفيه، غير أن محاولاتي لم تجد نفعا مرة أخرى، وهذا ما ترك تأثيراً سيئاً جدا عليه، فهوى في بئر داخلية مظلمة.

أخذ آدم تورك يغيب لفترة أطول في سفراته، وأحيانا كان يراودني شعور أنه في إجازة لكنه لا يأتي للبيت وإنما ربما يراقبني من بعيد، لأنني ذات مرة كنت خارجة من الجامعة فوجدت في الزحمة القريبة من شارع الجامعة شابا ظننته هو، وخيل إليّ وكأنه يتبعني، فالتفت إليه وصعقني الشبه بينه وبين زوجي آدم تورك، إلا أن هذا كان يضع طاقة على رأسه، ولم يطرأ في ذهني لحظتها أنه هو لمعرفتي بأنه مسافر، وحينما أردت التأكد من ذلك التفت ثانية فلم أجده، إذ اختفى.

عموما، كان في بداية الأمر يسافر لمدة عشرة أيام أو أسبوعين كأقصى حد، لكنه صار يسافر لشهر أو أكثر. من جهة أخرى، ساء وضع العم النفسي، إذ صار يأتي إلى البيت أحيانا وقد تعته السكر.

كانت تصرفات العم ونظراته إليّ ترييني. أحس في نظراته عتاباً

وكانني السبب فيما جرى لحال آدم تورك، لكنه لا يجرؤ على مفاتيحي بذلك. أحيانا كان ينظر إلي نظرات غريبة، فيها ما فيها من الرفق والشفقة، والرغبة العمياء وكأنه يحسد ابنه على وجود امرأة مثلي معه بينما هو يخفني. كان ثمة صراع خفي في أعماقه ما بين بقايا رجولته وبين دوره الأبوي.

كنت حينها قد أنهيت المرحلة الثالثة بتخصص تاريخ الفن، وكنت أعيش تناقضا بين ما أدرسه من غوص في علم الجمال، والعلاقة ما بين الجمال الروحي والحب الجسدي وتحولات هذه العلاقة، وبين ما كنت أعيشه من تناقضات. كنت أعاني كثيرا.

ذات يوم لمحت صديقي الأول آدم عصمان من بعيد. هو لم يرني لكني لمحته. أحسست بالرغبة العارمة. ذلك اليوم نفسه دخلت مكتبة الجامعة أفتش عن كتاب (معنى الحب) لفيلسوف روسي اسمه (فلاديمير سولوفيوف) عاش قبل الثورة البلشفية. حينها أردت أن أكتب بحثا فصليا عن الايروس في الفن، فأخبرتني موظفة المكتبة بأن هناك نسخة منه استعارها أستاذ أجنبي، لكنه أراد أن يتصفحها في المكتبة ويمكنني إذا ما كنت في حاجة ماسة للكتاب أن أنتظر فر بما سيعيده قبل نهاية الدوام لأنه لم يرغب في استعارته لفترة طويلة، وأشارت إليه بشكل غير مباشر. إلتفتُ إليه. كأن ثمة شرارة كهربائية مستني. رأيت رجلا في منتصف الثلاثينات من العمر، حنطي اللون، وسيماً بشكل ملفت، تلك الوسامة التي لا تشبه وسامة نجوم السينما وإنما وسامة الأبطال القادمين من متاهات التاريخ. ربما لا تصدق إذا ما قلت إنني توجهت إليه لا إراديا وجلست على الكرسي المقابل له ولم تفصل بيننا سوى الطاولة.

نظر إليّ وابتسم مجاملة. تلك الابتسامة التي نمحها تعبيراً عن الترحيب والسلام، فابتسمت له. راودتني رغبة غامضة في أن أحدثه، فسألته إن كان يكتب بحثا عن سولوفيوف؟ انتبه إلي وتوقف عن القراءة. نظر إليّ وقال مبتسماً بأدب:

- لا، أنا أتصفح الكتاب لأن علي إعداد محاضراتي في علاقة الإيروس بالثقافة، وسولوفيوف له رؤية مهمة في هذا الموضوع. كان يتحدث بألمانية واضحة ولكنة الأجنبية، لكنها صحيحة من الناحية النحوية وسليمة البناء، فدفعني الفضول بأن أسأله:

- من أين حضرتمكم؟

- من مصر

- أوه. من أرض الفراعنة

ابتسم وقال:

- نعم من أرض الفراعنة.

- تشرفنا. اسمي حواء كوناى

- تشرفنا. أنا آدم المصري

سألت نفسي عن هذه المصادفة الغريبة التي تجذبني لكل من يحمل اسم آدم، وهكذا تعرفت على آدم المصري. حينها تحدثنا بشكل موسع عن سولوفيوف.

- من هو سولوفيوف؟

- ألم يترجم إلى العربية؟

- لا أعتقد، فمعظم ما نعرفه فكريا وليس أدبيا عن الفترة الروسية القيصرية قليل جدا، ومن خلال ترجمات دار التقدم في موسكو، أي من خلال منظار سوفيتي.

- خسارة. فلاديمير سولوفيوف مفكر روسي وأحد مؤسسي نظرية الحب الفردي الإيروسى، وصاحب فكرة سمو وتعالى الشخصية الإنسانية عن طريق الحب وتجاوز الأنانية والبعث والكمال الأخلاقي للإنسان. في كتابه (معنى الحب) قدم تحليلا نقديا مفصلا للنظريات اللاعقلانية التي كانت منتشرة في الغرب على نطاق واسع، والتي طورها شوبنهاور الذي أكد بأن الحب هو خدعة الطبيعة أو الإرادة التي تخدع الإنسان، عن طريق غريزة

جنسية قوية وتجعله أداة عمياء للتكاثر والانتقاء الجنسي، حيث أكد سولو فيوف أنه إذ عُد الحب مجرد وسيلة لاستمرار الجنس البشري فإنه يتحول إلى مجرد غريزة حيوانية بسيطة.

- رائع

- سولو فيوف أكد على الحب البشري، ففي رأيه أن الإنسان في الحياة الواقعية يرى نفسه مركز الأنانية بل ومركز العالم. يعامل المحيطين حوله انطلاقاً من حاجاته ومصالحه الشخصية، ومن هنا فهو يرى الحب القوة الوحيدة القادرة على لجم الأنانية الفردية، دون أن يحذف السمات الفردية، بل يؤكدها ويتفهمها.

لهذا فإن مغزى الحب البشري هو تبرير وحماية النزعة الفردية من خلال التضحية بالأنانية، وهذا يحدث عن طريق الحب، فنحن نؤكد الأهمية المطلقة للفرد الآخر، فالحب هو إلغاء كامل للأنانية. إنه نقل اهتمامنا من الذات إلى الآخر، حتى أن سولو فيوف يرى أن الحب الجنسي بالذات هو القوة الرئيسة القادرة على لجم الأنانية الفطرية، لأنه وحده يحافظ على المساواة بين المحب والمحبيب.

- يبدو أنك مؤمنة بأفكاره

- نعم، فمع اعترافه بأهمية الحب الجنسي، يتحدث سولو فيوف عن ضرورة استنارة الجسد واستلهامه، فالجانب الجسدي في الحب هام، لكنه لا يُعد الهدف الرئيس، ويمكن للحب الحقيقي أن يكون بدون اتحاد جسدي، كما يمكن للتلاحم الجسدي أن يكون بدون حب، وبعبارة أخرى، إذا ما أصبحت الفيزيولوجيا هي الهدف، فإنها تقتل الحب.

لا يدري المهندس آدم المطرود كيف انبثقت صورة حواء الصايغ من أعماق ذاكرته وتجسدت في ذهنه المتوقد، لاسيما حينما قالت إنه يمكن

للحب الحقيقي أن يكون بدون اتحاد جسدي، بينما لا تربطه بهذه المرأة التي تتحدث معه سوى شهوة عارمة. لم يعد يركز على حديثها الفكري لكنه انتبه أنها رجعت في الحديث إلى آدم المصري.

– أخذنا نلتقي يوميا تقريبا. انتبهت لنفسي بأني بدأت أعيش حياة مزدوجة، فأنا أعيش في البيت حياة شبه محافظة، بينما كنت مع آدم المصري أعيش السمو الروحي والجسدي. لم تبعد ملامساتنا عن القبل، حتى جاء ذلك اليوم الذي دعاني فيه إلى شقته الصغيرة جدا، وهناك لم استطع التفكير. حينما أراد أن يأخذني قلت له إني عذراء. لم يصدق. داعبني ليكتشف بنفسه، وسهلت عليه الأمر حينما قلبت نفسي ففهم، كنت معتادة على ذلك، كما أنه يعجبني.

مشكلتي مع آدم المصري أنه كان في إيفاد لمدة ثلاثة أشهر فقط، لكنني، وهذا ما استغربت له ولا أزال، هو أنني لم أتأثر كثيرا برحيله، بيد أنني كنت قلقة جدا. لكنني، ولا أدري لماذا، شعرت بالذنب أمام العم الذي كان يوليني اهتماما خاصا، وكذلك أمام زوجي آدم تورك الذي أحسست أنه يحبني من أعماقه لكنه كان لا يجد حلا سوى أن يتعد عن عالمي.

أحيانا لا أعرف نفسي جدا. كنتُ في حيرة عميقة مع أنني كنت واثقة من ثقافتني ومعارفي بحيث يمكنني أن أعرف ما يجري لي، وسبب هذه الحيرة أنني حينما ثانية التقيت آدم عصمان صديقي الأول في مكان ما، لم استطع إلا أن أحييه وأسلم عليه، ويبدو أن هذه السنوات التي فرقت بيننا قد أضفت عليّ نضجا أنثويا مشيرا، إذ وجدته معجبا وعاشقا مرة أخرى، بل وأكثر من الأول، وأخذ يلاحقني في كل مكان طالبا مني أن نلتقي ولو مرة واحدة في شقته، فقد صارت لديه شقة خاصة له.

كنت أعرف ما الذي سيكون بيننا، فمن حيث الثقافة والتعليم كنت قد تجاوزه، فأنا كنت في عامي الجامعي الرابع، بينما هو قد ترك الدراسة.

لا أدري كيف جاءتني الفكرة الجنونية كي أذهب معه لمرة، مشترطة عليه أن تكون المرة الأولى والأخيرة، ويكف بعدها عن ملاحقتي، وحينما كنا هناك وحدنا فقدت كل توازني وعدت تلك المرأة المهووسة بالجنس. لقد طلبت منه أن يعيد معي كل ما كان يفعله سابقا، بل وصرت أنا التي أتصل به وأبحث عن أية فرصة لمقابلته هناك.

لم يكن الأمر عليّ سهلا. لحظتها كنت لا أفكر بما أفعل، بل كنت أفكر بمتعة الجسد فقط. وكنت أشعر أنني أعاني من ازدواجية الشخصية، فمن جهة أنا التي كنت أبتعد عنه فصرت التي تركض خلفه، وأيضا حينما أكون معه في الشقة أتحوّل إلى امرأة داعرة بكل معنى هذه الكلمة، لكن ما أن أفتح باب بيتي حتى أحس بالندم وبشعور هائل بالذنب وتصيبني حمى أخلاقية تدفعني باتهام نفسي بأني عاهرة رخيصة وساقطة. كان هذا الشعور يعذبني، وتنتابني هذه المشاعر الطهرانية أكثر حينما يصادف أن نسهر معا وأنا والعم حسن في البيت وحدنا. كنتُ أحتقر نفسي، وأحس أن الإنسان كائن منحط وذنبيء وسافل، أتدري لماذا؟

صمت آدم المطرود للحظات، كان يفتش عن جواب ينسجم مع أجواء هذه الاعترافات الهائلة، فقال بنبرة حزينة:

- ربما أدري، أو لا أدري، لكن كيف توصلت أنت إلى ذلك؟
- لم أصدق أن في أعماقي هذه المساحة من المستنقعات الآسنة؟
- في أعماقك أنت؟
- نعم.. أتدري ماذا فعلت؟
- لا
- بعد كل هذا الكم الهائل من الندم والحمى الأخلاقية بدأت أفكر بإغواء العم.
- ماذا؟

- نعم، هذا ما حصل. بدأت أرتدي الملابس المثيرة مساء حينما يكون موجودا، وأطلب منه أن لا يخرج من البيت مساء أو أن

يأتي مبكرا كي نسهر معاً.

انتبه هو لوضعي، وأحسست أن الأمر أعجبه أول الأمر، لكنني كنت أُرصد تحولاته النفسية. كان يتعذب بين رغبته فيّ وعلاقته الأسرية معي. صار يتعد عني ويغيب أكثر عن البيت.

أنا وضعت أسس اللعبة لكنني وجدت نفسي أسيرة هذه اللعبة أيضا. خرج الأمر عن كونه لعبة مجنونة إذ صرت أنتظره بلهفة، وأتمنى بحرقه أن يرجع مبكرا إلى البيت.

كنت أتمادى في الإغواء. أنام شبه عارية. أترك نفسي دونما أغطية عسى أن يجيء. كنت أنتظره ساهرة، وحينما أحس حركة المفتاح في الباب أسرع إلى السرير وألقي بنفسي عليه وكأنني أغط في نوم عميق، بعد أن أكشف عن مساحات من جسدي وأترك الباب مفتوحا. كان يقف عند الباب ثم يتقدم شيئا فشيئا ليغطيني. يقف لبعض الوقت يتأملني ثم يخرج.

تكررت هذه المشاهد مرات عديدة، و صار يتجنبني أكثر، بل و صار يأتي إلى البيت ثملا.

في تلك الفترة عاد زوجي آدم تورك إلى البيت ليقضي إجازته السنوية بيننا، وكان كعادته عاجزا، لكنه هذه المرة كان مختلفا، إذ كان يحمل معه بعض الأفلام الجنسية الإباحية، ولكي يشاهدها اشترى جهازا للعرض وتلفزيونا وضعهما في غرفة النوم. الغريب أنه برغم ضعفه كان يطلب مني ممارسات كتلك التي يشاهدها في تلك الأفلام. حاولت أن أجاريه، لكنني لم أستطع، كنت أفكر في أبيه.

ذات يوم كنت قد أنهيت أحد امتحاناتي النهائية في الجامعة فرجعت مبكرة إلى البيت. دخلت دونما ضجة فسمعت صراخا بينهما. سمعت العم يعنف زوجي على سفره الدائم وتركه وحيدة، وأنه يجب أن يفكر فيّ، فأنا امرأة يمكن أن أخطئ إذا ما تركني بهذا الشكل، لأنني كأني إنسان لي مشاعري وأحاسيسي ورغباتي، وإذا لم يتبته لهذا الأمر فربما

يدفعني لطريق سيندم عليها. سمعت زوجي آدم تورك يدافع عن نفسه وعني ويقول بأنه واثق مني ومن أخلاقي، وإنه كان يراقبني دون أن أعرف وهو متأكد بأنني شريفة ولا يمكن أن أخطئ. فصاح العم به بأن للصبر حدوداً. أخبره زوجي بأنه خلال أيامه التي يقضيها بيننا يمتعني بحيث أرتوي لحين عودته، فسأله العم: لماذا إذن لا تراجع الطبيب ويأخذني أيضاً لأنه مضى فترة طويلة على زواجنا وليس هناك حمل؟. إنه يريد أن يسمع صراخ وضحك وضجيج أحفاده في البيت. طبعاً لم أستطع الدخول فرجعت متسللة إلى الشارع ثم دخلت ثانية مع كثير من الضجيج وكأنني لم أسمع شيئاً، لكنني حينها كنت غاضبة مع نفسي ومن زوجي العاجز الذي ادعى رجولة مفقودة.

بعد أشهر أنهيت دراستي الجامعية. بحثت لفترة طويلة عن وظيفة لكن بدون جدوى. تركت المعلومات الكاملة عني وعن اختصاصي عند دائرة العمل التي وعدت بالبحث عن مكان يحتاج اختصاصي، لذا كنت أقضي معظم وقتي في البيت. أما زوجي آدم تورك فترك عمله كسائق، وأراد أن يفتح مطعماً للمأكولات الشرقية، لكن أباه لم يشأ ذلك، وكان ذلك مثار جدل بينهما، فسافر آدم إلى تركيا للاستجمام، ولم يسألني إن كنت أرغب في الذهاب معه. لقد تركني في دوامتي.

زاد اهتمام العم بي. كان مستاءً من خلافه مع زوجي آدم تورك. أخذ يشرب بشراهة. بينما كنت وحيدة. ولقتل الوقت، وبسبب الضجر المقيت وتأجج الرغبات الجسدية عدتُ للعبة الإغواء التي كفت عنها عندما كان زوجي في البيت، لكن هذه المرة أخذت الأمور مجرى آخر.

في تلك الفترة راودتني فكرة دراسة الهندسة، لاسيما وأن درجاتي في الاختصاصات العلمية عالية جداً، فقدمت طلبي وتم قبولي بعد فترة من الانتظار في قسم الهندسة المدنية.

ذات مرة كنت راجعة من الجامعة في وقت مبكر لإلغاء محاضرة

بشكل مفاجئ، وحينما دخلت البيت خلصة، إذ كنت أتوقع وجود العم في البيت، اكتشفت شيئاً مذهلاً.

لم ينتبه هو لدخولي. سمعت الصراخ والآهات الجنسية المثيرة تأتي من غرفتي. لم أدخل الغرفة وإنما ذهبت مباشرة إلى الحمام وأحدثت ضجيجاً وضغطت ماسورة المياه، فارتبك وخرج من الغرفة، بعد أن أطفأ جهاز التلفزيون، فتقابلت نظراتنا، وكأنه كان يعلم بأنني أعلم بوجوده وأني اشغلت نفسي. إنتبهت لملامحة المتهيجة. سلم علي وخرج قائلاً أنه سيتأخر.

أنا خبيثة جداً. أشعر بالتقرز من تلك المرأة التي كتتها في تلك الفترة، ففي تلك الليلة زينت نفسي ولبست ثوبي الشفاف والمثير جداً يكشف أكثر عن جسدي كله دون أن يستر أي شيء، وتمددت على سريري بانتظاره. وضعت أحد الأفلام الجنسية التي جلبها زوجي في الجهاز، وأخت أشاهده، كنت مهتاجة وكنت انتظره. الغريب أنه تأخر تلك الليلة، لكنني بقيت منتظرة، وحينما عاد كشفت عن نفسي وعن المنطقة السفلى العارية من جسدي، وتمددت بطريقة مغرية بعد أن أخفضت من صوت التلفزيون الذي تركته يعرض الفيلم الجنسي الذي اخترته عن أب يضاجع ابنته حينما يرجع سكرانا فيجدها عارية في السرير فيحترقها وهي مستمرة ومستمتعة في النوم. هذا الفيلم شاهدته ذات يوم وحدي وأثارني جداً.

دخل العم الغرفة. ألقى نظرة على شاشة التلفزيون الذي كان يعرض مشاهد الفيلم الساخنة. جلس على حافة السرير وأخذ يشاهدني. حذق بشبق إلى جسدي العاري. سمعته يفح كالثور. حركت جسدي وكأني نائمة ثم فتحت فحذي، تحركت بعفوية. فجأة انحنى عليّ وأخذ يداعب فحذي. سحب ثوبي للأعلى حتى رقبتني فانكشفت له بكل جسدي.

وضع رأسه على بطني، وبأصابعه بدا يداعبني. كنت متهيجة، وربما انتبه إلى أنني أتناوم ولستُ بنائمة، فهبط يقبلني من الأسفل. لا إراديا

كنت أتحرك متجاوبة رغم أنني ما زلت أغمض عيني وكأني نائمة. فجأة قام عني وعن السرير. نزع عنه بنطاله وسرواله وسحبني إلى حافة السرير وفتح فخذي. كنت مبتلة ورطبة جدا، فأولجه فيّ بعنف وقوة حتى أنني صرخت دون إرادة مني وسال دمي.

لم أشعر منذ فترة طويلة بمثل تلك النشوة. وأخيرا انتهت عاصفته في أعماقي. وكان ماءه غزيرا. لكنه ارتعب حينما وجد دم بكارتي. إذ قام منصرفا وهو يحمل بنطاله وسرواله مرعوبا، وكأنه استوعب ما فعل. أنا أيضا قمت إلى الحمام لأغتسل، وهنا انتبه هو إلى أنني كنت مستيقظة.

في صباح اليوم الثاني وفي وقت مبكرُ طرق الباب الخارجي. لم يخرج هو، فلبست ثوبي وعليه بلوزة طويلة. وعندما فتحت الباب وجدت ساعي البريد الذي أعطاني برقية. لم افهم مضمونها، كانت بالحروف الألمانية، لكن مضمونها بالتركي. ولم أفهما جيدا، لكنني فهمت بأن زوجي آدم تورك حصل له حادث. ذهبت مسرعة إلى غرفة العم، طرقت الباب فقام مرعوبا وخجلا في نفس الوقت، أعطيته البرقية، قرأها. فجأة انهار على السرير كبيت هدم بالديناميت. لم أسمع منه سوى صرخة هائلة:

- آدم تورك

- ما الذي جرى له؟

- مات في حادث

فجأة وجدت نفسي أنهار على الأرض باكية. أخذنا كلانا نبكي. ضممته إلى صدري. كان يبكي كالطفل، وكنت أبكي أيضا بحرقة وألم. كنت أبكي شفقة على زوجي آدم تورك وعلى نفسي، أبكي على انحلالتي وسقوطي، أبكي على آدم الإنسان البريء والضحية. كنت أبكي وأصرخ بحرقة وصدق كأني زوجة تفقد زوجها الحبيب. تذكرت وجه أمي كيف كانت تندب أبي. كان العم برغم مصيبتة وبكائه ينظر إلي مستغربا كل

هذا الحب الذي أكنه لزوجي آدم تورك.

لم يكن أماننا سوى السفر إلى اسطنبول في تركيا. ذهبنا إلى المستشفى، وأخذنا الجثة ودفناها في إحدى المقابر. هناك عرفنا أن الحادث كان عابرا ومن غير قصد. بقينا لأكثر من أربعين يوما، بعدها عدنا إلى ألمانيا، ولم يكن أمام كل منا سوى الآخر.

بعد أيام من عودتنا إلى ألمانيا، وفي ليلة ليلاء طلب مني توضيح الأمر إذ سألتني: هل كان ذلك دم البكارة حينما كان معي؟ فأجبت بـنعم، فسأل عن آدم تورك وإدعاءاته بالفحولة؟ ودم البكارة صباح اليوم الثاني من الزفاف؟ والأفلام الجنسية التي كان يحملها معه كل مرة عندما كان يعود في إجازة؟ ولم يكن أمامي إلا أن أعترف له بكل شيء.

حينها غرق العم في دوامة صمت. كان مصدوما مما سمع. فجأة أخذ يضحك بهستيريا، صار كالمجنون، ثم قام وفي عينيه نظرات غريبة. أخذني من يدي، بل يمكن القول جرجرني خلفه إلى السرير، عراني من ثيابي، ثم دفعني إلى السرير، بل سحبني إلى حافة السرير، فتح فخذي وأولججه في بقوة، بهستيريا. وطلب مني أن أفلد الأفلام التي كان يشاهدها، وكان يكرر كالمجنون: أنت قحبتني، أنت قحبتني.. ويسألني: من أنت؟ ثم يجبرني على الجواب: بأني قحبتة، فكان يسألني وهو يدفعه في بهستيريا: من أنت؟ فكنت أجيب: أنا قحبتك؟

الغريب أنني كنت أشاركه أول الأمر بخوف وفيما بعد بمتعة، وفي أول الأمر لم يعجبني جوابي له بأني قحبتة، لكنني صرت أستمتع فيها في ما بعد وأقولها بصدق وهياج؟

كنت أحس في الوقت نفسه وكأنني أرى واحدة أخرى تقوم بكل هذه الحركات، حواء كوناي أخرى تقوم بكل هذه الأشياء، وكان هو ليس هو، إذ صار مجنونا جنونا حقيقيا. لم يكن هو العم آدم كوناي أبدا. وكان هذا الأمر يتكرر بيننا يوميا تقريبا. كان يضاجعني في كل الأوقات، وفي كل زوايا البيت. في المطبخ، في غرفة النوم، في غرفة الاستقبال. وكنت أنا

مستمتعة بذلك رغم عنفه وتوجيه الشتائم والكلام البذيء لي، وإجباري بالاعتراف بأني قبحته وأني أموت فيه وأعشقه.

بعد أسابيع واجهتُ كارثة حقيقية هي اكتشافني أنني حامل. لم أستطع تحمل الفكرة، ولم أشأ الاحتفاظ بالطفل، فذهبت إلى إحدى العيادات التي طلبت مني موافقة من مكتب تابع لإحدى الكنائس لأن الإجهاض ممنوع في ألمانيا. ذهبت إلى مكتب يعود لإحدى الكنائس وشرحت وضعي فوافقوا بعد أن عجزوا عن إقناعي بالاحتفاظ بالجنين. أجريت العملية، لكنني كنت في وضع سيء، وتدهورت صحتي، لم أكن أتوقع أن الأمر سينتهي بكارثة أخرى.

ذات فجر، سمعت صوت طليقة جاءت من غرفة العم. فزعت، وحينما دخلت عليه كان ميتا، لقد انتحرت.

اتصلت بالشرطة فجاءوا مسرعين. أجري تحقيق استمر لأيام، لكن الحالة كانت واضحة بالنسبة لهم، إذ فسروا الحادث بأسباب نفسية. إنتحرت لأنه لم يتحمل فقدان ابنه الوحيد.

لم تستطع المهندسة حواء كوناى أن تواصل اعترافها إذ قامت فجأة وخرجت من الغرفة. قام المهندس آدم المطرود خلفها، لكنها خرجت دون أن تقول أي شيء. لم يشأ المهندس أن يلحق بها إحتراما لمشاعرها وكم المعاناة الهائل الذي كان يتجسد في نبرة صوتها وملامحها حينما كانت تعترف له.

بقِي آدم المطرود في غرفته مذهولا من هول الذي سمعه. إنها رحلة عبر الجحيم الأرضي، جحيم النفس التائهة. لا يعرف كيف ينظر إلى حواء كوناى، هل هي داعرة فاسقة ساقطة أم أنها قديسة تتطهر بنار الجحيم؟

لم تنتبه حواء المؤمن للدموع التي ترقرقت في عينيها. أحست أنها تعرف هذه المهندسة حواء كوناى التركية جيدا. صحيح هي نفسها غير متعلمة مثل تلك مهندسة، إلا أنها تعرف هذه المشاعر والمعاناة، وتعرف

معاناة النفس حينما تصل إلى الدرك الأسفل من الفجور أيضا، تعرف
جحيم الشهوة وغواية النفس والجسد.

انتبهت حواء المؤمن بأن زوجها الدكتور آدم التائه لا يشك فيها
وحسب بل إنه متيقن بما جرى بين والده وبينها، لكنه ربما يعتقد أنها
هي التي أغوت أباه، لأن المهندسة حواء كوناي هي التي أغوت العم،
وقد اعترفت بذلك، وهو هنا وضع المهندسة بدلا عنها.

سألت حواء المؤمن نفسها: تُرى من أين أتى زوجها الدكتور آدم
التائه بمسألة الممارسة من الثقب الآخر، من الخلف؟ هل يعرف يا تُرى
ما جرى بينها وبين حبيبها الأول؟ من أين لديه كل هذه المعلومات؟.

سألت حواء المؤمن نفسها أيضا: لماذا يغير زوجها الدكتور آدم
الحقائق؟ لماذا لا يكتب عن الأشياء كما هي؟ لماذا لم يكتب عن عقوقه
بحق والده وكيف القاه في دار للعجزة؟ ثم هل هو يشك في علاقة والده
بأمه؟ وما قصة أم آدم تورك وقريبها، وشك العم آدم كوناي في كون آدم
تورك ليس ابنه ومن صلبه؟

تُرى ما علاقة ذلك بالدكتور آدم التائه، هي لم تسمع بمثل هذه الأمور
في بيتهم، لكنها تعرف أن علاقة الوالدة الطيبة كانت سيئة جدا بزوجها
وكان هو قاسيا جدا معها، وكأنها ليست زوجته؟

تُرى هل علاقة الدكتور آدم التائه بأبيه هي نفسها علاقة العم آدم
كوناي بابنه؟ ثم لماذا يكتب بهذا الشكل المفضوح؟ لماذا يصرف وقته
وأعصابه لكتابة مثل هذه الأشياء المفضوحة التي يخجل الإنسان أن
يواجه نفسه معها؟

كان الحزن قد تغلغل بعمق إلى روح حواء المؤمن، وأحست أن
هناك أشياء مشوشة وغير مفهومة؟ فكرت أن زوجها يكتب عن نفسه
لكنه يكذب كثيرا، فهو لا يسمي الأشياء بأسمائها؟

عليها أن تقرأ بحذر وتفتش عن نفسها في كل سطر. ألقت نظرة إلى
الساعة المعلقة على الجدار، كانت قد أنفقت أكثر من ساعة ونصف من

الوقت في القراءة.

قامت من مكانها واتجهت إلى المطبخ لتصب لنفسها كوبا من القهوة،
ثم عادت لتواصل القراءة.

انتبه آدم البغدادي إلى ملاحظات الدكتور آدم التائه على
نصه الروائي. أعجبه محاولاته لاقتناص المسارات التي تقود
إلى ينبوع الإبداع، كما توقف عند اعترافات المهندسة حواء
كوناي مفتشا عن أصول الشخصية الروائية ومصادرها الحقيقية
في الحياة.

هل ترى لملم الدكتور آدم التائه تفاصيل هذه الشخصية
من تفاصيل شخصية لامرأتين أو ثلاث من النساء التركيات أو
العربيات اللاني تعرف إليهن ليركب منها شخصية المهندسة
حواء كوناي. فجأة ابتسم آدم البغدادي مع نفسه، وسأل: لماذا
يبحث في شخصية الدكتور آدم التائه ولا يبحث في حياته هو،
أوليس هو الذي صنع شخصية الدكتور آدم التائه؟.

(9)

أفاق المهندس آدم المطرود فوجد نفسه في المستشفى الحكومي، في غرفة شبه فارغة إلا من السرير الذي يرقد عليه، وقربه طاولة وضع عليها بعض الأدوية. انتبه إلى أن إحدى قدميه مقيدة بالسرير، وقرب الباب يقف أحد رجال الشرطة، وكانت يده مربوطة بإبرة مرتبطة بقنينة المغذي، لذا لم يستطع أن يحرك جسمه ولا أن يجلس بشكل طبيعي أو أن يحرك يده بحرية.

دخل المحقق آدم التكريتي مع أحد الأطباء وخلفهم وقف الشرطي عند الباب. بادر الطبيب إلى قياس ضغطه ونبض قلبه، ثم خاطب المحقق قائلاً:

- يمكنه أن يخرج الآن. كان لديه انخفاض حاد في ضغط الدم والسكر. الآن كل شيء طبيعي. يمكنه أن يذهب معكم. سأذهب لأعد لكم أوراق الخروج.

قال الطبيب ذلك وغادر الغرفة. بقي المحقق آدم التكريتي ينظر إليه نظرات متفحصة ثم قال بسخرية:

- هل أنت ممثل أم مهندس؟
لم يجب المهندس آدم المطرود، بينما استمر المحقق في تعليقه الساخر:

- بالأمس أغمي عليك أثناء التحقيق، وحين أردنا مساءً أن نواصل التحقيق معك، مثلت دور الذي على شفى الموت، حتى نقلناك للمستشفى لتتعم بالراحة والعناية.

لم ينتظر أية إجابة وإنما التفت إلى الشرطي وقال له:

– ساعده على الخروج. أمانا عمل كثير، وقضايا كثيرة، لنته من هذه القصة الموجعة للرأس.

قال ذلك ثم خرج. بعد لحظات دخل ممرض وفك الإبرة عن معصم المريض، كما قام الشرطي بفك قيده الذي يربط قدمه بالسرير، وبعدهما حرر قدمه وضع القيد في يده، وخرجا بينما بقي الممرض في الغرفة. في السيارة التابعة لجهاز الشرطة كان المهندس آدم المطرود جالسا وقبالته كان الشرطي، وكانت السيارة تجتاز شوارع بغداد المزدهمة.

في شارع الأميرات بمنطقة المنصور ثمة مبنى من ثلاثة طوابق يحمل لافتة كبيرة تغطي واجهة الطابق الثاني تحمل اسم (شركة الفردوس للتجارة العامة). دخل المهندس آدم المطرود المبنى واقترب من المصعد ليقرأ أسم الشركة والمكاتب الأخرى على لوح مجاور، فعرف أن الشركة تحجز الطابق الثاني برمته، بينما كان الطابق الأول يحمل أسماء طبيين أحدهما لأمراض القلب وآخر لأمراض وجراحة العيون، ولم يكن هناك ما يشير لأي جهة تحتل الطابق الثالث.

حينما خرج المهندس آدم المطرود من المصعد وجد نفسه في صالة استقبال الشركة مباشرة، وبالمقابل كانت طاولة كبيرة تجلس خلفها فتاة جميلة الملامح أنيقة الملبس، وكان من الواضح أنها تقوم بمهمة مديرة المكتب أو السكرتيرة.

على جانب من القاعة طاولة أخرى، لم يكن هناك من يجلس خلفها، وعلى الجانب الآخر ثمة حواجز تشير إلى أن خلفها تبدأ مكاتب الإدارة والمدير المسؤول.

على جدران القاعة تتوزع لوحات فنية بعضها أصلية وثمانية وبعضها إعادة رسم وتقليد لكنه متقن أيضا. كانت هذه اللوحات تجسد ذاثة واهتمام نبيل الولهان الذي تحدث عنه حينما تعرف عليه وزوجته حواء على ظهر المركب البحري في تركيا، فموضوعات اللوحات كانت شرقية،

بيع جواري في سوق النخاسة، اغتصاب نساء شقيقات، حمام نساء، منظر طبيعي من الشرق.

انتبهت السكرتيرة إليه لكنها لاحظته يتأمل اللوحات باستمتاع واهتمام، ولما أحست أنه استعرضها جميعها وبشكل سريع سألته:

– عفوا أستاذ، هل من خدمة أستطيع تقديمها؟

ابتسم المهندس آدم المطرود لها بثقة وقال:

– أنا المهندس آدم المطرود. جئت لمقابلة الأستاذ آدم الولهان.

– أهلا وسهلا أستاذ آدم.. هل لديك موعد معه الأستاذ آدم؟

– لا، إنني جئت بلا موعد مسبق. إذا كان مشغولا فسأمر مرة أخرى

– لا. لحظة من فضلك، سأسأله إذا كان لديه مجال للقاءك، تفضل

بالجلوس وخذ راحتك.

أشارت إلى الكرسي الذي أمام طاولتها بأن يجلس، وقامت هي بدورها إلى إحدى الغرف التي تقع خلف الحاجز. جلس المهندس آدم على الكرسي والتفت يتأمل إحدى اللوحات التي عرف أنها تقليد لإحدى لوحات الرسام الروسي سوريكوف، ولم تمض إلا لحظات حتى سمع وقع أقدام وجلبة، فالتفت ليجد آدم الولهان يسبق السكرتيرة بالترحيب الحار.

– أهلا وسهلا أستاذ آدم، يا لها من مفاجأة، متى وصلت؟

تصافحا بحرارة وأخذ آدم الولهان من يده واتجه إلى المكتب

وهما يتحدثان:

– أنا هنا منذ أكثر من أسبوع، لكنني تصورت أنكما ربما لم ترجعا

بعد..

– فعلا. نحن رجعنا أمس

– كيف حال السيدة حواء؟

– إنها ممتازة دائما. تتذكرك على الدوام، وكانت تستعجل العودة

إلى بغداد كي تحضر كتاباتها. إسمع، أنا لدي حديث مطول مع

بعض الوكلاء المهمين. لم انته بعد من اجتماعي معهم. لكنني قطعت الاجتماع حينما قالت السكرتيرة إنك هنا. أفضل شيء أن تأتي إلينا هذا المساء. أنا أدعوك إلى العشاء. سيكون هناك ضيف آخر. حواء ستفرح فرحا عظيما بوجودك. ما رأيك؟
لم يترك آدم الولهان أي خيار أمام آدم المطرود إذ كتب له العنوان على ورقة ملاحظات صغيرة. كانت سعادة المهندس أكبر من أن توصف. إنه سيرى حواء مساءً، فقال بارتباك:

- رائع. سأكون عندكم هذا المساء، لكن كم الساعة؟
- في الثامنة..

تصافحا ثانية وخرج آدم المطرود من عنده، وحينما وصل إلى مقربة من السكرتيرة انفتح باب المصعد وخرجت منه امرأة جميلة ومثيرة لكنها ليست من طراز السيدة حواء الصايغ وإنما من طراز تلك النساء اللاتي يتحدث عنهن دستوفسكي، النساء الجميلات مع شيء من العفونة.

لاحظ أن السكرتيرة ارتبكت لدخول السيدة بحضوره، كما انتبه إلى أنها قامت باحترام للسيدة، وقالت لها بارتباك وكأنها تريد أن تموه على شيء:

- أهلا وسهلا مدام ايغا، الأستاذ بانتظارك.

لم تنظر السيدة ايغا إلى آدم المطرود وإنما شقت طريقها إلى المكتب. أدرك هو أن آدم الولهان لم يكن واضحا معه، فهو لم يذكر بأنه ينتظر أحدا، وإنما قال له إن لديه اجتماعاً. لم يأبه للأمر كثيرا من فرط سعادته بلقائه القريب مع حواء.

لم تفهم حواء المؤمن لماذا ترك زوجها قصة المهندسة التركية حواء كوناي حتى النهاية. كانت متلهفة لسماعها، وما جرى معها بعد أن تركت الغرفة؟ وكيف عاشت بعد موت زوجها وانتحار العم؟ وكيف صارت

مهندسة، وكيف انتهت قصتها؟

لماذا يترك زوجها النهايات مفتوحة على المجهول؟
أرادت أن تعرف نهاية هذه القصص المتداخلة، والتي أبطالها يحملون
الاسم نفسه، لكن دائرة حياتهم أكبر وأوسع من حياتهما هي وزوجها،
فقلبت الصفحات لتصل إلى النهاية الموعودة.

آدم البغدادي: أعتقد أن ملاحظة حواء المؤمن حول عدم استكمال
قصة حواء كوناي صحيحة لحد ما، لكن ربما يفكر الدكتور آدم التائه
بالعودة لها في نص آخر، أو في سياق الرواية مرة أخرى. عموماً،
النص فاضح جداً، ومن المؤكد أنه سيثير غضب البعض، وربما سيعجب
آخرين.

(10)

قبل أن يصل المهندس آدم المطرود إلى مكتبه، انتبه إلى حركة غير طبيعية في الشارع، سيارات الشرطة تتوزع بكثافة في كل زاوية من بغداد، في الساحات والمنعطفات وتحت الجسور وعند مداخلها من الجانبين، ما الذي يجري؟

صحيح أنه ينتمي لحزب السلطة منذ أن أراد التوجه للدراسة في تركيا، لكنه يعد نفسه غير سياسي، ومحايداً، ومنعزلاً، وليست لديه أية رغبة في أن يعارض السلطة، بل ولم يعارضها قط، ويؤدي ما يراود منه إذا اقتضى الأمر.

يذكر كيف انتمى للحزب الحاكم، حينها أرادت عائلته، وبالتحديد أمه التي كانت جدتها من تركيا وتحن إليهم دائماً، إرساله للدراسة إلى تركيا، وكان عليه أن يأتي بموافقة من التنظيم الطلابي في الثانوية التي درس فيها، وحينما ذهب إليهم طالبا تزويده بكتاب التأييد، قالوا له إنهم يعرفون أنه إنسان مسالم وليست لديه أية ميول أو أهواء معادية للحزب والثورة لكنه ليس عضواً، وعليه الانتماء فقبل بلا تردد.

حينما سافر إلى اسطنبول لدراسة الهندسة كان يراجع السفارة العراقية هناك بين فترة وأخرى مشاركا عاديا في احتفالاتهم ومناسباتهم دونما أي نشاط سياسي واضح، فهو إنسان بعيد كل البعد عن أي اهتمام سياسي، لكن هذا لا يعني أنه بلا أفكار ورؤى فكرية بل هو يدرك ما يفور في أعماق مجتمعه، لكنه يعرف أنه جبان، ولا يخاف من أن يقر مع نفسه بهذه الحقيقة، إنه يعيش الجسد ومتعه ويخاف من أي وجع جسدي وأي ألم نفسي وتهديد وجودي لكيانه ووجوده.

في تركيا تعمد أن لا يواظب على الدراسة من أجل تمديدها لأطول فترة ممكنة وذلك بالاتفاق مع أمه لأن البلاد كانت في حرب لعينة مع جارتها إيران، ولكنه أيضا لا يستطيع أن يمدها إلى أجل غير مسمى فعاد في سنة الحرب الأخيرة، فالتحق بمديرية الطرق والجسور، وكان معه صديقه المهندس آدم الصاحب أيضا، الذي كان قد أنهى دراسته قبله بسنة تقريبا. كانت فترة عصيبة، لكنها أيضا كانت فترة عملية ممتازة بسبب الظرف الاستثنائي والنزول إلى ساحة العمل التطبيقي الميداني مباشرة. وحينما اندلعت الانتفاضة الشعبية ضد النظام في جميع محافظات البلاد أحس بشيء من الراحة وكأنه ينتظر الخلاص، لكنه كان خائفا أيضا لذا لم يخرج من مكتبه لأكثر من أسبوعين. كانت حواء اللهيبى تأتيه بكل ما يحتاجه، رغم أنها أيضا لم تنتظم في دوامها، فكانت تتغيب عن الدوام بشكل مستمر، وحينما تأتيه بالطعام وبيع الحاجيات، كانت تأتيه بالأخبار أيضا عن الإعدامات التي تقوم بها قوات الحرس الجمهوري وتمارسها ضد المنتفضين.

يذكر أن أحد المقربين من السلطة والذي كان يأتيه بالمقاولات والصفقات التي يجريها مع أزام النظام، واسمه آدم الحلبي، جاء في أحد تلك الأيام، وكان مرعوبا، ولم يكن أحد في المكتب غيره، فأخذ يشكو إليه من الوضع والنظام، ومن الشخصيات التي يرتبط معها والتي تأخذ منه نسبة مئوية تصل إلى النصف فقط لموافقتها على منحه المقاولات، التي يتفق معه ومع مكاتب أخرى لانجازها، وكيف أنه ينتظر ساعة الخلاص، كي يستطيعوا التنفس والعمل بحرية.

كان آدم الحلبي هذا يومئ له بأن أيام النظام صارت معدودة، لكنه حينما شعر بأن النظام أخذ الضوء الأخضر من القوات الأميركية لضرب المنتفضين، جاء ثانية لكن هذه المرة بدأ يدافع عن النظام وعن عمالة المنتفضين لإيران.

كانت تلك الأيام بالنسبة له خصبة من الناحية الإبداعية، فقد بدأ

كتابة روايته الجديدة عن صديقه الشاعر آدم العنديلبي الذي وجدوه ميتا في بيته وسط أوراقه على أثر سكتة قلبية، عرف أنها كانت نتيجة رعبه من الاستدعاء لدى جهاز الأمن. أراد أن يكتب عن مجتمع هوت قيمه إلى الحضيض وانهارت منظومته الأخلاقية حيث تقوضت فيه كرامات البشر نساء ورجالا، وشاعت الروح الانتهازية والوصولية الشيطانية. أحس المهندس آدم المطرود وكأنه ربان عجوز في سفينة مثقوبة تواجه العاصفة. وبرغم مرور حوالي ثلاث سنوات على تلك الانتفاضة الشعبية المجهضة التي ملأت روحه بإحباط شديد في أي تغيير يمكن أن يحدث في البلاد، إلا أنه كان وما زال مستعدا لأن ينافق السلطة من أجل أن يبقى دائرته الخاصة واهتماماته بعيدة عن أعينها ورجالها.

كانت معلومات الأجهزة الأمنية والحزبية عنه مطمئنة، لذا لم يجد مشكلة في حركته اليومية ولا حينما يود السفر فالسلطة عنه راضية في كل الأحوال، وهذه حالة صديقه المهندس آدم صاحب أيضا، ولذا ربطت بينهما علاقة الصداقة منذ أن كانا في السنة الأولى لتعلم اللغة التركية في اسطنبول.

بيد أنه ارتبك الآن من رؤية كل هذه السيارات التابعة لأجهزة السلطة. لقد تركت في نفسه قلقا لم يتعود عليه سابقا، وحينما دخل إلى مكتبه لم يجد سكرتيرته حواء اللهيبي في مكانها، وسمع حركة في غرفة مكتبه فتوجه بحركة خفيفة غير مسموعة وأطل برأسه فرأى السكرتيرة منحنية تفتش في أحد الدوايب التي يضم فيها ملفاته المهمة، ومشاريعه، وكتاباته الأدبية والفكرية ومشروع روايته الجديدة. لم تنتبه إليه فقد أعطت الباب ظهرها لأنها لم تتوقع أن يعود، لكنه سأل نفسه عن أي شيء تفتش؟ ولماذا؟ وكيف تتجرأ أن تفعل ذلك؟ ولحساب من؟

رجع إلى الورا حتى وصل الباب الخارجي ثم فتحه وأغلقه وكأنه دخل فجأة فخرجت من غرفته مرتبكة جدا، وهي ترتب ثيابها وكأنها كانت في غرفة الحمام التي تقع في الزاوية المواجهة لغرفته وللصالة.

حين دخل المهندس آدم المطرود مكتبه تخلى عن قلقه الذي تولد من رؤية الحضور الطاعني للسلطة في شوارع بغداد، وبرغم ما واجهه من أسئلة مع نفسه حينما رأى سكرتيرته حواء اللهيبي تفتش في مكتبه، فلم يطرأ في ذهنه أي هاجس سياسي، وإنما ظل الأمر غامضاً بالنسبة له، لذا لم يشغل نفسه فيه الآن، إذ ود أن يحضّر نفسه للقاء المساء.

لقد كان حضور حواء الصايغ طاغياً جداً في مخيلته ومزاجه وتفكيره، وبدأ يضع الخطط للقاء المساء، كيف سيقابلها؟ وكيف سيتصرف ليعبر عن شوقه وحبها بوضوح دون أن يثير انتباه زوجها آدم الولهان؟ زوجها الذي يحتفظ كشيء ثمين مثل لوحاته الثمينة، لأنه وكما يظن أنه يخونها، فالسيدة ايضاً كانت تبدو وكأنها عشيقته، أو امرأة قريبة جداً. لا ضير من كل هذا، بل شعر بسرور خفي من هذا الأمر. المهم هو أنه سيرأها ويريد أن يكون هذا اللقاء هو الباب للقاءات أخرى.

فجأة، ضغط الزر طالبا حواء اللهيبي التي جاءته مرتبكة أيضاً ظناً منها أنه انتبه لبعض التفاصيل في مكتبه، لكنه قال لها:

– أريد منك، وحسب ذوقك ان تشتري لي باقة زهور متميزة، لأنني مدعو عند عائلة أزورهم لأول مرة.

– ولماذا أنا التي يجب أن أختار باقة الزهور؟
– لأنني أثق بذوقك؟

أحست حواء اللهيبي بالاسترخاء النفسي إلا أنه لم يتحدث عن رؤيته لها وهي تفتش مكتبه لأنها كانت متأكدة بأنه انتبه إليها. لم تقل هي شيئاً، وإنما هرعت مسرعة لتنجز هذا الأمر سعيدة فهذا يعني أنه لم ينتبه إلى ما جرى.

انتبه المهندس آدم المطرود لثوب السكرتيرة حواء اللهيبي الأسود الذي يبرز مفاتن جسدها المتناسق المثير. إنه نفس طراز الثوب الذي كانت المهندسة حواء كوناى تلبسه في مطعم ألف ليلة وليلة بتركيا. ذراعان مكشوفتان وساقان مكشوفتان لما فوق الركبة بقليل وخصر

مضغوط وصدر ناهد وبارز وطري، وجه متناسق وشفتان ممتلئتان. وجه يكشف عن رغبات دفينه، وجه لا يشي بالابتدال ولا يشبه وجوه العاهرات، على العكس وجه أنيق يذكر بوجوه الارستقراطيات في لوحات القرن السابع عشر والثامن عشر.

كانت شخصية حواء اللهيبي غامضة، فمن خلال تكوينها الجسدي وملامحها المعبرة أحس أنها ذات شخصية قوية، لكنها في الواقع هشة وضعيفة وبلا رأي أو شخصية، بشكل محير. كانت حواء اللهيبي متزوجة من موظف يعمل محاسبا في إحدى الوزارات.

حين رآها صديقه المهندس آدم الصاحب، عندما زاره أول مرة ولم يكن قد مر على التحاقها سوى أيام، علق قائلا بأنها أنثى حقيقية. حينها أخبره هو بأنه لا يتعامل معها إلا باعتبارها موظفة لا أكثر.

كانت حواء اللهيبي برغم ملابسها العصرية وزينتها الصارخة محافظة جدا في علاقاتها، وحذرة، ومتردة في أن تفتح ولو قليلا مع الغرباء، وكانت بالنسبة له أطول امرأة استغرق معها من الوقت كي يقنعها بأن تقييم علاقة معه.

كانت حواء اللهيبي بطبيعتها خجولة ورسمية في العلاقة معه، لذا اتبع معها سياسته أيضا، فلم يبد لها بأنها تعجبه أو أنه يريد لها، وبعد أسبوعين لاحظ أنها تحاول أن تكتشف عالمه، هل لديه امرأة أخرى، ما هي اهتماماته النسائية؟ لاسيما وأنها سمعت بأنه كاتب روائي ولديه رواية فضائحية منعت من النشر في العراق وأحدثت ضجة خارجه.

فضولها كاد يقتلها، إلا أنها لم تبد أي إشارة توحى بأنها تريد أن تعرف عنه كل شيء، حتى وأن اعترفت مع نفسها بأنه أنيق ووسيم ومتعطر دائما بعبور طيبة ومثيرة، وأنه طيب في التعامل معها ويحترمها ولا يسيء الأدب معها أبدا، حتى أنه كي لا يضطر لتوجيه الأوامر إليها لتقديم بعض الخدمات، لاسيما عند يأتيه الضيوف، فقد عين رجلا ريفيا يدعى أبو قابيل، هو في الوقت نفسه حارس البناية، ليقوم بخدمة المكتب

وإعداد القهوة، إلا أنها طلبت من أبي قابيل أن يخدم الضيوف ويهتم بنظافة المكتب فقط، أما المهندس آدم المطرود فخدمته من اختصاصها. استمر الحال بينهما هكذا إلى أن جاء ذلك اليوم العاصف الذي كان مفتاحا لتقاربهما.

دخل المهندس آدم المطرود إلى المكتب وألقى التحية عليها. أجابته بنبرة هادئة مليئة بالحزن، ودون أن يناديها قامت بتحضير القهوة وحملتها إليه ثم خرجت بهدوء. بعد قليل دعاها إلى مكتبه فجاءت دونما رغبة واضحة، إذ كانت ساهمة الوجه والنظرات. دخلت إليه وظلت واقف أمامه منتظرة تعليماته. نظر إليها بانتباه نظرات متسائلة وقال:

- استريحي

- لا شكرا لدي عمل كثير، تفضل أستاذ

- قلت استريحي

- ترددت قليلا ثم جلست، نظر إليها بتعاطف وسأل:

- ما بك؟ أراك حزينة لأول مرة منذ أن بدأت العمل في المكتب،

هل هناك مشكلة؟

- لا..

- كيف لا ووجهك الجميل لا يقول إلا أنك حزينة وحزينة جدا..

فكرت مع نفسها، هذه أول مرة تسمع منه كلمة يعبر فيها عن رأيه

بجمالها، لقد اعترف الآن بأنها جميلة، فاسترخت نفسيا قليلا وقالت:

- لا شيء، مشاكل عائلية اعتيادية

- أنا مستعد لأي مساعدة مالية لا تتردي إذا ما كنت في ضائقة

مادية..

- شكرا جزيلآ أستاذ آدم، لن أنسى موقفك هذا أبدا، لكن صدقني

المشكلة ليست مادية

- ماذا إذن..؟ إذا لم يكن سرا

- بموقفك هذا الذي فاجئني، أحس أنك صرت قريبا مني، ويمكنني

أن أحدثك..

- تفضلي.. لا تتردي

صمتت لحظة ثم نظرت إليه وكأنها تريد أن ترى ردة فعله، وقالت
بهدوء حزين:

- زوجي يخونني

أبدى المهندس آدم المطرود تعبير الاستنكار والذهول أمامها.
وللحظات أحس بأنها تتجه نحوه بل وصارت قريبة جدا منه، وليس
أمامها الآن غيره، وعليه أن يتقن استخدام هذه اللحظة وإلا فأنها ستفلت
منه. قام من مكانه غاضبا واستدار ليجلس على الكرسي المقابل لها:
- يخونك.. هل هو مجنون؟ رجل لديه امرأة، يمكن القول إنها
أجمل امرأة في العالم ويخونها. هذا رجل مجنون، لكن هل
أنت متأكدة؟

كلماته عنها بأنها أجمل امرأة في العالم كانت عزاءً خفيا وحقيقيا
لها، فقد منح كبرياءها الأنثوية الجريحة شيئا من الثقة والمواساة. أحست
للحظات أنه صار قريبا فعلا منها. فقالت:

- نعم متأكدة، فأحدى صديقاتي المقربات، لديها صديقة تعمل معه،
أكدت لي أن لديه علاقة مع موظفة متزوجة تعمل معه، والكل
هناك يعرفون ذلك، وحينما واجهته أنكر ذلك طبعاً، لكنني متأكدة.
لم يشأ آدم المطرود أن يكشف عن أطماعه الجنسية فيها فأراد أن
يظهر نفسه بمظهر الرجل المحايد فقال لها:

- ربما أنت مخطئة؟ ربما الرجل بريء حقا؟
أغاظها ما قاله في الدفاع عنه، لأنها تريد أن تدينه، لتجد التبرير
للاقتراب منه، فقالت بعصبية:

- أنا متأكدة بأنه يخونني.. أنا متأكدة
وترقرقت الدموع في عينيها. صمت آدم المطرود للحظات، وفجأة
أخذ كفيها بين كفيه بتعاطف، ولم تفسر هي هذه الحركة منه تفسيرا آخر،

فاجأها نعم، لكنها ارتاحت له فأسلمت كفيها دونما اعتراض، فقال لها:
- لا أدري ما أقول، أنا متعاطف معك جدا.. لكن دعيني أسألك
وأجيبني بصراحة..

نظرت إليه دون أن تسحب كفيها من كفيه وقالت:
- اسأل

- ربما أنت لا تقومين بواجبك كما يجب، أقصد ربما بسبب عملك
فأنت لا تطبخين أو يأتي الأشياء غير جاهزة، وهذا كثيرا ما
يزعج الزوج..

- أبدا.. أبدا.. فأنا حينما أرجع إلى البيت أجهز كل شيء، ثم أن
لدينا امرأة تطبخ لنا وتنظف البيت وتغسل الملابس، وأنا دائما
أصل قبله، لذا فحينما يأتي يكون كل شيء جاهزاً..
- غريب..

- هذا هو الذي يقتلني في كل هذه القصة، فلو أنني كنت مقصرة في
خدمته فربما أجد له بعض العذر في ذلك.. لكنني مثل الخادمة
بالنسبة له..

نظر إليها بتساؤل وهو يداعب كفيها بتعاطف وقال:

- لدي سؤال محرج بعض الشيء، لكن له علاقة بما نحن فيه..
- تفضل اسأل..

- علاقتكما.. أقصد علاقتكما الحميمة، أقصد.. أقصد علاقة الرجل
بالمرأة.. علاقتك معه في السرير.. كيف هي.. هل هو مرتاح
معك..؟

شعرت بالخجل من سؤاله، وأحست أنه جريء فعلا، فقد دخل إلى
صلب الموضوع، فقالت باستحياء، وهي تسحب كفيها بهدوء:

- اعتقد أنها طبيعية.. لم أقصر معه في شيء. إنني أمنحه كل شيء
حتى إذا ما كنت غير راغبة في ذلك، أو أريد أن أنام..

- غريب.. أحيانا يتوجه الرجال إلى نساء غير زوجاتهم إذا كانوا

غير مرتاحين معهن من هذه الناحية، فقد تكون المرأة ممتازة كربة بيت لكنها لا تستطيع أن تمتعه بشكل يرضيه في السرير.... صمت المهندس آدم المطرود للحظات وكأنه لاعب شطرنج ينتظر حركته الأخيرة في الهجوم، وقرر الاقتحام والبدء بالنقطة التي ربما تحقق له الفوز أو الخسارة.. إنها مغامرة.. فقال لها وهو ينظر بعينها بإصراره وتركيزه بحيث عرفت أنه يعربها من الداخل ويدخل معها إلى المناطق المحرمة:

- سؤالي الأخير لفهم ما يجري.. فأنت كما تقولين ربة بيت ممتازة، وأيضا كريمة معه في السرير والمعاشرة، لكن السؤال، واعذريني من صراحتي، كيف أنت معه في العلاقة، أقصد في السرير، هل أنت باردة أم ساخنة؟
- لا أفهم ماذا تقصد.. فأنا طبيعية..
أحس بخجلها وأنها تتهرب وهذا يعني أن نقلته كانت موفقة، وعليه أن يقود اللعبة للأخير:

- ماذا يعني طبيعية؟
- يعني، هل تمنحني جسدك بحرارة أم تتركينه يفعل ما يشاء وحده؟
هل تتجاوبين معه أم لا؟
أحست أنها خسرت وأنها لا تستطيع المقاومة أمام هجومه الساحق، فقالت باستسلام:

- لا أعرف أن كنتُ حارة أم باردة، فأنا لا أعرف كيف تتصرف النساء الأخريات. أحيانا أتجاوب معه، وأحيانا أتركه يأخذ ما يريد بصمت ولا أعارضه في شيء.
- وأنت هل تتمتعين معه في هذه العلاقة..
- أحيانا
- أحيانا؟
- نعم.. ليس دائما..

- سؤالي الأخير لكي أستطيع أن أفهم..
- لكن السؤال السابق كان هو سؤالك الأخير كما قلت؟ أسئلتك
مخرجة
- نعم.. لكن جوابك لم يكن شافيا فأردت طرح السؤال الأخير،
هل أنت حسية؟
- ماذا تقصد؟
- أقصد.. أقصد.. هل أنت امرأة شهوانية؟
- لا أعرف.. ربما نعم.. وربما لا
- أهذا لغز؟ كيف سنعرف إن كنت كذلك أم لا إذا أنت نفسك لا
تعرفين؟
- لا أعرف.. وهل هذا مهم؟
- طبعاً مهم.. ربما بسبب ذلك اتجه إلى واحدة أخرى..
- لكن تلك المرأة ليست أجمل مني
- المسألة ليست لها علاقة بالجمال.. وإنما بالراحة النفسية والجنسية
بين الزوجين..
- أحست حواء اللهيبي بالانكسار والضعف وشبه الانهيار، وأحست
بالحاجة إليه، لحنانه وقوته، ولكلماته الجميلة التي تبعث النشوة في
نفسها، وأثارها جرأته في الأسئلة. نزلت دمعتان من عينيها، فسحب
كرسيه نحوها مقتربا أكثر بحيث تماست ركبتهما، وبحركة مفاجئة بالنسبة
لها مسح بكفيه دموعها، وهو يقول لها:
- لا أريد أن أراك باكية؟ هل تفهمين، لا أريد أن أرى الدموع في
عيني أجمل امرأة في العالم.. أنا معك.. سأقف إلى جنبك.. أنت
لست وحيدة في هذا العالم..
- صمتت لحظة، ثم قالت فجالت فجأة: هل بإمكانني أخذ إجازة؟
- هل بإمكانني أخذ إجازة في ما تبقى من أوقات الدوام. أحس
بنفسي متعبة

– طبعاً يمكنك ذلك..

خرجت حواء اللهيبي وكان واضحاً أنها ليست غاضبة، لكنها قلقة وكأنها تقيّم الأمور مع نفسها وتحتاج أن تكون وحدها.

إنقطعت حواء اللهيبي عن الدوام ليومين. ظن المهندس آدم المطرود أنها لن تأتي أبداً، لكنها جاءت في اليوم الثالث وكأن شيئاً لم يحدث بينهما. كانت تتحاشى نظراته، ومع هذا كانت تنظر إليه نظرة إعجاب واضح كلما رأته منشغلاً.

استمر الحال بينهما هكذا، كل منهما ينتظر بادرة من الآخر، لكنه انتبه إلى مبادرتها غير المباشرة إذ كانت تدخل عليه بسبب وبدون سبب لتسأله عن أبسط المسائل.

ومضت ثلاثة أيام أخرى على هذه الحال. في اليوم الرابع، وحينما دخلت عليه ووقفت أمامه فنظر إليها وسألها:

– هل من جديد مع زوجك..

– لا.. قررت أن أتركه يفعل ما يشاء..

– وأنت

– ماذا عني

– هل تقبلين بهذا الوضع

– لا طبعاً.. لكن ماذا أفعل. صرت لا أستطيع أن اقترب منه، وأحياناً

نجلس ساعات دون أن نتكلم.. أو أذهب أنا إلى غرفة النوم بينما

يواصل هو مشاهدة التلفزيون، ويرجع لينام إلى جانبي، وحينما

يحاول الاقتراب مني لا أتجاوب معه وكأنني أعط في نوم عميق..

– يعني أنكما لا تقيمان أية علاقة جسدية

– لا.. منذ مواجهتي معه..

كان آدم المطرود غارقاً في عشقه، لذلك حينما أحس بميل حواء

اللهيبي نحوه بدأ يتهرب منها بالعمل وكثرة المشاكل. والمهام التي عليه

انجازها ومواعيد وهمية مهمة عليه حضورها، بينما هي بمرور الوقت صارت تحبه فعلا، ويعنيها كشخص وليس كرجل فقط، لذا صارت تتألم حينما أحست بأنه بدأ يتهرب ويتعد عنها، وقد لمست ذلك خصوصا بعد عودته الأخيرة من اسطنبول، إذ أحست أنه تغير، وأنه صار شخصا مختلفا.

لقد فتشت هي في مكتبه عسى أن تصل إلى أي شيء يكشف لها عن سبب هذا التغيير، فهي بحسها الأثوي الغريزي تعرف أن سبب هذا التغيير هو وجود امرأة أخرى، لكن من هي؟ ثم أنه لم يبق في تركيا سوى أسبوع واحد، فكيف رجع متغيرا كل هذا التغيير.

كان آدم المطرود منشغلا بروايته التي استمد معظم تفاصيلها من علاقته بالشاعر آدم العنديلبي وتفاصيل مغامراتهما الشعرية والعاطفية، وكيف أن صديقه الشاعر مات رعبا، لكنه أخذ يفكر في تمزيقها لأنه أحس بخطورتها، وأيضا لأنه التقى حواء الصايغ.

دخلت السكرتيرة حواء اللهبيي حاملة باقة جميلة ومتميزة من الورود المختلفة الألوان والمحاطة بالخضرة، والمغلفة بالورق الشفاف على قاعدة تتألف من سلة صغيرة، وكانت هي تفكر بأمر هذه الباقة من الورد؟ لمن هي يا ترى؟ فهي هنا منذ أربعة شهور لم تشاهد المهندس آدم يشتري وردا أو يبعثها لشراء الورد.

من المؤكد أن ثمة سرا يخفيه؟ وإلا ما هذا التبدل الذي طرأ عليه منذ عودته من تركيا؟

حين دخلت عليه حاملة باقة الورد قام فأخذ الباقة منها ووضعها على طاولته. نظر إلى الساعة فوجدها قد تجاوزت الثالثة بدقائق. انتبه إليها إذ وجدها واقفة أمام الباب، استغرب فسألها:

- ماذا؟ لقد انتهى الدوام، ألا تريدان الذهاب إلى البيت؟ أنا لدي بعض الأشياء التي يجب أنجازها هنا لذا سأتأخر قليلا.

كان هو يفكر بأن أمامه وقتاً طويلاً لحين موعد العشاء، أما هي فقد نظرت إليه ولم تجب بل ولم تتحرك من مكانها.
كان هو ينظر معجبا بباقة الورد لتنوع زهورها، بل كانت تذكره بلوحة فنية لفنان روسي كان مختصا برسم باقات الزهور والمزهريات. إنتبه إذ رآها ما زالت واقفة في مكانها. لم يستوعب لماذا لم تذهب. أحس أن هناك شيئا، ربما له علاقة بما كانت تفتش عنه في مكتبه صباح اليوم. سألتها ببرود:

- هل هناك شيء ما؟
- لا.. لا شيء..
- لماذا لا تذهبين إذن؟
- لا أدري.. أردت أن أبقى معك قليلا؟
- ألا ينتبه زوجك لو تأخرت قليلا؟
- لا.. إنه يأتي في حدود الرابعة عصرا، وبيتنا قريب من هنا، فنحن نعيش في الصالحية، وهي قريبة، ويمكن أن أصل بسرعة، وحتى لو تأخرت فأن الطعام جاهز منذ البارحة..
- هل هناك شيء.. ليس من عاداتك البقاء.. إن كان هناك شيئا تودين إخباري عنه فيمكنك ذلك فانا لن أخرج من هنا إلا بعد ساعتين على الأقل..
- لدي سؤال..
- سؤال.. أسألي ما تشائين من الأسئلة
- أعتقد أن ما بيننا يسمح لي بأن أسألك: لمن هذه الزهور؟ لا أعرف أن لديك أصدقاء تذهب لهم بالزهور، أعرف صديقك المهندس آدم الصالح وهو أعزب مثلك..

نظر إليها بارتباك أول الأمر لكن ارتبائه لم يستمر لأقل من ثوان قليلة، ثم ابتسم وقال محاولا أن لا يدعها تشك فيه، فقد أحس فجأة أنها غيورة وربما ستخلق هذه الغيرة له المشاكل، فابتسم وقال لها وكأنه

يمزح:

- وأخيرا بدأت تغارين عليّ.. يا إلهي.. الحمد لله.. حواء بدأت
تغار عليّ..

انتبهت حواء اللهيبي لارتباكه على قصر مدته، وأنه الآن يحاول أن
يداري الوضع، وهذا ما زاد من يقينها بوجود شيء لا تعرفه وراء باقة
الزهور هذه، فقالت:

- أنا لا أغار وإنما أسأل..

- بل تغارين من باقة الزهور الجميلة هذه.. لكن صدقيني أنها ليست
أجمل منك..

- هذا ليس بجواب..

- بلى..

- لا.. أنت مدعو إلى عشاء وستذهب بباقة من الزهور الجميلة..
وطبيعي الزهور لا تقدم كهدية لرجل..

- أوه.. لم أفكر بأن ذهرك سيذهب إلى هذه المنطقة من التفكير..

- انه سؤال بسيط.. والذي قلته تحصيل حاصل.. الزهور تقدم
للنساء.. أليس هذا صحيحا؟

- بلى.. بلى.. صحيح جدا.. يا سيدتي الجميلة أنا مدعو عند

عائلة آدم الولهان، الذي تعرفت عليها في تركيا عندما حضرت

المؤتمر.. واليوم التقينا صدفة في المنصور عند مقر شركته..

ودعاني للعشاء، وليس من اللائق أن اذهب خالي اليدين، فمن

الأفضل أن آخذ باقة الورد لزوجته.. هذا كل ما في الأمر.. أهذا

هو الذي يقلقك؟؟

- نعم.. سؤال آخر؟

نظر إليها ليرى تأثير ما قاله عليها، فلقد كان صادقا في معظم ما قاله،

لكنه لم يقل لها صراحة بأنه كان يعد الأيام والليالي ليتأكد من رجوعهم

إلى بغداد، وإنه هو الذي ذهب بنفسه إلى مقر الشركة بعد أن بحث عنها

أياماً، حتى عندما كان متأكداً بأنهما لم يرجعا بعد.

كانت حواء المؤمن متلهفة لقراءة تفاصيل لقاء المهندس آدم المطرود بالمرأة الغامضة حواء الصايغ، لذا بدأت تقرأ الفصل الجديد الذي سيتحدث عن لقائه معها على العشاء بعد عودتها إلى بغداد.

انتبه آدم البغدادي إلى ما جرى بين السكرتيرة حواء اللهيبي والمهندس آدم المطرود في نهاية الفصل، بعد أن حملت الزهور، وما جرى في الواقع في موقف مشابه بين آدم التائه وزوجته حواء المؤمن، لكن المشهدين مستمدان من موقف عاشه آدم البغدادي نفسه بطريقة مختلفة نوعاً ما، انتبه آدم البغدادي لتحويلات التجارب الشخصية أثناء العملية الإبداعية.

كما انتبه إلى ملاحظة الدكتور آدم التائه حول الوصف التقريري لحالة البلاد السياسية، وكذلك ملاحظته عن مشروع المهندس آدم المطرود لكتابة رواية عن موت الشاعر آدم العنديلبي التي انتشرت في جميع الأوساط، واتفق معه في أن شخصية آدم المطرود لا تؤهله أن يكتب مثل هذه الرواية التي لا بد وأن تكون سياسية، وهو البعيد عنها والمرعوب منها.

(11)

استغرب المهندس آدم المطرود من أن آدم الولهان وزوجته حواء الصايغ يسكنان شقة في بناية وليس بيتاً منفصلاً، لكنه استغرابه زال حينما دخل إلى البناية، إذ كانت الباحة التي تقود إلى المصاعد نظيفة جداً ومرتبّة ومفروشة بالسجاد الأحمر مما يدل على أن جميع سكان البناية ذات الطوابق الثلاثة من الموظفين الكبار في الدولة، فهؤلاء لديهم امتيازات استثنائية تختلف عن عامة الناس.

عند مصعد البناية وقف آدم المطرود حاملاً باقة الورد بيديه، منتظراً أحد المصعدين اللذين كانا معلقين في الطابق الثالث. من غرفة في أقصى الممر خرج حارس البناية الذي كان في ثياب رسمية أنيقة على خلاف حراس البنايات فهو كما يبدو من رجال أمن البناية، تقدم من آدم المطرود وسأله:

– عفوا.. حضرتك تقصد من من سكان البناية؟

– أنا ضيف السيد آدم الولهان؟

– واسم حضرتك إذا ممكن.. هذه إجراءات فلا تنزعج رجاء؟

– أنا المهندس آدم المطرود.. صديق العائلة

– أهلاً وسهلاً أستاذ آدم..

– عفوا، ممكن أن تخبرني في أي طابق يسكن السيد آدم الولهان

نظر الحارس إليه بتساؤل، فانتبه آدم المطرود لذلك، فقال:

– عفوا أنا أزورهم لأول مرة

– مفهوم، هو يسكن في الطابق الثالث..

مضى الرجل الحارس إلى مدخل البناية، بينما هبط أحد المصعدين

فدخل آدم المطرود أحدهما، وفي تلك اللحظة بالذات وقبل أن يضغط

على زر الطابق الثالث دخل المصعد رجل وامرأة، عجوزان، نظرا إلى
آدم المطرود مع ابتسامة ودودة وألقيا عليه التحية:

– مساء الخير

– مساء النور

أغلق باب المصعد وبدأ بالصعود، وحينما فُتح باب المصعد مرة
أخرى في الطابق الثالث، انتبه آدم المطرود إلى أن الطابق لا يضم
إلا شقتين، ومن خلال حركة العجوزين عرف أن الشقة الأخرى هي
المقصودة، فاقرب وقرأ الاسم على لوحة نحاسية قرب جرس الباب.
ثم ضغط على الجرس.

فتحت امرأة بدا واضحا أنها التي تقوم بالخدمة في البيت، فدخل آدم
المطرود إلى الباحة التي كانت بمثابة غرفة استقبال أيضا.

كانت غرفة الاستقبال واسعة جدا وعالية السقف ومزينة باللوحات
الفنية والتمائيل الصغيرة ومفروشة بالسجاد الثمين، وكانت مفتوحة على
صالة كبيرة للطعام تتوسطها مائدة صُفّت عليها الأطباق الصينية الثمينة
والملاعق والسكاكين والأشواك والمناديل.

ما أن دخل حتى أشارت إليه المرأة بالجلوس وسألته إن كان
يحب أن يشرب شيئا، فجلس ولم يطلب شيئا سوى كأس من الماء،
فاختفت المرأة وبقِيَ وحيدا مستغربا من عدم وجود أحد. فجأة سمع
وقع أقدام وحركة تأتي من جناح آخر في الشقة، التفت فرأى حواء
الصايغ أمامه.

وقف منبهرًا بجمالها الساحر وبهول المفاجأة وكأنها هبطت من
المجهول. نظر كل منهما إلى الآخر بلهفة، فقد كان واضحا أنها تنتظره
أيضا. اقتريا من بعضهما بلهفة. أرادا أن يحضنا بعضهما البعض لكنهما،
كلاهما تردد في ذلك، فصافحها بحرارة واللهفة تتألق في كل كيانه، مقتريا
منها جدا إذ لم يفصل بين وجهيهما وجسديهما إلا باقة الورد، نظرت إليه
بشوق وأخذت باقة الورد وقالت بحرارة ودفاء وتلقائية:

- يا لها من باقة جميلة، يا لتنوع الألوان، شكرا جزيلًا
ثم التفتت تفتش في أرجاء الصالة عن مكان تضع فيه باقة الورد،
فوجدت طاولة جانبية فاتجهت إليها ووضعت باقة الورد التي بدت وكأنها
لوحه فنية حقا، ثم توجهت إليه وجلست على مقعد وثير بالقرب منه،
نظرت إليه بحنان وقالت:

- اعذرني لأنني تأخرت في استقبالك، زوجي سيتأخر ساعة أخرى،
وظننت أنه أخبرك، وأنك ستأتي في التاسعة أيضا. الحمد لله أنك
جئت مبكرا، فلقد اشتقت إليك كثيرا..

لم يصدق ما يسمع، فالأخبار المفرحة تتوالى، أولها هذا الاستقبال
الحميم والرائع، وثانيا قولها إنها اشتاقت إليه كثيرا، وثالثا أن زوجي
ليس في البيت ورابعا أنه سيأتي بعد ساعة، يا لها من ساعة مباركة. بعد
لحظات قال لها:

- لقد كنت أعد الأيام منتظرا عودتكم
- لم أصدق أذني حينما قال لي آدم إنك مررت عليه في مكتبه
بالشركة وإنه دعاك إلى العشاء.
- وأنا أيضا

دخلت المرأة وهي تحمل صينية فيها كأس من الماء. تقدمت من
المهندس آدم وانحنت لتقدمه، فأخذ الكأس، وما أن انتهى من شرب
الماء حتى بادرتة:

- هنيئا.. ماذا تشرب عصير فواكه، شاي، قهوة؟
- شكرا. لا أريد شيئا.. فأنا غير مصدق لوجودي هنا في بيتكم..
- لا يجب أن تشرب شيئا لأن العشاء سيتأخر قليلا..
- طيب.. فنجان قهوة.. إذا أمكن.. وسط
- طبعاً..

التفت للمرأة التي كانت تنتظر أوامر السيدة، وقالت:
- اثنان.. وسط

ثم التفتت إلى آدم المطرود وقالت له:

- كيف هي الكتابة معك.

- لم أكتب شيئا منذ مدة طويلة، فقد انشغلت بالمؤتمر لأكثر من أسبوع، ومنذ عودتي وأنا أحاول أن أوصل روايتي لكن بلا فائدة.. أحس بالتشتت.

- التشتت.. هذا يمكن تحمله وفهمه.. أنا أحس بشعور أكثر إيلاما.. أحس بأنني في متاهة كبيرة لا منفذ لها أبدا..

- تعيشين وسط كل هذا العز والأبهة والهيلمان وتشعرين بأنك في متاهة لا منفذ لها؟ لو يسمعك عامة الناس لقالوا إن هذا بطر، بطر حقيقي..

فقلت بحزن:

- أعرف. هذه المرأة التي تعمل عندنا في البيت قالت لي مرة كلاما مشابهاً تقريبا في المضمون، لكنها فسرت الأمر بأن سبب ذلك كوننا أنا وادم لا أطفال لدينا، وهي لا تدري بأن عزائي أحيانا هو أننا بلا أطفال..

- ربما هي محقة

- حتى أنت؟

- أسمح لي إذا ما قلت ربما إنك لا تدريين جيدا كيف يعيش عامة الناس العراقيين

- أستاذ آدم.. هل تعتقد إنني ولدتُ وفي فمي ملعقة من الذهب.. أنا أنتمي لعائلة متوسطة الحال، أقرب إلى الفقر. والدي كان مدرسا للغة العربية، وكنت وحيدته، حينما وصلت المرحلة المتوسطة ماتت أمي، فكرس أبي حياته لي. لم يتزوج، بل ظل معتكفا على نفسه وكتبه وذكرياته الجميلة مع أمي. عاش إلى أن دخلت الجامعة ودرست اللغة الألمانية والأسبانية، وكنت في السنة الأخيرة من الجامعة حينما رحل عن عالمنا هذا.

ذات يوم دخلت عليه في الغرفة التي كانت غرفة نومه ومكتبته أيضا فوجدته مسجى على سريره يغطي كتاب (المواقف والمخاطبات) لعبد الجبار النفري وجهه. حاولت إيقاظه فلم يستيقظ، وحينما رفعت الكتاب عن وجهه، وجدت عينيه مفتوحتين على اللانهاية؟ لقد انتهت للصفحة التي كان يقرأها، والموقف الذي خط تحت كلماته بقلمه الملون. هل تعرف في أي موقف كان أبي حينما رحل عن عالمنا هذا؟
- من أين لي أن أعرف..

في هذه اللحظات جاءت المرأة بالقهوة فصمتا إلى أن وضعت الفنجانين أمامهما مع كأسين من الماء وانسحبت. أخذت أحد الفنجانين وسلمته له فأخذه وهو يتمتم بكلمات الشكر. صمتت لحظة، ثم واصلت:

- صحيح.. من أين تعرف.. سؤال عفوي لكنه غبي..

- لا عفوا.. لم أقصد

- لا عليك.. سؤالي بالأساس كان خطأ..

- في أي موقف كان؟

- في تلك الصفحات نص لموقفين هما: موقف العز وموقف القُرب.. ما زلت أذكر كلماته، ففي موقف العز يقول: (أوقفني في العز وقال لي لا يستقل به من دوني شيء، ولا يصلح من دوني لشيء، وأنا العزيز الذي لا يستطاع مجاورته، ولا تُرام مداومته، أظهرت الظاهر وأنا أظهر منه، فما يدركني قربه، ولا يهتدي إلى وجوده، وأخفيت الباطن، وأنا أخفي منه، فما يقوم على دليله، ولا يصلح إلى سبيله. وقال لي لولا ما أبصرت العيون مناظرها، ولا رجعت الأسماع بمسامعها. وقال لي لو نطق ناطق العز لصمتت نواطق كل وصف، ورجعت إلى العدم مبالغ كل حرف. وقال لي لا أنا التعرف ولا أنا العلم، ولا أنا كالتعرف ولا أنا كالعلم). أما في موقف القرب فيقول: (أوقفني

في القرب وقال لي ما مني شيء أبعد من شيء ولا مني شيء أقرب من شيء إلا حكم إثباتي له في القرب والبعد. وقال لي البعد تعرفه بالقرب، والقرب تعرفه في الوجود. وأنا الذي لا يرومه القرب، ولا ينتهي إليه الوجود. وقال لي لا بعدي عرفت ولا قربي عرفت ولا وصفي كما وصفي عرفت. وقال لي: أنا القريب لا كقرب الشيء من الشيء، وأنا البعيد لا كبعد البعيد من الشيء. وقال لي القرب الذي تعرفه مسافة، والبعد الذي تعرفه مسافة، وأنا القريب البعيد بلا مسافة. وقال لي أنا أقرب للسان من نطقه إذا نطق، فمن شهدني لم يذكر ومن ذكرني لم يشهد).

حينما بدأت حواء الصايغ تقرأ النصوص التي كانت قد حفظتها بدا وكأنها تحلق في عالم آخر. تألق وجهها الجميل وكأن هالة قدسية بدأت تنوره. كان آدم المطرود يتأملها بوله واضح، وحينما انتهت قال:

- هذا رائع.. هل تحفظين نص هذين الموقفين فقط، أم تراك

تحفظين نصوص المواقف الأخرى؟

- أحفظ نص هذين الموقفين بالتأكيد لأنهما المواقف الأولى التي ترد في كتاب المواقف، ولأنهما كانا في الصفحة التي كان أبي رحمة الله عليه يقرأهما.

- ثم هل كان الوالد رحمه الله صوفياً؟

- لا، لكن كان مؤمناً إيماناً عميقاً لحد الشك؟

- غريب.. الإيمان لحد الشك..؟

- نعم..

- كيف؟

- كان أبي يضع في مكتبته نصاً مأخوذاً من كتاب هندي هو في الحقيقة همس لبراهما يُعد كصلاة هندية قديمة في سفر اليوبانيشاد، والنص يقول:

إذا ظن القاتل أنه قاتل
والمقتول أنه قتيل
فليس يدريان ما خفي من أساليبي
حيث أكون الصدر لمن يموت
والسلاح لمن يُقتل
والجناح لمن يطير
وحيث أكون لمن يشك في وجودي
كل شيء حتى الشك نفسه
وحيث أكون أنا الواحد
وأنا الأشياء

حينما أنهت حواء الصايغ جملتها الأخيرة بدت وكأنها تنطق بصوت
المطلق. صمت آدم المطرود لحظات وهو يفكر مع نفسه ويبحث عن
أثر هذا النص على روحه وتفكيره، وأخيرا علق:
- لكن هذا له علاقة بفلسفة وحدة الوجود..

- صحيح جدا.. والذي رحمه الله يؤمن بأن للكون والوجود واجداً،
خالقاً، وهذا الخالق هو الذي يسمى في الدين باسم لفظ الجلالة
الله. وهذا هو اسمه في اللغة العربية، لأنه في اللغات الأخرى
يسمى أسماء مختلفة، لكنه في الجوهر هو المقصود. المشكلة
التي كان يفكر فيها أبي هي أن الأديان والفلسفة تؤكد بأن الخالق
ليس ماديا وليس له أي تجسيد مادي، وبالتالي كان أبي يسأل
أحيانا، وهذا ما دونه في يومياته، بأنه لو كان الخالق خارج الكون
والوجود المادي، فهو إذاً ليس بالمطلق، لأن الكون أو الوجود
يأخذ حيزا مكانيا كبيرا، والخالق خارج هذا الحيز، بينما فلسفة
وحدة الوجود ترى أن الكون هو إحدى تجليات الخالق، وهذا ما
ذهب إليه بعض الفلاسفة والمتصوفة المسلمين، كما ذهبت إليه
بعض الديانات الشرقية، وأعتقد أن الفيلسوف سبينوزا يؤيد ذلك.

- أقر بأنني أمام فيلسوفة..
- لا.. أبدا.. ربما أنا أفكر.. أبي علمني التفكير.. لكن التفكير يولد الحزن..
- الآن فهمت لماذا أنت حزينه رغم أنك وسط كل هذا الترف المادي..
- ألم تقرأ لأحد الشعراء القدامى حين يقول: ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
- بلى.. بعض الفلاسفة يتحدثون عن الوعي الشقي
- صحيح.. بالمناسبة.. أبي أراد أن يدون طفولته وحياته السياسية والفكرية بشكل روائي فكتب رواية.. لكنها ظلت ناقصة...
- هل هي موجودة لديك..
- نعم.. وفكرت في أن استكملها لكن هذا مستحيل، لأنها تتوقف عند أحداث هو وحده يعرف تفاصيلها.. وبذلك لا أكون أمينة له
- هل يمكنني أن أقرأها..
- ممكن.. لكن خطه غير مقروء تماما..
- في هذه اللحظة بالذات فاجأهم آدم الولهان بدخوله إلى الصالة، فقد فتح الباب بالفتح ودخل. نهض المهندس آدم المطرود مرحبا ومرتبكا أيضا، فتقدم آدم الولهان بمرح مصافحا ومتعدرا:
- أهلا وسهلا أستاذ آدم، أنا آسف حقا لعدم تمكيني من أن أخبرك بتأجيل العشاء إلى التاسعة، فأنا لا أعرف رقم تليفون مكتبك ولا حتى أين يقع.
- صحيح، أنا لم أعطك حينها رقم تليفون المكتب، مكتبي في الحارثية، بالقرب من ساحة النسور، مقابل بوابة معرض بغداد الدولي..
- وأخرج من جيبه بطاقة تعريفية له وفيها عنوان المكتب وأرقام التليفونات فأخذ آدم الولهان البطاقة ووضعها في جيب سترته الأعلى،

وقال له:

- أرجو أن تكونوا قد استمتعتم بالنقاش، فقد كانت أجمل مفاجأة
بالنسبة لحواء

- لا.. أنا اكتشفت في السيدة حواء، ليس الشاعرة فقط وإنما
الفيلسوفة أيضا..

فابتسمت حواء الصايغ بتواضع حقيقي وقالت:

- شكرا جزيلًا، أنا لا استحق هذا الإطراء.. ربما كان أبي هو
الفيلسوف

فعلق آدم الولهان بمرح وبخبت خفي:

- أوه.. لقد تحدثتم عن الوالد رحمه الله. يبدو أنني قاطعتكم..
- لقد جئت في الثامنة، وأخبرتني السيدة حواء بتأجيل الموعد إلى

التاسعة، فأخذنا نقطع الوقت بالحديث

فعلق آدم الولهان مرددا حكمة شائعة قائلاً:

- الوقت كالسيف إذا لم تقطعه يقطعك

التفتت حواء الصايغ إليه وسألته محاولة أن تدير الحوار إلى منطقة
أخرى فهي تعرف الغيرة الخفية التي تكمن في أعماق من كل ما
يشير إعجابها:

- لكن أين ضيفنا الآخر؟

نظر آدم الولهان إلى ساعته التي كانت تشير إلى دقائق قبل التاسعة

وقال مخاطبًا زوجته:

- أنت تعرفين آدم جورج الشماس، ليس من عاداته أن يكون دقيقًا
في المواعيد

التفت آدم الولهان إلى آدم المطرود قائلاً:

- آدم جورج الشماس صديقنا، لبناني - فرنسي، تعرفنا عليه في

باريس قبل سنتين، شخص غريب الأطوار، يعيش متنقلا بين

البلدان الأوروبية، إنه مزيج ما بين فنان وتاجر، لكنه لا هو بالفنان

ولا بالتاجر، إنه يتاجر بالفن ويتفنن بالتجارة.. إنه صديقنا

علقت حواء الصايغ بمرح:

– إنه صديقك أنت.. فهو بالنسبة لي إنسان متعب

في هذه اللحظة بالذات رن جرس الباب، نظر آدم الولهان إلى ساعته اليدوية فرأى أنها تشير إلى التاسعة بالضبط فعلق مبتسما:

– لا أعتقد أنه هو.. فهو يتأخر عشر دقائق دائما عن أي موعد مهما

كان مهما

فتح آدم الولهان الباب بنفسه فدخل رجل قد تجاوز الخمسين من العمر، أبيض الشعر، حيوي، قلق النظرات. وسيم المظهر. استقبله الزوج ضاحكا وهو يقول له:

– الشمساس.. مش معقول.. هذا أنت تصل في الموعد المحدد بالضبط..

ودون أن يجيب تقدم الرجل نحو المهندس آدم المطرود وحواء الصايغ. أخذ يد حواء الصايغ فقبلها بصورة احتفالية بحيث ارتبكت لاسيما أمام آدم المطرود، ثم التفت نحوه ماذا كفه للمصافحة:

– إذن، أنت المهندس الأديب الذي اقتحم عالم آدم الولهان وزوجته الساحرة حواء الصايغ.. أنا آدم جورج الشمساس.

– أهلا وسهلا.. أنا المهندس آدم المطرود

مد آدم المطرود كفه مصافحا أيضا دون أن يبدي عليه أي أثر لرد الفعل على طريقة آدم الشمساس الاحتفالية، بل إنه فرح مع نفسه لما قاله، فهذا يعني أنهما تحدثا عنه، بل وفكرا فيه. ألقى آدم المطرود نظرة خاطفة إلى حواء الصايغ التي كانت في تلك اللحظة تنظر إليه، فالتفت نظراتهما وابتسم كل منهما للآخر بلطف.

جلس الجميع على المقاعد الوثيرة، وقبل أن يبدأ أحد بالحديث بادر

آدم الشمساس مخاطبا آدم المطرود قائلا:

– حينما سألت آدم وحواء عندما وصلا باريس عن أهم الأشياء التي

شاهدوها أو تعرفوا عليها في سفرتهم، أجبني كلاهما بأن تعرفهم
على آدم المطرود كان من أبرز الأشياء..

ارتبك المهندس آدم المطرود للحظة ولاحظ هو بأن حواء الصايغ
ارتبكت أيضا، بينما زوجها ابتسم مؤكدا كلامه، فقال آدم المطرود:
- هذا لطف منهما لا أكثر، وشعور جميل أبادلهما أنا فيه أيضا.
كان آدم الشماس جريئا، مقتحما بكلامه، لا يعير اهتماما للشكليات،
فاستمر في حديثه:

- حديثهم عنك، وبالتحديد المدام حواء أثار اهتمامي، فوددتُ
أن أراك، فأنا عشت معظم حياتي في أوروبا، حتى لبنان بلدي
الذي أحبه جدا نادرا ما كنتُ فيه، وما أثارني حقا أن مدام حواء
الصايغ تحدثت عن مسيو آدم المطرود حديثا مليئا بالتبجيل، وأنا
أعرف مدام حواء جيدا فهي دقيقة جدا في استخدام المفردات،
بل وهي بخيلة في الإطراء والمديح، لاسيما للرجل الشرقي..
وبالتالي انتابني الفضول في أن أتعرف إليك..

انتبه المهندس آدم المطرود إلى أن حواء الصايغ لا تود الاسترسال
في هذا الموضوع، وأنها لا تميل لطريقة آدم الشماس في الحديث معه،
فسأله آدم المطرود بهدوء:

- عفوا أستاذ آدم. لا أفهم ما المقصود بالرجل الشرقي؟ فهي كلمة
واسعة جدا.. الصيني والفيتنامي، والهندي، والإيراني، والتركي
والكردي والعربي كلهم شوقيون. والشرق يعني التوراة والإنجيل
والقرآن.. والأنبياء كلهم شوقيون.. والأديان كلها شرقية.. فان
كنت أنا سليل كل هذا فانا افتخر وأتعجب كيف السيدة حواء
الصايغ تنتقد الإنسان الشرقي..

بهت آدم الشماس من إجابة المهندس آدم المطرود فقال معلقا على
سؤاله، مبديا أيضا عدم رغبته الواضحة في مواصلة الحديث وكأن سؤال
آدم المطرود كان بمثابة هزيمة له، ففقد شيئا من حيويته ومرحه الذي

رافقه عند الدخول، ومستدركا:

- لا.. لا.. يبدو أن عليّ أن أكون دقيقاً في انتقاء كلماتي عند الحديث معك، ومع ذلك أعتقد أن الحديث معك سيكون ممتعا.

أدرك آدم الولهان حالة صديقه آدم جورج الشماس، فهو دائما يسعى لإثارة إعجاب زوجته حواء بالنقاش والأفكار الغربية والجريئة، مثلما انتبهت حواء الصايغ إلى ذلك أيضا، فنظرت إلى آدم الشماس بمرح، لأنها بغريزتها أحست أنه سوف لن يغفر للمهندس آدم المطرود هذا الموقف، وأنه سوف يستفزه طوال هذه الأمسية، وربما سيحقد عليه لاحقا، ولكي تنهي هذا الجو الذي توتر للحظات، قامت ودعت الجميع إلى المائدة.

لم ينتبه المهندس آدم المطرود إلى الطريق ولا إلى المكان الذي وصلوه، ولا إلى الممرات التي ساقوه فيها، ولا القاعات والغرف، إلا عندما سمع المحقق آدم التكريتي يقرب وجهه منه ويصرخ فيه:
- الصمت لن يساعذك.. إنك تؤكد التهمة على نفسك..
ظل المهندس آدم المطرود صامتا، فقال له الرجل الذي كان يبدو أنه رئيس المحققين:

- حتى لو صمت فلدينا معلومات مؤكدة عنك. فلقد شاهدك الجيران ليلة حدوث الجريمة وفي الساعة نفسها التي حددها الطب العدلي لساعة وقوع الجريمة، وكذلك شاهدك حارس أمن البناية، ولدينا أيضا شهادة سكرتيرتك حواء اللهيبي، وكم كبير من الأقوال المتضاربة التي يمكن أن تكون لصالحك أو ضدك وهذا كله متوقف عليك..

ما أن ذكر المحقق اسم حواء اللهيبي حتى دبت الحركة والحيوية في نفسه. تُرى ما الذي قالته عنه؟ وهو لحد الآن لا يستوعب رحيل حواء

الصايغ عن هذا العالم، وبهذه الطريقة، أي أن تُقتل.
نظر آدم المطرود إليهم نظرة متفحصة لكن كان واضحاً أنه يفكر
بأشياء أخرى. لم يقل أي شيء. تبادل المحققون النظرات في حيرة،
فبادره المحقق آدم التكريتي:

– لعلك تريد أن تستريح أو أن تفكر في أن تحدثنا عن كل شيء.
أنت رجل ذكي؟؟ كاتب معروف، وبوسعك أن تساعد العدالة أو
تكون عائقاً لها. وحدك من سيقدر ذلك. سترك قليلاً لتستريح،
فكر وحدك، وإلا، فحينما نعود سنكون مضطرين لاتخاذ أساليب
أخرى معك لانود أن نستخدمها، فملفك أماننا وأنت إنسان
مخلص للحزب والثورة. ملفك ليس فيه من هذه الناحية أية
شائبة.. فكر وقل لنا لماذا قتلت حواء الصايغ؟
قام الجميع وخرجوا إلا آدم المطرود فقد بقي على كرسيه تائه
النظرات، محدقا في الماضي بعيون جاحظة.

شعرت حواء المؤمن بتعاطف مع حواء الصايغ. أحست أنها قريبة
منها رغم أنها كما رسمها زوجها الدكتور آدم التائه مثقفة، بل ومثقفة جدا،
لكن ربما هي تعيسة حقا لأنها بلا أطفال مثلها، فكل الثروة لا تعوض
المرأة عن فقدان الأطفال والحرمان من مشاعر الأمومة.
سألت نفسها: لماذا يريد زوجها آدم التائه أن تُقتل هذه المرأة الجميلة
الحزينة المسالمة؟ وهل يا ترى سيتم إنقاذ آدم المطرود من هذه التهمة
ويكشف عن القاتل؟
كانت في شوق لمعرفة ذلك فانتقلت للفصل اللاحق.

سأل آدم البغدادي نفسه هل صادف هو في حياته امرأة مثل
حواء المجهول؟ حاول أن يستذكر، فوجد أنه قابل فعلا أثناء
دراسته الجامعية ببعض الفتيات المثقفات جدا، وكانت واحدة
منهن مثقفة ثقافة استثنائية لكنها كانت قبيحة بالمعنى الحقيقي

للقيح، وتعرف على واحدة أخرى كانت مثقفة وجميلة لكنها ليست بجمال حواء المجهول.

انتبه آدم البغدادي إلى أن الكاتب مثل ذلك الطبيب الجراح الذي كان مهووسا بفكرة الخلق، فجمع أشلاء مختلفة وأجرى ما أجرى من لصق وترقيع وتركيب من الأشلاء كي يوجد مخلوقا مسخا مثل فرنكشتاين، وربما آدم التائه أو هو آدم البغدادي بالذات، قام بتجميع سمات مختلفة من نساء عديدات صادفهن في حياته، وأوجد شخصية حواء المجهول من خلال الكاتب آدم المطرود.. ربما.

(12)

في اليوم التالي لمساء الدعوة تأخر وصول آدم المطرود إلى المكتب على غير العادة، فقد مضت الساعة الحادية عشرة ولم يصل بعد. وحينما فتح باب المكتب ودخل مرحا ووجهه يفيض بالحيوية والسعادة واجه السكرتيرة حواء اللهيبي وتأمل سريعا وخلال ثوان وجهها فأحسه يemor بمزيج من الغيرة وروح المشاكسة، فقد خمنت أن السيدة زوجة صاحب الدعوة لا بد وأنها مصدر كل هذا الفيض من السعادة التي تشع منه. وطبعا كانت حواء اللهيبي محقة في تخمينها، إذ كانت دعوة العشاء منعظا مهما في حياة آدم المطرود الروحية، فالجو الرائع والطعام الشهي واللذيذ، والنقاش الذكي والحوار المتميز من قبل الجميع قد ترك عليه وعلى الجميع مثل هذا التأثير، حتى أنهم أمضوا وقتا أكثر مما كان متوقعا، إذ أنهم بعد العشاء جلسوا في صالة الضيوف وتبادلوا الأحاديث حتى وقت متأخر من الليل.

حين وصل آدم المطرود إلى طاولتها حياها بمرح وبتملق واضح قائلاً:

- صباح الخير يا أجمل سكرتيرة في الدنيا، صباح الخير يا أجمل حواء التي أنقذت آدم المطرود من الجنة.
نظرت حواء اللهيبي إليه وفي داخلها مرجل من المشاعر المختلطة يغلي، وقالت بنبرة ذات اتهام صريح:

- صباح الخير. لكن ما سر كل هذا المديح الذي تعرف جيدا أنك لا تعنيه أبداً. ثم إذا كانت حواء، التي هي أنا كما تقول منقذة آدم المطرود من الجنة، من هي يا ترى التي أنقذت المهندس

آدم المطرود من العزلة والضجر ومنحته كل هذه السعادة وكأنه
طير حر طليق..

انتبه آدم المطرود لنبرة العداء الخفية في ثنايا صوتها فتوجس غيرة قد
تؤثر على مزاجه الرائق وربما ستقود إلى نتائج غير مطمئنة. أراد أن يوجه
الأمر إلى الجهة التي يعرفها والتي تهدئها، لذا بادر قائلاً بنفس المرح:
- ومن هي يا تُرى غير حواء اللهيبي.

مر آدم المطرود من أمامها ودخل مكتبه، لكنه فجأة رفع سماعة
الهاتف وقال لها:

- حواء.. فنجان قهوة لو سمحت
- حاضر استاذ
- بسرعة لو سمحت لأنني أود أن اعتكف لكتابة شيء مهم
- حاضر
- شكراً

كان آدم المطرود قد مر، قبل مجيئه إلى المكتب، على السيدة حواء
الصايغ في شقتهم الواسعة ليشرب معها فنجاناً من القهوة، حيث طلبت
منه أن يمر صباحاً ليشرب القهوة عندهم. ولم تكن حواء الصايغ تتردد
في أن تعبر عما تفكر فيه، وكذلك لم تتردد في طلبها ذلك أمام زوجها
عندما ودعاه ليلة أمس عند نهاية السهرة.

كانت حواء الصايغ بقدر الغموض الذي يحيط بشخصيتها وماضيها
وعالمها فهي أيضاً واضحة في رؤيتها للأشياء وواثقة من نفسها ومن
تصرفاتها، وربما هذه الثقة في جانب منها مستمدة من الثقة التي يمنحها
زوجها آدم الولهان لها، لذا لم تكن تتردد في أن تعبر عن رأيها في أعقد
المسائل وأكثرها حساسية أمامه.

قبل ذهابه إلى مكتبه توجه آدم المطرود إلى شقتهم، وحينما وصل
وجدتها في الصالة وبكامل زينتها ولباسها. عرف منها بأن السيد آدم

الولهان قد خرج قبل وصوله بقليل، فلقد انتظره لكنه تأخر مما أضطره للذهاب.

تردد آدم المطرود في الجلوس كثيرا ولعن نفسه على التأخير إلا أن حواء الصايغ طلبت منه أن يشرب معها فنجانا من القهوة. قبل الدعوة مرتبكا وسعيدا في الوقت نفسه، وجلس بالقرب منها في الصالة، حيث كان دورق القهوة وأكوابها موجودة في صينية فضية على إحدى الطاولات.

نظرت حواء إليه مليئة بالود وسألته سؤالا مباغتا:

– أستاذ آدم، ما رأيك بزوجي؟

بوغت بهذا السؤال، بصراحته ومباشرته ووضوحه، فقال بتردد:

– ماذا تقصدين؟

– قصدي واضح، ما رأيك أنت بزوجي آدم؟

ظل آدم المطرود مرتبكا محاولا كسب الوقت ليحلل السؤال ودوافعه

وأن يبحث عن جواب دبلوماسي، فسأل:

– من أي ناحية تقصدين؟

– من جميع النواحي، الخارجية والداخلية..

– وهل رأيي مهم هنا؟

– يعني.. أحب أن اعرف رأيك..

– بصراحة؟

– ولماذا أسألك إذا لم أنتظر الإجابة الصريحة منك؟

– لا يزعجك رأيي إذا لم يعجبك؟

– أبدا.. لماذا أسأل إذا كنت أتوقع الإجابات التي تعجبني فقط؟

– طيب. إن شخصية الأستاذ آدم الولهان الخارجية، برغم دخوله في

خريف العمر، إلا أنها تشير إلى شخصية جذابة ولطيفة. فرغم

تقاطيعه المتناسقة ونعومة ملامحه، وأناقته الطاغية والتي لا

يختلف حولها اثنان، إلا أن المرء لا يرتاح لرؤيته كل الارتياح.

فوجئت حواء الصايغ من صراحة آدم المطرود فابتسمت له مشجعة
كي يواصل حديثه، فاسترسل:

- أحيانا أجد أن تعبير وجهه وبعض نظراته تكاد تكون منفرة لأنها
مزيفة وغير حقيقية، لأنه يتكلفها، فهناك ثمة قناع يغطي وجهه
الحقيقي. والغريب أن عينيه البنيتين الجميلتين، اللتين تسترعيان
الانتباه لكل من ينظر إليه، تتركان انطباعا للناظر لوجهه بأنهما لا
تخضعان لإرادته، فحتى إذا ما أراد أن ينظر نظرة رقيقة ورومانسية
فإن ثمة أشعة لا مرئية من القسوة والشراسة والغدر يمكن أن
تصدر منهما.

إنه يتعذب، لأنه لا يرتاح أبداً، فحياته كلها تمثيل في تمثيل. لقد رسم
لنفسه شخصية وهو لا ينفك يسعى لأن يكونها لكن من خلال تمثيلها. إنه
غيور جدا برغم كل هذا التحرر الذي يديه، بل إنه يلعب دور المتحرر.
إنه في أعماقه متغطرس ومتعالٍ على الرغم من تجسيده لشخصية النبيل
المتواضع التي يجيدها بشكلٍ مثير للإعجاب، وهو في الجوهر إنسان
أناني، وأعتقد أن الحياة، بكل ما فيها، من حب، ومشاعر، وصدافة،
ومتعة، وجمال، بالنسبة إليه لا تتعدى كونها صفة، فهو لا يهدر شيئاً
من مشاعره وماله ووقته إلا باعتبار ذلك ضمن حساب الصفة. كل شيء
لديه محسوب، حتى الابتسامات واللفظ الذي يديه للضيوف والأصدقاء
وإليك أيضاً محسوب، إذا لم أقل إنك أكبر صفة رابحة في حياته.

كانت حواء الصايغ تنظر إليه مصدومة، ومع تدفق كلماته ارتسمت
الكآبة على وجهها شيئاً فشيئاً. انتبه آدم المطرود لها فسأل:

- أرجو أن لا أكون قد تجاوزت حدودي

فقلت بهدوء وبصوت خافت:

- أبدا... أنت تتحدث وكأنك مرآة روحي..

استرخت أعماق آدم المطرود حين سمع ذلك، لكنها واصلت القول

بسؤال آخر:

- وماذا عني؟ كيف تراني..

- أنت؟

- نعم أنا..

صمت آدم المطرود للحظات ثم تاهت نظراته واسترسل قائلاً:
- أنت صاحبة نفس حساسة جداً، رقيقة، وبرغم ذلك فهناك طبقات
من العناد متحجرة في أعماقك. أنت غامضة ومعقدة. كريمة
النفس ونبيلة القلب لكنك عصبية، علماً أنك لا تبدين عصبيتك
أبداً بل تسعين إلى الصفح عن الذين تغضبين منهم وكأن في
الصفحة لذة مجهولة. أنت حزينه إلى حد التلذذ بالحزن بل
والتطهر الروحي من خلاله.

لم يستطع آدم المطرود أن يسترسل إذ قاطعته حواء الصايغ قائلة:

- إنك تبالغ في إطرائي..

- أبداً. إن مقاطعتك لي هو دليل على سمات الشرف والاستقامة
والتواضع لأنني أثبتت عليك.. قد أكون على ضلال، لا أدري،
لكنني سواء كنت مصيباً أو مخطئاً فأني مخلص في ما أقول..

- تقول هذا لأنك تميل إليّ..

- أميل إليك؟ هذه كلمة شاحبة وعليلة أمام ما أحس فيه تجاهك
من عمق المشاعر والأحاسيس والاحترام

- أشكرك على هذا الفيض من كلمات الشئ ومن المشاعر التي
تشعرنني بالسعادة. لكن ألا تخاف من شخصية زوجي..

- بلى، لكننا نتجنب المواجهة. برغم قصر علاقتنا، وأعتقد أنه لا
يحب التواصل معي إلا لأنك ترغيبين بذلك، وهو بهذا يعذب
نفسه أيضاً، وكلما تعمق تعارفنا أصر على أن يقرب بيننا، إنه
ممثّل تراجيدي بارع.

- ولماذا يفعل كل ذلك برأيك؟

- لا أدري، ربما لأنه يحبك بطريقة مرضية، ربما لأنك أعظم صفقة

رابحة في حياته كما قلت، أو لأنه جامع للوحات وأنت أغلى
وأجمل لوحاته.

– بدأت أخاف منه.. أنك تؤكد ما أنا أحسه أيضا.

قالت حواء الصايغ ذلك بنبرة حزينة ثم صمتت للحظات طالت
لدقيقة من الوقت خافضة رأسها الجميل الذي يعشق هو تسريحته حيث
الشعر المصفوف للوراء الذي يكشف معالم الوجه كاملة، ثم رفعت
رأسها سائلة بتوسل وخوف ورجاء:

– أود أن تكون صديقي. صديقي الوحيد. موضع أسراري ومرآة

روحي وقلقي ومخاوفي، فهل تقبل بذلك؟

– أنا

لم يتوقع آدم المطرود مثل هذا الطلب الذي قدمته بتوسل ورجاء.
لقد فوجئ، وأحس بخوف مجهول وكأن الأمر غير عادي على الرغم
من أنه كان يتمنى أن يحدثها سابقا، والآن تطلب منه هي بنفسها أن
يكون صديقها الوحيد وموضع أسرارها، وهذا يعني سيكون أقرب إليها
من زوجها، وهل يمكنه يا ترى أن يرفض؟ فكر في نفسه أنها اللحظة
المناسبة للمكاشفة فقال لها وهو منفعل:

– أنا.. هل تعتقدين باستطاعتي أن أرفض؟ هل يمكن للمرء أن

يرفض نعمة البصر؟ هل بإمكانه أن يوقف نبض قلبه؟ أنت لي

نور البصر وألق البصيرة، نبض القلب ومعنى الوجود. إن حياتي

ووجودي وكياني كله بين يديك.

كان آدم المطرود ينظر إلى وجهها وهو يقول كلماته تلك ورأى

دفق الانفعالات السعيدة التي كانت تنعكس على وجهها الجميل، لكن

الابتسامة الحزينة لم تغادر ذلك الوجه. نظرت إليه وفي عينيها أمواج من

مشاعر الشكر والامتنان والحب الخفي تنساب برفق، وقالت:

– لا أعرف كيف أشكرك فالكلمات كثيرا ما تعجز عن تجسيد

المشاعر البشرية، ولكونك كشفت عن مشاعرك نحوني بهذا

الوضوح فبودي أيضا أن أقول إنك توأم روحي، إنك قريني، إنك أنا، إنك نصفي الآخر. وبودي أن نكون قريبين معا..
تألق وجه آدم المطرود بسعادة تعجز الكلمات عن وصفها، لكن هذا التألق انطفأ فجأة. لاحظت هي ذلك فسألت:

- ما بك؟

نظر إليها وقال بتساؤل:

- والسيد آدم الولهان؟

- ما لنا وله. علينا أن نخلق عالما الخاص بنا بعيدا عن صفقاته وتلصص عيونه. أنا لم أصدق أنني التقيت إنسانا مثلك، لقد حلمت بذلك كثيرا، لقد كنت أحلم بإنسان طيب ورفيق وفيه بعض الطفولة. وجدتك، ولا أريد أن أفقدك. ربما تظني غير طبيعية، ربما تفكر بأني أشعر بالوحدة وبال الحاجة الجسدية والحنين لصدر رجل لأن زوجي آدم يكبرني في السن كثيرا، لا أبدا ليس هذا، فأنا لا أميل إلى ذلك، وأنه ما زال قويا، برغم أن حاجتي إلى إنسان مثلك لا توصف ولا يمكن ربطها بعالم الجسد المادي. إنها رغبة في التكامل الإنساني، التكامل الوجودي. لا أدري كيف أوضح ذلك.. هل تفهمني؟

- أفهمك.. أفهمك جدا.. أنا أيضا أحتاجك.. أحتاج لحضورك الطاغي في حياتي ووجودي.. منذ أن قابلتك صرت لا أستطيع تخيل العالم بدونك، لا أستطيع أن أتخيل حياتي بدون وجودك فيها.. لكن ماذا لو عرف الأستاذ آدم؟

- من أين له أن يعرف؟ وما دامت هذه العلاقة صافية وواضحة وغير ملوثة، فأنها لن تخيف حتى لو تم اكتشافها، وبالمناسبة أنه معجب بك، برغم ما قلته عن غيرته منك.

- معجب؟

- نعم..

ابتسمت حواء الصايغ قليلا، وأرادت أن تتعد من موضوع حديثهما السابق لأنها أحست أنهما لو استمرا فيه الآن فربما سينتهي الأمر بكارثة، إذ أحست أن آدم المطرود برغم عمق مشاعره وصدقها حينما عبر عن حبه لها إلا أنه كان يشع رغبة فيها أيضا وهذا ما أخافها قليلا، فهي لم تفكر في هذه المنطقة الملتهبة من العلاقة حينما أرادت بكل وضوح أن يكون صديقها الوحيد، لذا عليها أن تدير الشراع نحو اتجاه آخر، وقالت:

- تصور أننا بعد لقائنا بك في تركيا التقينا أصدقاء لنا في جنيف، وكان بينهم أحد المهندسين، فأراد زوجي أن يبين معارفه في فن العمارة، وأخذ يردد المعلومات التي سمعها منك وكأنها معارفه، ولكونه ليس صاحب المعلومات أساسا، ولأن الهندسة وفن العمارة ليس حقله، فإنه أفسد المعلومات لأنه وضعها في غير موضعها، فحصلت بلبلة في النقاش لأن المهندس الآخر كان من مؤيدي تيار ما بعد الحداثة في العمارة، ولم يستطع زوجي أن يدافع عن رأيه ولا أن يواصل النقاش، مما عكر عليه مزاجه ذلك اليوم كله وظل غاضبا من المهندس الآخر. والغريب أنه كان غاضبا منك أيضا، وكأنك السبب في هزيمته بالنقاش، نعم هزيمته، لأن كل شيء لديه هو معركة، أنت أسميتها صفقة، فهو لا بد أن يخرج منها رابحا أو متصرا مليئا بالزهو، وهذا الأمر يتكرر في الفن التشكيلي، فكثيرا ما يسمع آراء فنية فيتبناها وكأنها رأيه، وأحيانا تكون هذه الآراء متعارضة ومتناقضة تناقض التيارات والمدارس الفنية، لكنه في هذا المجال حينما يُحاصر يستطيع أن يجد منفذا، لأنه بالأساس تاجر في مجال الفن، أما في مجال فن العمارة فلم يكن سوى استعراضي بائس لم يجد من مفر سوى إثارة البلبلة ثم التراجع.

- بدأت أخاف منه.. لم أنتبه لهذا الأمر فيه..

- علي أية حال.. أرجو أن تنتبه لنفسك.. سأحاول الاتصال بك على
المكتب.. هل يمكنني ذلك؟

- بكل تأكيد

- هل أنت وحدك في المكتب أم مع شركاء؟

- لا.. المكتب لي وحدي.

- هل لديك مكتب سكرتارية

- نعم.. لدي سكرتيرة.. حواء

- ألا يضايقك أن أتصل بك؟

- أبدا... وأتمنى أن تشرفيني بزيارة المكتب..

- هذا شيء صعب.. لا أعدك فيه.. فكل حركة من حركاتي

محسوبة.. وآدم يعرفها أو يجب أن يعرفها، بل هو يسأل المساعدة

في خدمة البيت عن تحركاتي وتصرفاتي حتى داخل البيت، لا

لأنه يشك في، لا وإنما يخاف عليّ ويريد أن يوفر لي كل سبل

الراحة كما يقول، علما أن هذا يضايقني جداً، لأنني أشعر وكأنني

سجينة حبه واهتمامه، إلى جانب أنه لا يأتني الوضع في البلاد،

إذ أحيانا يسرني بأن بعض رجال القمة يرسلون إلى الشوارع من

يلتقط لهم النساء الجميلات كي يخطفوهن، أو يصلوا إليهن،

وإلى أزواجهن بطرق ملتوية آخرها التهديد.. بالمناسبة، هل هذا

صحيح أم أنه يريد أن يخيفني فحسب؟

أحس آدم المطرود ببعض الخوف، أحس أنه يدخل منطقة مليئة

بالألغاز، لكنه أرتاح بأن حواء الصايغ وزوجها آدم الولهان ليسوا من

اتباع السلطة، لذا يمكن الحديث معها بحرية، فقال:

- هذا صحيح جداً.. فالسيد الرئيس وأبناؤه لديهم فرق خاصة تقوم

بهذه المهمة، بل ويقال إن المنظمة النسائية التابعة لحزب السلطة

مهمتها توفير الفتيات الجميلات للمسؤولين الحزبيين وحسب

الأهمية والمنصب.

شحب وجه حواء الصايغ قليلا وقالت بخوف:

- أين نعيش نحن؟ وفي أي البلاد؟

أراد آدم المطرود أن يغير مسار الحديث ليعود إلى زيارة مكتبه،

فقال:

- على أية حال. لا أريد أن أضايقك، لكن يشرفني زيارتك لمكتبي..

نظرت إليه وكأنها فهمت ما يرمي إليه، فقالت مع ابتسامة مرتبكة لا

تنسجم مع ملامح الخوف التي سبقتها:

- دعنا من هذا حاليا، سنفكر فيه لاحقا. بيننا التليفون، وأنت أيضا

يمكنك زيارتنا بشكل متواصل، لكن علينا الانتباه، فأدم صرت

تعرفه جيدا. يجب أن تكون زيارتك بحضوره كي لا يشك بشيء،

إلى أن يعتاد على حضورك، رغم أنه لا يثق بأحد..

في هذه اللحظة رن جرس الهاتف، وبعد لحظات جاءت المرأة التي

تساعد في أمور خدمة الشقة وقالت لحواء:

- السيد آدم على التليفون

- سأتي

في هذه اللحظة نهض آدم المطرود ومد يده مصافحا، وقال:

- علي الذهاب أيضا، شكرا على القهوة

مدت يدها مصافحة أيضا ونظرت في عينيه بعمق وقالت:

- سأتصل بك.. متى هو الوقت الملائم للاتصال كي لا أعيقك

عن عملك؟

- بعد الثالثة دائما.. أكون حينها وحدي تماما..

- وقبل ذلك؟

- قبل ذلك أيضا.. يمكنك الاتصال.. ستجيبك السكرتيرة..

- لا.. يفضل أن تكون أنت على الخط وليس السكرتيرة. لا أريد

أن ينتبه أحد لذلك. المهم سأتصل بك بعد الثالثة من كل يوم

أستطيع فيه الحديث معك.. شكرا لمجيئك..

وضغطت على كفه وبقيا للحظات قصيرة ينظر كل منهما إلى الآخر،
وخرج.

دخل المحقق آدم التكريتي إلى غرفة التحقيق الواسعة وكأنها قاعة
كبيرة، والمعتمة إلا من مصباح يتدلى من السقف الإسمنتي وينشر
ضوءه الفقير على مساحة قليلة فوق رأس المهندس آدم المطرود
والطاولة التي أمامه وكذلك رأس المحقق آدم التكريتي الذي جلس
على الكرسي المقابل. نظر المحقق إلى آدم المطرود وسأل بنبرة قوية
واستفزازية:

– هل فكرت؟ أخبرني الآن عن كل شيء، لماذا قتلت السيدة حواء
الصايغ؟

ارتسمت ملامح الرعب على وجه آدم المطرود وقال:

– أنا لم أقتل حواء الصايغ؟ ولماذا أقتلها؟

– نحن نريد أن نعرف لماذا؟

– أنا لم أقتلها؟

– رجعنا إلى نقطة الصفر. لا تجبرني أن أنتزع الاعتراف منك بالقوة،

هل تفهم؟

– أنا لم أقتلها..

– أسمعني جيدا.. كل الدلائل تشير إليك، بل لدينا معلومات خطيرة

عنك، كنا نتصور أنك أحد الناس المؤيدين للحزب والثورة

واتضح لنا العكس..

ارتعب آدم المطرود عند سماع هذه الكلمات، فالقضية أخذت مجرى

آخر، لقد كان مطمئنا خلال الأيام الماضية من البراءة، لكن القضية الآن

أخذت بعدا سياسيا، ولم يفهم الذي يقصده المحقق.. فقال مرعوبا:

– أنا دائما كنت مع الحزب والثورة.. منذ أيام الثانوية ولحد الآن..

وأنتم تعرفون أنه ليس لدي أي شيء يسيء للحزب والدولة

- من كان يزورك في مكتبك أيام تمرد عملاء إيران ضد الحزب
والثورة

- لا أحد

- لا أحد؟ هل تستغفلنا أيها الحقيير

فجأة، وبدون أي توقع، أحس آدم المطرود بصفعه قوية ومدوية على
وجهه فكاد أن يقع عن كرسيه إثرها.

- حقير.. نحن نعرف كل شيء عنك وعن نشاطك ضد الحزب
والثورة..

- أقسم لكم بكل المقدسات لم يزرنني أحد في مكنتي غير سكرتيرتي

- ومن غير السكرتيرة؟

- لا أحد

صفعه المحقق آدم التكريتي ثانية صفقة أقوى من الأولى فسال دم
من شفتيه، وهو يقول:

- وهذه كي تذكر أيها السافل الحقيير.. كنا نحترمك لكن اتضح أنك

لا تستحق سوى أن نضع الخراء في فمك يا حقير.. ألم تقابل

المقاول آدم الحلبي في مكتبك؟

تذكر آدم المطرود أنه قابل هذا المقال المدعو آدم الحلبي الذي
يكلفه بانجاز مقاولاته التي يحصل عليها من الدولة، وأن لهذا المقاول
علاقات وطيدة بأزلام السلطة، وأنه لم يزره في المكتب سوى مرتين،
وفي كلا المرتين لم يكن أحد في المكتب، فحواء اللهيبي كانت غائبة
عن الدوام تلكما اليومين.

صاح المحقق آدم التكريتي متجهاً بنداؤه صوب باب الغرفة:

- أيها الضبع.. يا آدم الضبع

دخل الغرفة رجل طويل القامة بشكل لافت، مفتول العضلات، أسود

البشرة، كرية الملامح، واقترب على مسافة من المحقق مستعداً بحركة
عسكرية قائلاً:

- نعم سيدي

- شد وثاق هذا الكلب الأجرى إلى الكرسي كي نؤدبه
تقدم المدعو آدم الضبع قليلا ليتأمل آدم المطرود، ثم قال موجهًا
كلامه للمحقق آدم التكريتي:

- لحظة سيدي، سأتي بالحبال

خرج المدعو آدم الضبع من القاعة. أحس آدم المطرود بالرعب،
فبرغم الخدر والورم اللذين يحسهما في وجهه أثر الصفتين، إلا أنه
يخاف التعذيب الجسدي، ولا يتحملة، وهو مستعد أن يقول لهم أي شيء
يريدونه، لكنهم يسألونه عن أشياء ليست لديه علاقة معها، فهو لم يقتل
حواء المجهول، وليست لديه أية نشاطات سياسية، ولم يخطر في باله
أي شيء يمكن أن يفسر بأنه يعارض النظام. إنه لا يفهم ما يدور حوله.
كان المحقق آدم التكريتي يدخن سيجارته وينفث الدخان إلى الأعلى
ويتأمل تطايره في غيوم صغيرة تتعالى نحو المصباح ثم تتبدد في العتمة
التي تحيط الغرفة من جميع جوانبها.

دخل المدعو آدم الضبع إلى الغرفة ثانية وبيده حبل متين. اقترب
من آدم المطرود وأخذه من يديه التي سحبهما إلى الخلف على جانبي
الكرسي وبدأ يشدهما إلى الكرسي ثم بدأ يدير الحبل على صدره
ورجليه، إلى أن صار المهندس جزءًا من الكرسي. وكان المهندس آدم
المطرود مستسلمًا لمصيره استسلام الشاة ليد الجزائر.

حاول المهندس آدم المطرود أن يستذكر وجه حبيته حواء الصايغ
وهي قتيلة فلم يستطع، لكنه استذكرها في مواقف أخرى.

بعد أول لقاء له مع حواء الصايغ على الفطور ظل آدم المطرود
ينتظر اتصالها التليفوني بلهفة شديدة. كان يستعجل نهاية الدوام، وكانت
السكرتيرة حواء اللهيبي مستغربة الحالة التي هو فيها، إذ كان يسألها في
اليوم الواحدة ثلاث مرات أو أكثر إن كان هناك من اتصل بالمكتب فكانت
تخبره بمن اتصل، لكنه يعقب دائما إن كان هناك غير هؤلاء قد اتصل،

فكانت توجيهه بالنفي، وبدأت تلاحظ قلقه وانتظاره ولهفته، ولاحظت أنه أخذ يتأخر يوميا في مكتبه متحججا بأنه مشغول بروايته الجديدة.

في نفس ذلك اليوم مساء كان يحوم حول بنائتهم لكنه لم يستطع الدخول فرجع إلى المكتب ليبقى فيه إلى وقت متأخر جدا، ولم يكن يرغب بمغادرة المكتب فنام هناك.

وفي الصباح الباكر وقبل مجيء السكرتيرة حواء اللهيبي رن جرس التليفون. فنهض متكاسلا وحينما رفع السماعه جاءه صوت آدم الولهان مرحا:

- صباح الخير أستاذ آدم..

- صباح الخير أستاذ آدم..

- أين أنت يا رجل.. افتقدناك.. لم نزرنا منذ أيام.. أرجو أن يكون المانع خيرا..

- والله ظروف العمل يا أستاذ آدم. ما هي أخباركم؟ أنا افتقدتكم أيضا. كيف حال السيدة حواء؟

- إنها بخير وتساءل عنك.. هل لديك اليوم ما يشغلك عن العشاء عنا..

- لا أبدا.. يشرفني ذلك..

- سيكون آدم جورج الشماس معنا أيضا.. سيغادر غدا إلى باريس، بالمناسبة إنك أعجبتة جدا.. ويسعدنا أن يلتقي بك ثانية..

- يسعدني ذلك..

ما أثار استغراب آدم المطرود أن مشهد الزيارة تكرر بتفاصيله وكأنه فيلم معاد، فعندما دخل إلى مدخل البناية جاءه حارس الأمن نفسه ليسأله السؤال نفسه، وعندما ضغط زر المصعد، وحينما وصل وقبل أن تغلق أبوابه دخل العجوز وزوجته اللذان يسكنان الطابق الثالث، سلما عليه وابتسما له. وتكرر وجه المرأة التي تساعد في الخدمة، التي فتحت له الباب، ودعته للجلوس في الصالة، حيث جلس على نفس المقعد الذي

جلس عليه سابقا عند زيارته الأولى والثانية.

أحس وكأنه يحلم، لكن الذي أكد له حقيقة ما يرى هو دخول السيدة حواء الصايغ، بثوبها الحريري الرماني اللون ومعها زوجها آدم الولهان، الذي كان في بدلته الرمادية وقميصه الأبيض وربطة عنقه الحمراء، حيث رحبا به بحرارة، وفي ذلك الوقت رن جرس الباب ففتحه السيد آدم الولهان بنفسه فدخل آدم الشماس وهو في بدلته الزرقاء الأنيقة، ويده كيسا من النايلون وشيء آخر ملفوف بورق الهدايا الثمينة، وتقدم من السيدة حواء الصايغ محييا ماذا ما بيده قائلا بطريقة احتفالية كعادته:

– كل عام وأنت بألف خير أيتها الحواء الجميلة الرائعة، يا أم الجمال
والسحر والعتاء

وقدم لها هداياه، ابتسمت له وفي عينيها نظرات الشكر والامتنان
وقالت:

– شكرا جزيلا آدم.. ليس من داع لكل هذا.. حضورك يكفي
امتقع وجه آدم المطرود وأحس بالخذلان، فقال لآدم والولهان وحواء
الصايغ بأسى حقيقي وغضب خفي:

– لماذا لم تقولا لي إن اليوم هو عيد ميلاد السيدة حواء وإنني مدعو
للاحتفال معكم بهذه المناسبة.

انتبه آدم الولهان وزوجته لاستياء آدم المطرود من عدم إخباره
بالمناسبة لأنه جاء بدون هدية، فقال له:

– لا عليك.. حضورك يكفي.. نحن عادة نكون خارج العراق في
مثل هذه الأيام من الصيف، وكثيرا ما نكون في باريس، لكننا
هذه السنة هنا، ولم نعرف أن كان الوضع يسمح للخروج إلى
أحد المطاعم فقررنا الاحتفال هنا في البيت. وآدم الشماس هذه
السنة هنا أيضا، وهو يعرف أن 7/7 من كل عام هو تاريخ ميلاد
حواء. فلا تتأثر رجاءً. حضورك هو أجمل هدية..

وهنا ابتسم آدم الشماس وقال ضاحكا:

- لا يظل بخاطرك يا رجل.. ربما هذا من حسن حظي فربما كنت
ستجيء بهدية أفضل من هديتي..

فضحكوا جميعاً، وهنا بدأت حواء الصايغ تكشف عن هدايا آدم
الشماس فمزقت الورق الثمين عن الشيء الملفوف فيه فكشفت عن تمثال
مرمرى مستنسخ لأفروديت العارية، والتي كان جسدها شبيهاً بجسد حواء
الصايغ، فأطلق آدم الولهان صرخة إعجاب بينما ابتسمت حواء الصايغ
ونظرت إلى آدم جورج الشماس بامتنان قائلة:

- ألف شكر آدم.. التمثال جميل جداً..

فقال لها آدم الشماس وهو يتألق من كلمات الشكر التي سمعها من
حواء الصايغ:

- في الكيس عطر فرنسي أصيل غير العطور المغشوشة التي تنتشر
في محلات بغداد

فتحت حواء الصايغ كيس النايلون وأخرجت قنينة العطر المغلفة،
وفتحته ثم شمته قليلاً وقالت:

- رائع جداً... هذا آخر إصدار لمجموعة شنيلا من العطور.. شكراً
الثفت آدم الشماس إلى آدم المطرود فرأى الخيبة مرتسمة على
وجهه، فقال مدارياً الموقف:

- لا عليك أستاذ آدم.. امرح.. لا شيء يحدث.. لا أحد يجيء..
الكل باطل وقبض ربح.. لا تحزن إن الله معنا يا صديقي

جلسوا جميعاً. لم يفهم آدم المطرود شيئاً من التدفق اللغوي غير
المتربط لآدم الشماس، ولم يشأ أن يدخل معه في أي نقاش فتوجه إلى
حواء الصايغ بكل كيانه قائلاً:

- كل عام وأنت بألف خير يا سيدتي، رغم أنني أشعر بالغضب لأنني
لم استطع أن أقدم إليك شيئاً في مثل هذا اليوم المتميز..

- لا عليك أستاذ آدم، نحن تقصدنا أن لا نخبرك بذلك فأهم شيء
أن نلتقي ونحتفل، ويمكنك أن تعوض عن هديتك بحديثك

وبحضورك المتميز، وكما قال زوجي آدم فإن حضورك هو
أجمل هدية.

قالت ذلك وهي تضع الهدية على طاولة جانبية، وتدعو الجميع إلى
صالة الطعام التي كانت تتوسطها طاولة الطعام المنظمة بشكل دقيق.
حينما فتح آدم الولهان قنينة الشمبانيا أطلقت صوتاً احتفالياً يبعث
البهجة في النفس، فسكب في الأقداح المخصصة لذلك. رفع الجميع
كؤوسهم، وشربوا بصحة السيدة حواء الصايغ، ثم دعوتهم إلى تناول أنواع
الطعام والمقبلات المختلفة، وحينما خيرهم زوجها بين الجن أو العرق
أو الويسكي، رفض آدم المطرود أياً منها وسأل إن كان هناك نبيذ فرنسي
أحمر ناشف، ففتح آدم الولهان له زجاجة، بينما طلب آدم الشماس كأساً
من العرق اللبناني وصب آدم الولهان لنفسه كأساً من الويسكي، أما حواء
الصايغ فظلت ممسكة بكأس الشمبانيا الذي مسته مساً بشفاهاها مجاملة
لهم ولم تشرب منه شيئاً.

التفت آدم الشماس إلى آدم المطرود وسأل:

- سمعت أنك تجيد التركية إلى جانب الانكليزية

- نعم.. لقد درست في تركيا لذلك أجد تلك اللغة

فسألته حواء الصايغ:

- هل هي لغة جميلة

- لا أدري.. أعتقد كل لغة يعرفها الإنسان تكون بالنسبة له جميلة،

فما دام يستطيع أن يعبر عن نفسه ومشاعره من خلالها فأنها

ستكون بالنسبة إليه لغة جميلة..

علق آدم الولهان:

- هذا صحيح..

- هل تقرأ الأدب بهذه اللغة. سألتها حواء الصايغ

- معظم آداب العالم مترجمة إلى التركية، ربما أكثر بكثير مما

ترجم إلى العربية، إلى جانب أنها لغة شعرية جميلة. من يستمع

إلى قصائد ناظم حكمت بلغتها الأصلية سيعرف جمال هذه اللغة.

– ناظم حكمت شيوعي. علق آدم الشماس
– لا يعينني تفكيره السياسي. فشعره رائع. صحيح أن معظم شعره سياسي، لكن لديه قصائد كتبها إلى زوجته منور أو قصائد كتبها عن لسان زوجته هي في ذرى الجمال والبساطة والرقّة الإنسانية..
– يبدو أنك متحمس له..

– أنا متحمس للجمال. متحمس للشعر وليس للشاعر
نظرت حواء الصايغ إليه نظرة لم يفهمها سواه، نظرة فيها من التحذير والتذكير الكثير، وقالت له:

– لتكن هديتك لي هي أن تقرأ قصيدة بالتركية وترجمها لنا بالعربية..
لكن المهم أن تسمع كيف هو وقعها على أذاننا..

– إنه مقترح رائع... قال آدم الولهان مؤيدا زوجته
– أوه. عليّ أن استحضر أية قصيدة من جرار ذاكرتي. صحيح أنني درست الهندسة بيد أنني كنت مولعا بقراءة الشعر بالتركية، وحفظت الكثير منه، لكنني الآن وبعد مرور كل هذه السنين نسيت الكثير..

– لا تتهرب من إسماعنا شعرا بالتركية ولشاعرك المفضل ناظم حكمت.. علق آدم الشماس

صمت آدم المطرود لحظات ثم رفع كأسه وقال:
– في صحة السيدة حواء الصايغ. سأقرأ قصيدة كتبها ناظم حكمت عن لسان زوجته، وهي بعنوان: رسالة من اسطنبول، حيث أرسلت له زوجته رسالة حينما كان في السجن فصاغها هو شعرا. كانت جميع العيون متعلقة بوجهه، لكن النظرات كانت تخبيء مشاعر مختلفة، وبعد لحظات صمت انطلق آدم المطرود يقرأ بالتركية قصيدة ترجمها في ما بعد لهم كالتالي:

عزيزي،
أكتب إليك من حيث أستلقي،
لأنني تعب.
رأيت اليوم وجهي في المرأة.. انه ممتع،
فالهواء بارد، والصيف لن يأتي،
وأنا أحتاج حطباً بثلاثين ليرة في الشهر،
ومن أين لي بذلك؟
لهذا لفت نفسي ببطانية،
فيما أنا جالسة اشتغل.
الزجاج متكسر، وإطارات النوافذ محطمة،
والسكن، هنا، غير ممكن،
لذا عليّ الرحيل،
فالبيت سينهار، والإيجار مرتفع جداً.
لماذا أقول كل هذه الأشياء؟
أنا أعرف انك ستغتم،
ولكن لمن أشكو همومي؟
لا تؤاخذني،
فإذا كانت النهارات باردة، باردة جداً،
فكيف هي الليالي؟
لقد ضقت ذرعا، مللت البرد،
بينما أرى أفريقيا في الحلم،
وفي الحلم سافرتُ إلى الجزائر، كان الجو حارا،
وأصبت برصاصة قتي جيبني، فسال دمي،
لكني لم أمت.
صرت أحس بالشيخوخة كثيرا،
مع أنك تعلم أنني دون الأربعين.

أقول هذا، فيغضبون، ويلومونني،
وعلى كل حال، لنغلق هذا الحديث.

لقد أطلت الرسالة جداً،
أعتن بنفسك، وأكتب الجواب حالا،
لا تنسني،
اكتب الجواب حالا، ولا تخدعك نفسك،
فتتوهم أن (منور) حكيمة، وتدبر كل شيء
فأنا من دونك مقصوصة الجناح.
لا تنسني،
اعتن بنفسك،
أقبلك من عينيك يا روحي،
جاوبني بسرعة،
لا تحمل همومي،
انسها،
ولكن لا تنسني.

أكان آدم المطرود يقرأ القصيدة بنبرة حزينة مستحضرا حالة منور
زوجة الشاعرناظم حكمت، فتأثر الجميع بالإلقاء وبإيقاع اللغة التركية،
ثم قرأ ترجمتها بنفس الحرارة والتجسيد، فترقرقت الدموع في عينيّ
حواء الصايغ فأخذت منديلا من على الطاولة لتمسح زوايا عينيها من
دموع على وشك الانهيار. ران صمت بليغ للحظات على الجميع، قطعه
صوت آدم الشماس قائلا:

- أشهد أنها لغة جميلة رغم أنني لا أحبها حينما اسمع الأتراك
يتحدثون فيها في باريس أو حينما أكون في برلين.
- إنها قصيدة رائعة.. بسيطة ومعبرة جدا.. لكنها ليست طويلة كما

تقول زوجة الشاعر في القصيدة، علق آدم الولهان
فقال آدم المطرود منتبها لدقة ملاحظة آدم الولهان:
- إنك دقيق جدا أستاذ آدم.. نعم القصيدة في الأصل طويلة جدا،
ولقد حذفت منها أثناء القراءة ما يعادل ضعفيها، لأنني لم أتذكر
تلك المقاطع جيدا..

وفعلا فإن آدم المطرود حذف أثناء القراءة مقاطع طويلة من القصيدة
ليس بسبب النسيان، وإنما لأن تلك المقاطع ذات نبرة سياسية، ولم يشأ
أن يؤكد ما قاله آدم الشماس عن شيوعية ناظم حكمت. أما حواء الصايغ
فقد تلبسها حزن شديد فقامت معتذرة أن ستعود، حينها خيم وجوم على
الجالسين. فجأة قال آدم الولهان محاولاً أن يضيف شيئاً من المرح على
الجلسة فقال:

- النساء خلقن هكذا.. إنهن عاطفيات جدا.. يتأثرن بقصيدة بحيث
تنقلب أحوالهن

- أنا آسف جدا.. لم أكن أعرف أنها سوف تتأثر إلى هذه الدرجة،
قال آدم المطرود معتذراً ومقدماً تبريراته.

- لا عليك أستاذ آدم لم يكن قصدك أن تحزنها، والذنب هو ذنبي
أنا الذي فتحت موضوع اللغة التركية. علق آدم الشماس.

بعد قليل عادت حواء الصايغ إليهم بنفس مرحها السابق وكأنما لم
يحصل أي شيء، فقالت بما يشبه الاعتذار:

- أنا آسفة جداً.. لم يكن الأمر بيدي.. لقد أثرت القصيدة فيّ جداً،
على أية حال الشكر موصول للشاعر ولقارئ القصيدة و مترجمها
على هذه الهدية الجميلة.

- والحزينة.. علق آدم الشماس

انتبه آدم المطرود إلى صوت المحقق آدم التكريتي وهو يصرخ في
وجهه شامتا:

- أيها الحقيير أنا أتحدث معك..

- نعم..

- ما هي علاقتك بالمجرم الخائن آدم الحلبي..

- ليست لدي أية علاقة معه

لم يشعر آدم المطرود إلا وبلكمة قوية جدا تأتيه من آدم الضبع على أسفل فكه تحت شحمة الأذن مباشرة، فانقلب مع كرسيه على الأرض وهو يرفس برجليه مثل الذبيحة لا يستطيع تحريك فكه ووجهه بل ولا يستطيع حتى الصراخ، إذ أحس بالشلل والاختناق وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، ثم غرق في الظلام.

لا يدري كم مر عليه من الوقت وهو ملقى على الأرض لكنه انتبه لنفسه وهو مبتل بالماء البارد، فقد دلق عليه آدم الضبع دلوا من الماء البارد فأفاق، ثم بحركة رياضية أعاد الكرسي وهو مشدود عليه إلى وضعه الطبيعي.

حاول أن يفتح عينيه بصعوبة فوجد المحقق آدم التكريتي ما زال جالسا يدخن سيجارته ماذا رجليه إلى الأمام واضعا إياهما على المنضدة بمواجهته. نظر المحقق آدم التكريتي إليه ثم علق بسخرية:

- ها.. ماذا تقول الآن عن علاقتك بالخائن آدم الحلبي..

لم يستطع آدم المطرود أن يفتح فمه من شدة الألم، أراد أن يجيب لكن فكه كان كالمشلول من أثر اللكمة فلم يستطع سوى أن يحرك شفثيه بدون أن يخرج أي صوت من فمه. فجأة مد المحقق يده وسحب رأسه من شعره وضربها بالطاولة ثم ضغط عليها بكفه على الطاولة التي بينهما، وهو يزمجر:

- حقيير، جبان، منيوك، عرفنا كل شيء عنك، حقيير، تريد أن تصبح بطلا ولا تتكلم. لقد أخبرتنا سكرتيرتك التي زرتها أمس في المكتب عن كل شيء، سأترك آدم الضبع بينك هنا وفي هذه الغرفة، حتى تعرف أننا نعرف كل شيء. بالمناسبة، سكرتيرتك

اعترفت بكل شيء، وقالت لنا إنك في الفترة الأخيرة كنت تبقى بعد الدوام بحجة أن لديك أعمالاً وإنك تكتب رواية جديدة.. عن ماذا تكتب؟ عن كس أمك؟ كما أخبرتنا سكرتيرتك عن علاقتك بعائلة آدم الولهان، وعن زيارتك لهم؟ هل لسكرتيرتك علاقة بخيانتكم للحزب والثورة؟ هل تريد أن تورط زوجها من خلال علاقتك الجنسية معها؟ لقد ذهبنا أنا والضبع أمس إلى مكتبك ونكناها معا أنا وهو، وصورنا ذلك، هل تريد أن نريك كيف نكناها، وكيف كانت ترتجف من اللذة؟ هل تريد؟

كان آدم المطرود يسمع كل شيء، يستوعب كل كلمة قالها المحقق آدم التكريتي، ويتصور الذي جرى في مكتبه مع سكرتيرته حواء اللهيبي، فسالت الدموع من عينيه شفقة على نفسه وعلى السكرتيرة التي أحس في هذه اللحظات أنه يحبها حبا كبيرا. وعلى الرغم من أنه في تلك الحالة المرعبة إلا أنه استغرب اكتشاف حبه لحواء اللهيبي. صوت المحقق آدم التكريتي أخرجه من خواطره الغريبة. سمع المحقق يصرخ عليه:

– هل تعترف لنا بأنك والخائن آدم الحلبي وسكرتيرتك وزوجها معادون للحزب والثورة والرئيس القائد حفظه الله؟

هز آدم المطرود رأسه نافيا، فما كان من المحقق آدم التكريتي إلا أن صرخ في وجه آدم الضبع الذي يقف بالقرب من الكرسي والذي شد آدم المطرود إليه:

– يا ضبع.. هذا الكلب لا يريد أن يعترف.. أريدك أن تنيكه مثلما نكتها أنت أمس، كي يعرف أننا لا نلعب مع من يعادي الحزب والثورة والرئيس القائد حفظه الله.. حضر الكاميرا أيضا.

استعد آدم الضبع بحرك عسكرية وقال:

– حاضر سيدي، الكاميرا جاهزة أيضا.. هل أقوم بالواجب الآن سيدي؟

– نعم.. الآن.. وأمامي.. أريدك أن تشقه شقا فأنت وأيرك الذي

يشبه أير الحمار متخصص لهذه المهمة.. أنجز عملك بسرعة..
وأمامي..

وبحركة سريعة جذب الشرطي آدم الضبع المهندس آدم المطرود ليحل وثاقه عن الكرسي ويلقيه على المنضدة، على وجهه بحيث يبقى ظهره ومؤخرته مكشوفة له. أخذ الحبل ليشد يديه الممتدتين والمتدليتين من طرف الطاولة من جهة المحقق بأطراف المنضدة، ثم نزع بنطاله وسرواله دفعة واحدة، وذهب للحظات وجاء وفي كفه مرهم مسد به فتحة شرح المهندس، ومسد عضوه الكبير بالمرهم أيضا، ثم اقترب من آدم المطرود الذي كان ملقى على الطاولة كالذبيحة.

لم يمر آدم المطرود بتجربة مؤلمة في حياته مثلما مر خلال هذين الأيام الأربعة، حينما اقترب آدم الضبع منه، أحس أن العالم كله يدخل فيه، أحس بالاختناق والتمزق، جحظت عيناه وأرادت أن تقفز من محجريهما لو كان ذلك ممكنا. أحس بالإذلال والانحطاط، وفجأة شعر برغبة بالتبرز، ولا إراديا تدفق برازه ملوثا الضبع وجسده والأرض.

ابتعد آدم الضبع عنه وهو يسب ويشتمه، بينما تعالى ضحك المحقق آدم التكريتي عاليا، بل اختنق من شدة الضحك، فتركهما خارجا من الغرفة، وغرق آدم المطرود في الظلام.

لم يكن آدم المطرود يعرف ما جرى خلال الأيام الأربعة الماضية، منذ لحظة دخوله إلى مبنى جهاز التحقيقات. ففي نفس اليوم الذي تم استدعاؤه فيه، تم إلقاء القبض على المقاول آدم الحلبي نتيجة إخبارية كيديه رفعها إلى جهاز المخابرات والمنظمة الحزبية أحد المسؤولين الحزبيين الذين كان يتعامل مع المقاول آدم الحلبي، وكانا قد تناقشا عن تدهور الوضع السياسي أيام الانتفاضة الشعبي المجهضة قبل ثلاث سنوات، وانتقد كلاهما النظام، لكن بعد سيطرة النظام على الوضع وقمع المتفضين ظل كلاهما يخاف أحدهما الآخر، وحينما وقع المسؤول الحزبي في إشكالية مالية وشخصية لمنحه بعض المقاولات التي أرادها

المسؤولون الأعلى لأنفسهم، وضعوا له شركا سياسيا لكنه كان يظن أن آدم الحلبي هو الذي قام بذلك فرفع فيه تقريرا يكشف عداه للحزب والثورة ويسرب بعض المعلومات عن علاقاته، فألقي القبض عليه وفي التعذيب اضطر إلى الاعتراف بأنه مع أشخاص آخرين يلتقون ويبدون امتعاضهم من الحزب والثورة، ومن بين هؤلاء المهندس آدم المطرود، الذي كان بين أيدي السلطة في قضية أخرى هي اتهامه بجريمة قتل حواء الصايغ.

لم يقتصر أمر الاتهام بخيانة الحزب والثورة والرئيس القائد على المهندس آدم المطرود بل شمل سكرتيرته حواء اللهيبي وزوجها الذي لا يعرفه ولم يقابله قط، وصديقه المهندس آدم الصاحب أيضا. تم اعتقال الجميع، بعد أن كبسوا مكتب المهندس آدم المطرود في اليوم الثالث صباحا، حيث أقتحم المحقق آدم التكريتي والضيع وعدد آخر وقفوا عند باب المكتب وفي أسفل البناية التي يقع المكتب فيها. فوجئت السكرتيرة حواء اللهيبي وخافت، لكنها اطمأنت أول الأمر عند رؤية المحقق آدم التكريتي، فقد كان قد مر على المكتب لمقابلة المهندس آدم المطرود، وتحدث حينها معها، وكانت قد أعجبت به بجمالها وأنوئتها.

ما أن دخل المحقق آدم التكريتي وخلفه آدم الضيع حتى مضى إلى حيث تقف حواء اللهيبي التي وقفت مندهشة، خائفة، مترقبة. نظر المحقق آدم التكريتي إليها وبدون أن ينطق بأي كلمة صفعها بشدة على وجهها فانقلبت متدحرجة على الأرض دافعة كرسيها لعدم قدرتها على حفظ توازنها. لم تستطع السكرتيرة حواء اللهيبي، التي فوجئت بالصفعة القوية أن تقول شيئا، وحينما أرادت تجميع نفسها وفكرها، سمعت المحقق آدم التكريتي يوجه الشخص الذي معه بأن يذهب ويأتي بالكاميرا، وعليه الانتظار عند الباب إلى أن يناديه. وبدون رحمة مضى المحقق إلى خلف الطاولة وسحب السكرتيرة

التي ما زالت ملقاة على الأرض. لاحظ أن ثوبها قد انحسر عن فخذيها، فسحبها من يدها، وسحلها سحلا إلى غرفة مكتب المهندس آدم المطرود. وبينما هو يسحلها حاولت هي المقاومة وهي تصرخ:

– لماذا تضربني؟ ما الذي فعلته؟ هذا اعتداء؟

وحينما وصل غرفة المكتب، ومن دون أن ينطق بشيء رفعها لتقف ثم صفعها على خديها مرات عدة ثم ألقاها على الأريكة بين نظرات الرعب التي كانت تطل من عينيها.

أخذت تستوعب ما يجري بأنه يريد أن يضاجعها، فحاولت أن تلملم نفسها، لكن المحقق آدم التكريتي لم يترك لها الفرصة، فقد فتح فخذيها رافعا ثوبها إلى الأعلى ويده الأخرى فك حزامه ونزع سرواله. لم تستطع السكرتيرة أن تقاومه كثيرا، فقد صرخت صرخة قوية: لا. لا. ماذا تفعل أستاذ آدم؟

لكن المحقق آدم التكريتي لم يشغل نفسه بصراخها ومقاومتها الضعيفة، فقد كان يمسك بساعديها في كفه، وبكفه الأخرى حاول أن يدفع سروالها الرقيق جانبا بحيث لا يعيقه ثم أولجه فيها.

استغرب المحقق آدم التكريتي أنها كانت حلقة، رطبة، ومبتلة، ومتهيجة، فدخل فيها بقوة وضغط نفسه بكامل جسده، ثم أطبق فخذيها إلى الأعلى مما سمح له أن يولجه فيها بسهولة وأن يسيطر عليها بالكامل، ويتحرك فيها كالمجنون.

خلال هذه اللحظات القليلة مرت آلاف الاحتمالات والتصورات في ذهن حواء اللهيبي: ما الذي جرى مع المهندس آدم المطرود الذي اختفى منذ ثلاثة أيام؟ وما هو السبب الخطير الذي دفعهم لضربها واغتصابها؟ ما الذي يجري؟ كانت ثمة رعب ممزوج بتهيج ولذة خارجة عن إرادتها.

كان المحقق آدم التكريتي قد قذف بكل حقه فيها، وانسحب منها فانهارت هي عاجزة عن أن تقول شيئا، وأخذت تلملم جسدها، وأرادت

أن تنهض لتذهب إلى الحمام كي تغتسل، إذ أن مني المحقق التكريتي بدأ يخرج منها ملوثا سروالها وفخذيها وثوبها، وما أن أرادت النهوض حتى جاءتها صفة من المحقق، صارخا فيها:

- إلى أين أيتها العاهرة؟ إلى أين؟ نحن هنا لتخبرينا كل شيء عن مؤامرتكم ضد الحزب والثورة والرئيس القائد حفظه الله؟

صعقت السكرترة حواء اللهيبي عند سماعها تلك الكلمات، فانهارت بالكامل دون أن تقول شيئا. وخلال هذه اللحظات أقفل المحقق آدم التكريتي حزام سرواله وخرج مناديا آدم الضبع أن يدخل مع الكاميرا، ثم رجع بعد لحظات إلى غرفة المكتب فشاهد أن السكرتيرة قد انكشمت على نفسها مذعورة، مرعوبة، ومنهارة، تحديق إلى الفراغ.

دخل الضبع ويده الكاميرا. نظر المحقق آدم التكريتي إليه غامزا بعينه أن يغتصبها ثم أخذ الكاميرا من يده ليصور المشهد. بحركة آلية، تقدم الضبع منها، إلا أن المحقق طلب منه أن ينزع ملابسه بالكامل، فنزع عنه قميصه وسرواله وتقدم منها.

كانت هي لائذة بالأريكة فسحبها بخفة ملقيا إياها على الأريكة نازعا عنها سروالها وثوبها، وفاتحا فخذيها إلى أقصى ما يمكن وجلس بين فخذيها. كانت هي ترتجف، صامتة، تائهة النظرات، ثم فجأة مسكت يديه وهي ترتعش من اللذة، ولم يسمع منها سوى كلمة: لا، التي دوى المكتب مرددا صداها.

كان المحقق آدم التكريتي يصور عملية اغتصاب الضبع للسكرتيرة حواء اللهيبي بالكاميرا، وحينما انتهى منها تركها تلملم نفسها، تطبق ساقها على نفسها، وتنكمش لائذة بجانب الأريكة وهي تبكي بكاء صامتا.

أراد آدم الضبع أن يلبس سرواله إلا أن المحقق آدم التكريتي المنشغل بالتصوير أشار إليه بأن لا يلبس شيئا، ثم أخذ بالتحقيق معها، سائلا عن كل تفاصيل حياة المهندس آدم المطرود، وعلاقاته، وأصدقائه، وعلاقته

معها، مهدداً بأنه سيدع جميع الرجال الذين معه وهم أكثر من عشرة أشخاص ينيكونها إذا لم تتكلم بصراحة شديدة معهم، لاسيما وأن المهندس آدم المطرود قد أترف بكل شيء.

لم تفهم السكرتيرة حواء اللهيبي ماذا يعني المحقق؟، فلقد كانت في حالة انهيار نفسي كامل، وتشتت فكري هائل، لذلك أخذت تجيبه على جميع أسئلته، ولم يكن أمامها إلا أن تروي له كل شيء، كل شيء. بعد ذلك طلب منها المعلومات عن حياتها العائلية وزوجها ومكان عمله، وهددها بأنه سيذهب بهذا الفيلم المصور إلى زوجها وأهلها، فانهارت بالكامل.

بعد أن سجل المحقق آدم التكريتي مشاهد الاغتصاب، وكل الأسئلة وأجوبتها عليها، أخذ يفتش في المكتب فوجد خرائط لها علاقة بعمل المهندس آدم المطرود، ومخطوطات ودفتر لنصوص شعرية، فطلب من آدم الضبع أن يأخذها معه، ثم طلب من حواء اللهيبي أن تلبس ثوبها، وخرج من غرفة المكتب، تاركا الضبع معها طالبا منه أن يأخذوها معهم للتحقيق.

كل هذه التفاصيل لم يعرفها آدم المطرود، لكن عرف أنهم كانوا في المكتب، وأنهم اغتصبوا حواء اللهيبي بل وصوروا عملية الاغتصاب.

حينما وصلت إلى الصفحات التي توصف عملية تعذيب المهندس آدم المطرود أحست بالرعب، وأحست بانقباضات في بطنها وضيق في تنفسها، ولما واصلت القراءة وقرأت ما جرى مع السكرتيرة حواء اللهيبي لم تتمكن من البقاء في الغرفة، إذ أحست بضرورة الذهاب إلى الحمام، إذ شعرت بالإسهال.

الرعب الذي سيطر عليها سبب لها إسهالا حقيقيا، لقد كانت حواء المؤمن مرعوبة وشبه منهارة، قضت وقتا طويلا في الحمام. كان إسهالها قويا، نزلت من جوفها فضلات كالماء الأخضر.

لكن هل يتحدث زوجها الدكتور آدم التائه عن بلدها الذي هو العراق أم عن بلد آخر؟ هل كل هذا يجري في العراق؟
ما الذي سيحصل مع هؤلاء يا ترى؟ مع المهندس آدم المطرود وحواء اللهيبي التي أخذها الشرطة معهم؟ ومن قتل حواء الصايغ؟ لماذا لم يكمل زوجها قصة العلاقة بين المهندس آدم المطرود والسيدة حواء الصايغ؟

كانت في شوق لمواصلة القراءة لكنها كانت خائفة أيضا. لذا حينما خرجت من الحمام، ذهبت مباشرة وأغلقت باب الشقة بالمفتاح وعادت إلى غرفة الاستقبال لمواصلة بقية القصة التي بقيت منها بعض الصفحات.

أحس آدم البغدادي بعنف هذا الفصل لاسيما تفاصيل التعذيب والاعتصاب. لكن لماذا حطم الدكتور آدم التائه بطله المهندس آدم المطرود بهذه الطريقة المرعبة والمقززة، خاصة في مشهد اغتصابه من قبل آدم الضيع، وتبرزه أثر عملية الاعتصاب؟؟
من أين أتى الدكتور آدم التائه بهذه التفاصيل المرعبة؟ هل هي مما قرأه أو سمعه من المعذبين العراقيين الذين يعدون بمنات الألوف أم أنها مجرد تهويمات وتخيلات روائية؟
ولماذا ركز على تفاصيل اغتصاب السكرتيرة حواء اللهيبي إلى هذا الحد بحيث يوصف المني الذي أخذ يسيل من فرجها أثر اغتصاب المحقق لها، أو مسحه من قبل رجل الأمن آدم الضيع بسرورها وتفصيل اغتصابها المدمر؟ ما الذي يريده من وراء ذلك؟

ربما استطاع الدكتور آدم التائه أن يوصل أجواء الرعب الحقيقي التي يعيشها الناس في العراق في تلك الفترة، وربما أستطاع لنا أن يجسد من خلال هذه الأحداث الرعب الذي كان هو يعيشه؟

أم يا ترى أن التركيز على الجنس والتفاصيل الجنسية ليست إلا محاولة لا واعية منهما كلاهما: آدم البغدادي والدكتور آدم التائه، على الجانب الحيواني في الإنسان، على انحطاطه وانتمائته الأبدية لمملكة الحيوان التي ليس لديها من هم سوى الأكل والجنس.

وأن أية محاولة للسمو عن عالم الحيوان في مجتمع منفلت الغرائز، مثل محاولة الحب بين المهندس آدم المطرود والسيدة حواء المجهول، ستبقى محاولة يائسة تذبح وتقتل بطريقة مجهولة.

(13)

كان آدم المطرود عاريا بالكامل، وملقى على أرضية الغرفة الباردة ملوثا بالغاائط والبول الذي يحيطه. شعر بألم وهو يفتح عينيه المتورمتين والمليئتين بالدم من أثر الضرب، وأحس أن فمه ثقيل جدا، وكأن ثمة حجراً ثقيلاً وضع على فمه، وحينما أراد أن يفتحه أحس بأن شفتيه متورمتان ومطبقتان معا حيث تخثر الدم، وأحس ألما شديدا في فكه وثمة فراغا في فكه الأمامي، فحاول تحريك لسانه، فانتبه إلى أن بعض أسنانه الأمامية قد سقطت نتيجة اللكمات التي وجهت لفمه أثناء التحقيق، وأحس بأنه مشقوق إلى نصفين من الأسفل، وأن نارا ملتبهة تغور في شرحه.

فكر للحظات بأنه ربما ميت، ثم بدأ شيء من الصحو يقشع ظلام ذهنه شيئا فشيئا. انتبه لحاله وللمكان الذي هو فيه، ولما جرى معه بصعوبة، وحاول أن يستعيد الأحداث التي مرت وأن يجد لها من علاقة مستخدما ذاكرته الإبداعية الروائية، فلم يجد.

هل قُتلت حواء الصايغ حقا أم أنها لعبة من الأعيههم مثل لعبة المقالول آدم الحلبي؟ ومن أين يعرفون تفاصيل علاقته معها؟ لا، إنهم لا يعرفون تفاصيل علاقته بل يعرفون أنه زارهم، وعدد مرات الزيارة وهذا يمكن أن يعرفوه من خلال حارس البناية الأمني، فربما إذاً لا يعرفون شيئا عن علاقته بحواء الصايغ، وربما مسألة مقتلها ليس أكثر من تمثيلية. لكن لماذا كل هذا اللف والدوران وهو الشخص المسالم الذي ليس لديه أي نشاط سياسي لا مع ولا ضد، بل إنه واحد من ملايين الأشخاص الذين دخلوا الحزب حفاظا على حياتهم ومصالحهم الشخصية، وهم يعرفون

ذلك، فلماذا كل هذا الذي جرى معه؟

لماذا عملية اغتصابه؟ أحس بالخجل من عملية تبرزه أثناء الاغتصاب، وسمع قهقهات المحقق آدم التكريتي تتردد في ذاكرته. استغرب من نفسه لخجله من التبرز أثناء الاغتصاب أكثر من خجله من الاغتصاب نفسه؟ فجأة انبثقت حواء اللهيبي في ذاكرته، كيف هي الآن؟ وهل صحيح كل ما جرى معها، أو أنه من باب التهديد والترهيب، لكن لماذا يهددونه ويرهبونه؟

فكر للحظة بأن المحقق آدم التكريتي قد زار المكتب ذلك اليوم ولم يكن هو موجودا، ربما أعجبه حواء اللهيبي وأراد الحصول عليها فخلق كل هذه القصة؟ وربما رأى حواء اللهيبي قبل ذلك؟ وأنه قد عرفها قبل المجيء إلى المكتب بحجة التحقيق معه؟

ربما هي تعمل معهم أصلا وقد أرسلوها إليه خصيصا؟ لقد رآها وهي تفتش في مكتبه وأنها ارتبكت حينما رأته، فلماذا كان تفتش يا ترى؟ هل هي التي زودتهم بمعلومات عن طبيعة علاقته بحواء الصايغ؟ لماذا تفعل ذلك؟ هل هي الغيرة؟ هل هي تحبه إلى درجة تؤذيه؟

تذكر أن أحد المفكرين الروس، الذين تحدث عن حب المرأة، أكد بأنه يستغرق وجودها كله، ومن ثم فهي على استعداد لأن تضيع في الحب، وأن يستحوذ الحب عليها. ومن الممكن أن يكون حبها ساما وخطرا ومميتا، أن يكون حب مليء بقوة طاغية، شريرة، لا تعرف الرحمة أو الشفقة. هذا الحب الذي يتحول إلى غيرة طاغية عمياء، فهناك نساء أبالسة، بل إن إبليس أكثر رحمة منهن حينما تملكهن الغيرة.

حاول أن يبتسم مع نفسه، فلم يستطع لتورم فكه وشفثيه وجرحهما، فابتسم بذهنه، ساخرا من نفسه، تُرى في أية حال هو حتى يفكر بتحليل مشاعر الحب والغيرة ويستذكر أقوال مفكر روسي؟

هل سيخرج من هذا الكابوس؟ عليه أن يستذكر كل التفاصيل كي يستطيع أن يدونها في روايته الجديدة؟ فجأة أحس بنفسه يتبول دون

إرادته، وأحس ببوله يتسرب تحته دافئا، فشعر بالتقزز والراحة أيضا.
في هذه اللحظات بالذات دخل الغرفة شرطيان. اتجه الشرطيان إلى الكرسي الذي كان منقلبا على الأرض، فرفعه أحدهما لينصبه على قوائمه الأربع، ثم اتجها إلى آدم المطرود الذي كان مسجى على الأرض، فأخذه من أبطيه وأجلساه على الكرسي بعريه. ذهب أحدهما إلى جانب الغرفة وعاد حاملا دلوا مليئا بالماء البارد وسكبه على آدم المطرود.
فز آدم المطرود وانتعشت أعصابه نتيجة الماء البارد الذي سُكب عليه، وانتبه لمكانه وللشرطيين اللذين يقفان أمامه، وخلال هذه اللحظات دخل المحقق آدم التكريتي إلى الغرفة أيضا. لم يستطع آدم المطرود أن يرفع رأسه، إلا أنه انتبه إلى أن المحقق آدم التكريتي يقف أمامه، ثم سمعه يقول له بنبرة فيها تهديد وشماتة:

– هل ما زلت مصرا على عدم الاعتراف؟

وبالكاد حاول آدم المطرود أن يفتح فمه بكلمتين:

– بماذا؟

– بالمؤامرة ضد الحزب والثورة أيها الحقيير؟

– أي مؤامرة..

ولم يكمل جملته إلا وشعر بصفعة قوية تركت طنينا في أذنيه وألما كبيرا في رأسه، وتوجه المحقق بكلامه إلى الشرطيين قائلا:

– يبدو أنه يريد أن يلعب معنا دور البطل الصامد، ولا يدري بأن

جميع من معه قد اعترف.

ثم توجه بكلامه إلى آدم المطرود وهو يصرخ فيه:

– يا كلب، هل تريد أن نأتي بمن كان معك واعترف عليك؟

– أنا لا أعرف أحدا..

وما أن انتهى من جملته حتى جاءته لكمة قوية دحرجته هو والكرسي على الأرض، فقام الشرطيان برفعهما معا، وسمع صوت المحقق يقول لهما:

- جيئوني بالمتهمين الذين اعترفوا ضده..

كان وجه آدم المطرود ينزف دما، ولم يكن محددا من أين ينزف الدم، من فمه أم أنفه لأن وسط وجهه كان متورما ومدمى بالكامل، وفي لحظات دخل الشرطيان وهما يسحلان شخصا قد تم تعذيبه أيضا وقرباه منه بحيث صار وجهه في دائرة الضوء، ومسك المحقق آدم التكريتي برأسه ورفعته إلى الأعلى كي يتعرف آدم المطرود عليه، وهو يزمجر بحقد:

- هل تعرفه.. هذا أحد الشركاء في المؤامرة، وقد اعترف ضدك..
أعرفه؟

حاول آدم المطرود أن يتبين الوجه المعذب الذي يعود لرجل في الخمسين من العمر، أصلع الرأس، متورم الشفتين والجفنين، فلم يستطع أن يتعرف عليه برغم كل الألم الذي يحسه، فهز رأسه نافيا، فصرخ المحقق بعصبية:

- يا كلب وابن الكلب تريد أن تستغفني.. تقول لا تعرفه.. أتعرف من هذا.. أنه زوج القحبه العاهرة الساقطة سكرتيرتك.. هذا هو القواد زوجها.. إنه شريكك وقد اعترف عليك..

على الرغم من الألم الذي فيه أحس بالدمع يتترقق في عينيه وارتجاف في قلبه من الألم والشفقة على هذا الرجل المسكين. لم يكن آدم المطرود يسمع صرخات المحقق آدم التكريتي، وانما كان يراه، من خلال عينيه اللتين بالكاد يفتحهما، يفتح شديقه بوجهه الذي يكاد ينفجر من الغضب والحقد، وفجأة زال الطنين فسمعه يصرخ مزمجرا:

- هناك شخص آخر لا يمكنك أن تهز رأسك بأنك لا تعرفه، وقد اعترف بمشاركتك في المؤامرة أيضا.

وأشار للشرطيين بأن يذهبا بالرجل الملقى أمام الكرسي، وأن يأتيا بالآخر، وبعد لحظات جاءا بشخص آخر وهما يسحلاونه، وحينما ألقياه

أمام الكرسي، إرتعب آدم المطرود، لكنه كان في شك مما يفكر فيه، لكنه تأكد من ذلك حينما مسك المحقق بخصلة من شعر رأس الرجل المسجى، وهو يصرخ بنبرة المنتصر:

– وهذا، هل تقول إنك لا تعرفه.. إنه صديقك المهندس آدم
الصاحب..

كان وجه المهندس آدم الصاحب مشوهاً بالكامل وكان مغمى عليه، فتعرف المهندس آدم المطرود على صديقه من خلال قامته وتسريحة شعره، برغم تشوه وجهه من أثر التعذيب.

انكمش وجه آدم المطرود حزناً لكنه لم يستطع البكاء. حدق في وجه المحقق آدم التكريتي الذي كان قد قرب وجهه منه ونظر إليه نظرة جامدة. ظن المحقق أنه يريد أن يقول له شيئاً، لكن وجه آدم المطرود ظل جامداً. أراد آدم المطرود في أعماقه أن ييصق على المحقق لكنه كان عاجزاً عن فعل ذلك وخائفاً. نظر المحقق إليه لحظات ثم انفجر غضبه فجأة وهو يصرخ بغضب منفلت وكأنه كان يقرأ أفكاره:

– أيها الحقير.. التافه.. الجبان.. تريد أن تسخر مني، تريد أن تثبت أنك أقوى مني..

وأخذ يلكم آدم المطرود على وجهه ورأسه وصدره وأينما وقعت كفاه، ولما تعب بدأ يركله ودفعه بركلة فسقط هو الكرسي، فأخذ يضربه بقدمه على رأسه وصدره وبطنه، وكان آدم المطرود تحت قدميه كالجثة، لا يستطيع حراكاً لكن الجسد كان يعبر عن الألم عن كل ضربة يتلقاها، والتوى الجسد بالكامل حينما ركله المحقق بقوة على خصيته ثم غاب عن الوعي.

كان المحقق آدم التكريتي قد فقد السيطرة على نفسه، وتعب من الضرب والركل، فتوقف ليسترد أنفاسه، وبعد لحظات، طلب من الشرطيين أن يسحبوا المهندس آدم الصاحب خارجاً، واستعد هو للخروج وهو يقول لهما:

- صباحا خذوا أوراقهم جميعا، أربعتهم، إلى المكان المتفق عليه
واطلبوا منهم إلا يتأخروا في إنجازها كي نتخلص من هذه
المشكلة بسرعة.. مفهوم

- مفهوم سيدي

- وتلك السكرتيرة القحبة أبقوها عندي لبعض الوقت ثم نقلها إلى
سجن النساء..

- صار سيدي

خرج المحقق آدم التكريتي يتبعه الشرطيان وهما يسحلان جسد
المهندس آدم صاحب، وعند باب الغرفة أطفأ أحدهم المصباح وأغلق
الباب فغرقت الغرفة في ظلام دامس.

كان الظلام دامسا، وكانت أرض الغرفة تدور في رأس آدم المطرود
بسرعة جنونية هائلة ثم تهوي في قاع مظلم جدا مصحوبة بألم وهبوط في
القلب وكأنما القلب هو الذي يهوي من بين الضلوع إلى قاع بلا قرار.
وهناك في قاع الظلام إنثق وجه حواء الصائغ الباسم الحزين. تذكر
أنها بعد عيد ميلادها بيومين اتصلت بالمكتب في حدود الساعة الرابعة،
وكان هو وحده في المكتب. لم يصدق حينها أنه يحدثها من خلال
التليفون، جاءه صوتها رقيقا، حزينا، هادئا، ومتوجسا:

- مرحبا..

- مرحبا

- هل عرفنتي

- وكيف لا أعرفك.. من لديه هذا الصوت الملائكي أولا.. ومن
يأتري يعرف أنني في المكتب ثانيا، وثالثا وهذا الأهم هو أنني
لا انتظر أي اتصال من أية امرأة..

- أوه.. قدمت مجموعة من الحجج الدامغة. كنت مترددة في
الاتصال، فكرت ربما لا تكون في المكتب خلال هذا الوقت،
ثم قررت أن أجرب، ولحسن الحظ أنك موجود..

- أنا أنتظر اتصالك على أحر من الجمر كما يقال
- غريبة هذه اللغة العربية. فبرغم أن جملة أحر من الجمر لا علاقة لها بواقعنا فنحن في عصر التكنولوجيا، إلا أننا نستخدمها كاستعارة منذ مئات السنين.. الآن، مثلا، أفران الحديد والصلب هي أكثر حرارة من حرارة الجمر بآلاف المرات ورغم ذلك لا زال رمز الحرارة هو الجمر.
- هذا صحيح.. ومن أجلك يا سيدتي كنت على درجة ألف فهرنهايتي.. مقبول
- سمع ضحككها على الطرف الآخر من الخط وهي المرة الأولى التي يسمعا تضحك، فقال لها برقة:
- هل تعرفين أنني أسمع ضحكك لأول مرة.. إنك عميقة وحزينة حتى في ضحكك..
- صحيح.. لا أعرف.. اسمع، ماذا تفعل الآن؟..
- لا شيء، كنت بانتظار اتصالك..
- اليوم قرأت نصا بالاسبانية للشاعر لوركا.. وودت أن تسمعه
- كلي آذان صاغية...
- مرة أخرى الاستعارات العربية الغربية.. كلي آذان صاغية.. هل تدري لو أردنا تجسيد هذه الصورة بصريا لوجدناها صورة سريلية غريبة، أن يتحول الإنسان إلى أذن كبيرة هائلة، أو يتحول جسده إلى كتلة من الأذان الصغيرة.
- مرة أخرى تقتنصين هفوات اللغة العربية..
- لا.. ليس للأمر علاقة باللغة العربية.. وإنما باستخدامها.. المهم..
- دعني أقرأ النص الأسباني أولا.. ثم أترجم النص إلى العربية:
- وبدأ صوتها يأتي ناعما وحزينا ووثقا بالأسبانية التي كانت درستها إلى جانب الألمانية في الجامعة، وما أن انتهت من النص الأسباني حتى بدأت تترجمها:

قرطبة

وحيدة وبعيدة..

مهرة صغيرة سوداء، قمر كبير

وبعض الزيتون في خرجي.

ورغم معرفتي بالدروب

فلن أصل إلى قرطبة أبدا.

عبر السهل، في الريح، ثمة مهرة سوداء صغيرة، وقمر أحمر

ينظر إلى الموت

من أبراج قرطبة.

آي.. آي.. طريقي بلا نهاية

أي، يا مهرتي الصغيرة الشجاعة،

أي، أنا أعرف إن الموت ينتظرنني،

قبل أن أصل إلى قرطبة.

قرطبة

وحيدة.. وبعيدة.

– رائع جدا.. هل تجيدين الأسبانية إلى هذه الدرجة التي تنعكس

في ترجمتك

– نعم أجيدها.. لقد درستها إلى جانب اللغة الأصلية التي هي

الألمانية، لكنني عشت فترة ليست بالقصيرة في مدريد، وهذا ما

ساعدني على تقوية لغتي.

– أنا أشفق على لوركا.. راح ضحية المتناقضات السياسية.. مع أنني

أحب شعراء أسبان آخرين مثل متشادو.. وألبرتي..

– أي متشادو منهم لأنهما أخوان وكلاهما شاعر

– أقصد انتونيو متشادو.. الأخ الصغير الذي مات مسلولا في

السجن

– نعم إنه شاعر رقيق جدا.. لكن يبدو أن علاقتك بالأدب الأسباني

جيدة

- تقريبا.. سرفانتس قرب اللغة الأسبانية والثقافة الأسبانية إلى العالم وإلى الأبد من خلال دون كيخوته.. ثم أنا عرفت الأدب الأسباني من خلال نيرودا، وماركيز، لكن دعينا من كل هذا.. لماذا لا تزوريني في المكتب فتتحدث براحتنا بعيدا عن عيون المرأة المساعدة والجاسوسة..

- لا.. هذا صعب..

- هل تخافين أن تكوني وحدك معي صمتت لحظات، ثم جاء صوتها:

- نعم..

- أتخافين مني أم من نفسك..

- لا أدري.. ربما منك أكثر مما أخاف من نفسي

- مني..

- نعم.. منك.. أحس أنك تريدني.. تريد أن تمتلكني جسديا..
تردد لحظات في الجواب، لكنه وعلى طريقته في التعامل مع المرأة،
قال:

- ربما.. أحس أن المحب يصل غايته بالذوبان في المحبوب
- الذوبان في المحبوب ليس بالضرورة يكون في جسد المحبوب
يا سيد آدم، ولأكن صريحة معك.. أنا لا أخفيك ربما لدي رغبة خفية في أعمق أعماقي نحو هذا الشيء، لكنني أعتقد أن الجنس هو التعبير الأمثل عن عدم كمال الإنسان..
- عدم كمال الإنسان؟ أليس الالتحام والاتحاد الجسدي هو غاية الكمال

- لا.. صحيح أن الجنس يعني في الظاهر بلوغ الكمال عن طريق الاتحاد، إلا أنه يعني الخروج من الذات للاتحاد بالآخر.. ثم بعد الإشباع يتم الانفصال ليعود الإنسان إلى ذاته، وتستمر دوامة

الاتحاد والانفصال إلى ما لا نهاية، بينما الحب الحقيقي يتغلب على الانفصال، فالجنس أكبر شاهد على طبيعة الانسان الناقصة وعدم اكتماله، بينما يبقى الإنسان في اتحاد متواصل مع الآخر من خلال الارتقاء بالدافع الجنسي، من خلال الاكتمال والطهارة..

– هذه فلسفة غريبة

– لا إنها ليست غريبة.. دافع عنها الكثير من الفلاسفة والشعراء أيضا.. هل خاب ظنك فيّ.

– ارتبك آدم المطرود، فقال دون أن يستطيع أن يخفي نبرة الإحباط في صوته:

– لا أبدا.. لكنني أختلف معك في هذه النظرة.. أنا أعتقد أن الجسد الإنساني قارة للمتعة واللذة التي في حضورها يرتقي الإنسان إلى ملكوت السماء، ولم توجد أو تخلق هذه المناطق الجغرافية في الجسد البشري عبثا، لأنه حسب رأيك مهمة الجسد للتناسل فقط، أو لإشباع الغريزة فقط، أي أن العلاقة الجسدية بين الرجل والمرأة لا تحتاج إلى أية مشاعر وحب بينهما، لأنها غريزية فقط، بينما الحب شيء مختلف في رأيك..

– لا.. لا أقصد هذا.. أنا معك في أن تكون العلاقة الجسدية بين الرجل والمرأة قائمة على الحب، وإلا فهي حركات حيوانية مقبلة.

– هل لي أن أسألك سؤالا قد يبدو محرجا؟

– أسأل.. فما دام الجواب عبر التليفون فلا إحراج.. ربما وجهها لوجه سيكون ثمة إحراج.. أسأل..

– هل علاقتك بزوجك. أقصد علاقتك الجسدية قائمة على الحب والمشاعر، أو أنها لإشباع الغريزة فقط؟ ولا أضيف التناسل هنا لأنكما بدون أبناء.. عذرا لجرأتي..

صمتت حواء الصايغ لحظات، حتى ظن أنها لا تريد الإجابة وأنها

استاءت من السؤال، لكن جاءه صوتها حزينا:

- من الصعب الإجابة على هذا السؤال، فأنا لم أفكر فيه طويلا.
ربما علاقتي معه أخلاقية، أقصد أنني ألتزم بأخلاقتي التي تؤكد
على منح الزوج حقه في الاستمتاع الجسدي ما دامت هي جزء
من مقومات الزواج.. لكن، وربما أقول ذلك بخجل، يتم ذلك
دون أية مشاعر مني، أنا جسد للمتعة، لمتعة زوجي، وأنا راضية
بذلك، لكنني لا أحس بأن هذه العملية ممتعة أساسا.

- ربما لأن زوجك لم يستطع أن يفجر فيك ينباع اللذة

- لا أعرف، وربما أنا باردة جنسياً.

- من هنا أجد أنك تفصلين بين الحب الجسدي والحب بمعناه
العام.. أو الحب الحقيقي كما تقولين، علما أن الحب الحقيقي
هو حينما يتوحد جسد الرجل بجسد المرأة ملفوفا بخيوط حفية
من مشاعر الحب، أي العودة إلى حالة الكمال حينما كانت جزءا
من جسد آدم.. أي أن التحامهما هو الكمال الحقيقي، ثم لماذا
هذه الطهرانية الساذجة.. التي ربما تكشف عن جوهرها بالعجز
عن اكتشاف منابع اللذة في الجسد البشري..

فقاطعته بمرح قائلة:

- ما هذا يا سيد آدم.. هل تريد غوايتي.. من خلال الحديد عن

منابع اللذة التي أجهلها؟

- ربما

- وتقول ربما..

- نعم.. أنت فياضة باللذة والحنين.. بينما أراك حزينة.. تألقي

واحترقي بنار الحب

- ولا يكون ذلك إلا من خلال الجنس

- نعم..

- الحديد معك ممتع.. وخطير أيضا.. ستتواصل أكثر.. ربما

ستقنعني.. وربما سأقنعك..

– سأقنعك

– أنت واثق من نفسك كثيرا.. هل ثقتك متأتية من كثرة علاقاتك

بالنساء أم من ماذا؟

– لا. من خلال فهمي للنفس البشرية والجسد البشري..

– ستتواصل أكثر..

– أنت تعرفين أن مثل هذا النقاش لا يمكننا أن نمضي فيه أمام

السيد زوجك أو تحت مسامح مساعدتك في البيت. يمكنك أن

تزوريني في مكنتي.. ويمكننا الحديث.. وأعدك أن أكون عادلا

في جدل الأفكار بيننا.. أما أن أقنعك أو تقنعيني..

– سنرى. علي الآن أن انهي الاتصال..

– متى ستتصلين.. غدا..

– ربما..

في تلك الظلمة الحالكة كانت كلمة (ربما) هي التي بقيت تطن في
إذن آدم المطرود وهو يسترجع آخر محادثة له مع حواء الصايغ لأنه بعد
ذلك لم يحدثها أو يلتقي معها.

صحيح أنه بعد ذلك الاتصال التليفوني اليتيم ذهب إلى شقتهم لكنه
ضغط على الجرس فلم يفتح أحد له الباب، فاستغرب الأمر، لأنه حتى
لو كانت قد خرجت فأن المرأة المساعدة في الخدمة يفترض أن تكون
موجودة. ضغط على زر جرس الباب مرات عديدة ووقف لأكثر من
خمس دقائق هناك، لكن بدون جدوى فخرج خائبا.

في تلك الظلمة الحالكة التي تهيمن على غرفة التعذيب حيث روائح
العفونة المتأتية من الجو الخانق وبخار البول ورائحة الغائط المتأتية منه
ومن الغائط المتيبس من معتقلين آخرين كانوا هنا في زنزانة التعذيب
هذه، في تلك الظلمة الحالكة أخذ المعتقل والمتهم والمجرم والخائن،

العاشق الأديب، المترجم والكاتب والصحفي، المهندس الإنسان، آدم المطرود يبكي بحرقة، ووحشة، مفكرا بأمه التي رحلت عن هذا العالم منذ سنوات، وبأبيه الذي رحل بعدها بسنة، وبأختيه اللتين تزوجتا منذ سنين بعيدة حيث تعيش إحداهن مع زوجها خارج البلاد، والأخرى أرملة سقط زوجها في جبهة القتال أثناء الحرب ضد إيران. كان آدم المطرود يبكي ويندب حظه العاثر، ومصيره الغامض.

لا يدري كم مر من الوقت وهو يبكي وينتحب، إذ أحس بتعب شديد ودوار وعطش شديد. أحس بما يشبه اللهب يشتعل في بطنه، وتقلصات وحموضة في معدته، حموضة حارقة أخذت تصعد إلى بلعومه. ثم أخذ يسعل. لم يكن هناك من أحد سوى الظلام الحالك. كور نفسه على بلاط الأرضية الأسمتي، وهوى في بئر مظلمة غاب فيها عن الوعي.

عند ساعات الفجر الأولى حيث الظلمة ما زالت تغطي المدينة، فُتح باب الغرفة - الزنزانة فدخل شرطيان. ضغط أحدهما على زر الكهرباء عن جانب الباب، فأضاء المصباح الشاحب وسط الغرفة الزنزانة. اتجه الشرطيان إلى حيث يتمدد آدم المطرود، لكزه أحدهم بقدمه قائلاً:
- قم.. انهض.. هيا.. وراءنا عمل كثير..

حرك آدم المطرود نفسه بصعوبة، إذ كان يرتجف لا إرادياً. سحبه أحد الشرطيين من يده ساحلاً إياه باتجاه الباب، ثم ساعده الآخر ساحباً آدم المطرود من اليد الأخرى، وقرب الباب، مسكاه من كتفيه، كل من جهة، وأخرجاه من الغرفة دافعين إياه في الجزء الخلفي من سيارة عسكرية كبيرة، فسقط على جسدين ممدودين هناك أيضاً.

لم يتبين هو من هما، وسمع صوت المحقق آدم التكريتي يحدثهما بما يشبه الهمس لكنه صوت مسموع سائلاً إياهما هل جاءوا بكل الأوراق، وسمع صوت أحدهم فعرف فيه صوت آدم الضبع يجيبه بالإيجاب.

تحركت السيارة بهم في تلك الساعة من الفجر، حيث كانت بغداد،
مدينته الحبيبة نائمة بحزن، منطوية على آلامها. كانت الشوارع فارغة،
وقد شعر بذلك من خلال سرعة السيارة العسكرية وعدم توقفها في أي
منعطف أو ساحة.

كان الجسدان اللذان تحته عاجزين عن الحركة، وربما كانا في غيبوبة
أو نائمين، لأنهما لم يتحركا ولم يطلقا أي صوت يدل على أنهما يحسان
بشيء مما يحصل.

كانت السيارة قد خرجت من مدينة بغداد وضواحيها، متجهة إلى
براري بعيدة عن الطريق العام الذي يربط بغداد بمدن البلاد الأخرى.
وبدأت السيارة تنحني وتتمايل عندما خرجت عن الطريق الإسفلتي العام
وأخذت السير في البراري.

بدأت السماء تكشف عن ظلامها، على الرغم من أن الشمس
لم تشرق بعد، وبعد فترة ليست بالطويلة توقفت السيارة، ونزل عنها
الشرطيان اللذان كانا قد رمياه في السيارة، وكان كل منهما مدججا
برشاش مزود بمخزن للرصاص. واستدارا ثم فتحا باب السيارة الخلفي،
وصرخا بهم:

– هيا.. أيها الخنازير الخائنة انزلوا..

لم يستطع أي من الأجساد الثلاثة المرمية أن يتحرك وحده، وكان
المهندس آدم المطرود هو الأكثر علاقة بالحياة من الاثنين الباقيين،
فسحب الشرطي الضبع المهندس آدم المطرود أولا، وأجلسه على
الأرض بعريه، فأحس بقشعريرة برد هزت جسده، ثم سحب الشخصين
الأخرين من أيديهما وألقاهما على الأرض دونما أي اهتمام بهما.
وشيئا فشيئا انتبه آدم المطرود إلى الآخرين حيث تعرف على صديقه
المهندس آدم صاحب الرجل الآخر الذي قيل له بأنه زوج سكرتيرته
حواء اللهيبي.

التف آدم المطرود إلى المكان فاكتشف أنها أرض عراء، وبالتقرب

منهم حفرة فارغة يبدو فمها المظلم واضحاً في هذا الفجر العراقي المريب. سحب الشرطيان الجسدين، أراداً أن يوقفاهما بانتصاب لكن ذلك كان مستحيلاً حيث أن هذين الجسدين لم يقويا على الوقوف، فسحباهما إلى حافة الحفرة، وبطريقة بدائية وهمجية أطلقا عليهما وأبلا من الرصاص.

لم يكن آدم صاحب والشخص الآخر زوج سكرتيرته يعيان ما يجري، ولم يدياً أي مقاومة، فقط حينما انهمر الرصاص عليهما. ندت عنهما صرختان خافتان مع حركة اندفاع جسدي كرد فعل على وأبل الرصاص المنهمر عليهما، وماتا فوراً، فتقدم الشرطي آدم الضبع إليهما وبقدمه دفع الجثتين إلى فوهة الحفرة. وبدأ بتنظيف سلاحه والتأكد من سلامته.

انهار آدم المطرود عندما رأى إعدام صديقه المهندس آدم صاحب، لماذا كل هذا؟ لم يكونا، لا هو ولا صديقه من المعادين للدولة ولم يكن لديهما أي نشاط سياسي ولا أي اهتمام خاص فيها، وكانا يحضران إلى أي نشاط يدعوان إليه، فما الذي جرى، لماذا يجري إعدامهما؟ من وراء كل هذا؟

لماذا بدأت الأمور بقصة مقتل حواء الصايغ وانتهت بمؤامرة ضد الحزب والثورة؟ إنهما بريئان وبرغم ذلك تم تعذيبهما وأعدما صديقه وهو بلا شك سيعدم أيضاً؟ ثم من هو هذا الشخص الثالث؟ يقال إنه زوج حواء اللهيبي؟ هل هو حقاً زوجها؟ وماذا عنها؟ وماذا عن حواء الصايغ؟ هل هي قد قتلت حقاً؟

فجأة أحس بدفق من الرغبة العارمة بالحياة يسري في عروقه، أحس بجذوة الحياة فيه تنبثق فجأة، وفكر للحظة في الهرب، ومع تدفق الحيوية في أوصاله أحس بالرعب يشله، يشل أطرافه ويده، ويطل من عينيه. انتبه الشرطي آدم الضبع إليه، ولرعبه، فصرخ فيه:

– قم.. وأركض..

لم يفهم آدم المطرود ما الذي كان يقصده الشرطي، بينما فهم الشرطي بأن آدم المطرود لم يستوعب ما قاله له، فأشار له بيده أن قم وأرض. استجمع آدم المطرود كل ما في جسده من طاقة وقوة، فنهض بحركة بطيئة، لكنه ظل منحني الظهر، فالتفت إلى الشرطيين، فصرخ الضبع فيه:

- أركض.. هيا أركض..

وقف آدم المطرود مرعوباً ومذهولاً في الوقت نفسه، فأشار آدم الضبع إليه أن يركض للأمام، فبدأ آدم المطرود المشي الذي يشبه الهرولة، لكنه كان يترنح، ولم يكن يخطو بضع أمتار حتى رشقه الشرطي الضبع بوابل من الرصاص على ظهره ومؤخرته فهوى على الأرض يتلوى. في تلك اللحظة بالذات من ذلك الفجر البغدادي الضبابي الكثيف. في تلك اللحظة بالذات رأى المهندس آدم المطرود وجه السيدة حواء الصايغ. كان وجهها كبيراً، كبيراً جداً، بحجم السماء، وهي تنظر إليه من الأعالي والدموع تنزل من عينيها، نادبة مصيره المأساوي الغامض والغريب.

وفي تلك اللحظة اقترب الشرطي آدم الضبع منه فوجده يتسمم ابتسامة عذبة. كان آدم المطرود يتسمم للسيدة حواء الصايغ، بينما استغرب الشرطي الضبع هذه الابتسامة على وجه الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، فاعتبر ذلك سخرية منه ومن جبروت السلطة، فأطلق وابلاً من الرصاص على جبين آدم المطرود مهشماً جمجمته ومشوهاً وجهه بالبسم البريء. فارق المهندس آدم المطرود الحياة وهو يتسمم لحواء الصايغ. لم يكن أمام الشرطي آدم الضبع سوى أن يسحب جثة آدم المطرود ليلقيها في الحفرة المظلمة.

بعد لحظات من الإعدام الجماعي نزل السائق وهو يحمل معولاً، وأقترب من القبر الجماعي وأخذ يدفع بكومة التراب عند حافة الحفرة على الجثث في تلك الحفرة المظلمة. بينما وقف الضبع مصوباً رشاشه

نحو سرب من عصفير الصباح مر فوق القبر الصباحي المظلم، مطلقا سيلا من الرصاص الأعمى.

كانت بغداد بعيدة، وكان الضوء الذي بدأ ينير السماء والأشياء يكشف عن حفر فارغة الأفواه على امتداد البصر، حفرة تنتظر من تلتهمه في أعماقها، وكانت هناك بقع، يبدو من لون التراب المبتل قليلا بندى الصباح أنها ابتلعت أناسا أبرياء ربما تم إعدامهم في مثل هذا الفجر. وكان الناظر إلى هذا المكان يحس وكأنه في مقبرة هائلة، في متاهة لا مخرج أو مفر منها. متاهة بني آدم

النهاية

لا تدري كيف وجدت حواء المؤمن نفسها تبكي بحرقة على مصير المهندس آدم المطرود وصديقه المهندس آدم صاحب وعلى هذا الرجل المسكين زوج السكرتيرة حواء اللهيبي الذي هو مجهول الاسم حتى، وعلى السكرتيرة نفسها.

لكن من أين أتى زوجها الدكتور آدم التائه بكل هذه التفاصيل، ألا يخاف أن تعلم السلطة بما يكتبه ضدها.

أحست أنها لم تكن تتبته لقيمة زوجها ولم تعطه حقه، إذ أثبت انه شجاع وشريف حينما كشف وجه الحكومة وكل هؤلاء الأندال وفضحهم.

وبدون إرادة منها قرأت الفاتحة على أرواح الشهداء الثلاثة، ثم أعقبتها براءة الفاتحة على روح أم الدكتور آدم التائه، وقررت أن تقيم العزاء لثلاثة أيام على أرواحهم وأن تلبس السواد حزنا عليهم.

لكن كيف ستفاتيح زوجها بأنها قرأت قصته التي كتبها؟ لا ضير ستجد طريقة ما، ستقول إنها كانت ضجرة، فلم تجد من طريقة سوى أن تقرأ قصته. لكنها تريد أن تسأله عن مصير السيدة حواء الصايغ، هل ماتت هي حقاً أم كان ذلك لعبة من قبل المحقق شاهين كما كان يتصور ذلك المهندس آدم المطرود؟

وهل هناك مؤامرة أصلاً كما ادعى المحقق آدم التكريتي؟ لا بد أن تسأله.

أحس آدم البغدادي بالحزن على مصائر أبطال الدكتور آدم التائه، وأعجب لتوقفه عند كل هذا الكم من التفاصيل في ما يخص الاعتقال وما جرى خلاله، إلى جانب تفاصيل فجر الإعدام وتفاصيل الإعدام. لكنه يتذكر أن مثل بعض هذه التفاصيل جرت عند إعدام الشاعر الأسباني فدريكو غارثيا لوركا.

صحيح أن الدكتور آدم المطرود كتب بأنه اعتمد على تفاصيل التعذيب والسجن من خلال شهادة كتبها شاعر عراقي اعتقل في نهاية السبعينات، لكنه يتذكر أن هذا الشاعر كتب فيما بعد سيناريو لفيلم تجريبي بعنوان (مقتل القمر) عن إعدام الشاعر الاسباني غارثيا لوركا وتفاصيل الإعدام المشابهة لإعدام المهندس آدم المطرود ورفاقه، وربما هو نسي ذلك.

مع انتهاء حواء المؤمن قراءة قصة (متاهة آدم) أو (المرأة المجهولة) حتى أحس بأن مهمة الكاتب آدم البغدادي الحقيقية قد بدأت، فعليه أن ينتبه لمصير الدكتور آدم التائه ومصير حواء المؤمن، وآفاق علاقتهما في هذا المجتمع الجديد، وعليه أن ينتبه إلى تأثير رواية (متاهة آدم) التي كتبها آدم التائه على سير رواية (متاهة آدم) التي يكتبها هو آدم البغدادي.

الفصل التاسع

تحولات حواء الطؤمن

بعد أن انتهت حواء المؤمن من قراءة قصة (مناهة آدم) أو (المرأة المجهولة) نهضت حزينه دامعة العينين وذهبت إلى المطبخ، وبدأت بتحضير الشاي لنفسها، ثم فكرت أن اليوم هو يوم الخميس واللييلة هي لييلة الجمعة وهي لييلة مباركة تقدم فيها الأطعمة ثوابا على أرواح الموتى بعد قراءة الفاتحة على الطعام قبل أكله.

فتحت الثلاجة وأخرجت دجاجة مجمدة وضعتها في حوض الماء المصنوع من الألمنيوم والفارغ، وأخرجت قدرا كبيرا ملأته بالماء الساخن ووضعت الدجاجة المتجمدة فيه، ثم فتحت الدولاب الخشبي حيث أخرجت عددا من حبات البطاطا، وبعض رؤوس البصل اليباس، وأخرجت كيس الرز البسمتي، ووضعت في صحن كبيرة كمية منه ثم فتحت حنفيه الماء حتى امتلأ الصحن ووضعه جانبا وجاءت بقدر كبير ملأته سكبت فيه الماء من الحنفيه حتى منتصفه، وحملته إلى الطباخ الغازي ثم أوقدته.

بعد ذلك دخلت غرفة النوم وجاءت ببعض أعواد البخور وأشعلتها من نار الطباخ الزرقاء، ومضت إلى غرفة الاستقبال لتضع بعضها في زوايا الغرفة المختلفة ووضعت واحدة في المطبخ ودخلت غرفة النوم ووضعت أعواد البخور في بعض الزوايا، ثم أخرجت من الدولاب ثوبا أسود ودخلت الحمام فتزعت عنها ثوبها وتعرت داخله تحت دش الماء مغتسلة. حينما انتهت لبست الثوب الأسود الذي زادها جمالا وإثارة،

لكنها أرادت أن تقيم الحداد على أبطال القصة الأبرياء الذين أعدموا
ظلما وأن تقيم العشاء والفاتحة على أرواحهم.

بعد ساعة من الوقت كان لدى حواء المؤمن كل شيء قد تم إعداده،
فوضعت قدر الرز على النار الواطئة كي ينضج بهدوء لحين عودة الدكتور
آدم التائه. كانت قد أعدت لنفسها الشاي وشربت كوبا وصبت لنفسها
الكوب الثاني، وها هي تجلس في غرفة الاستقبال وحدها، مفكرة بمصائر
هؤلاء الناس الذين كتب زوجها عنهم.

لم تكن حواء المؤمن تهتم يوما بالسياسة، ومع أنها لم تواصل
دراستها بعد حصولها على شهادة الاعدادية، إلا أنها لم تترك القراءة،
حيث قرأت للشاعر نزار قباني كتابين هما: قصائد متوحشة وقالت لي
السمرء، وللكاتبة إحسان عبد القدوس كتابين أيضا هما: شفتاه، وفي
بيتنا رجل، وللكاتبة عبد الحليم عبد الله كذلك كتابين: لقيطة وشجرة
اللباب، ولجبران خليل جبران: رمل وزبد، والأجنحة المتكسرة والنبى
والأرواح المتمردة، وللرافعي: أوراق الورد، وللمنفلوطي: في سبيل
التاج والنظرات، كما قرأت البؤساء للكاتبة الفرنسية فكتور هيجو الذي
كان أضخم كتاب تقرأه في حياتها، وكانت تفتخر بأنها قرأت مثل هذا
الكتاب الضخم الذي أعجبها جدا. إلا أن الأفلام العربية الرومانسية
والأفلام الهندية من جهة، وطقوس عاشوراء وما يرافقها من عروض
مسرحية دينية وجلسات وزيارات للأضرحة المقدسة من جهة ثانية، هي
التي لعبت دورا في تكوين عالمها النفسي، لكنها تحس أنها تبقى جاهلة
مقارنة مع زوجها الدكتور آدم التائه، الأستاذ الجامعي والكاية المعروف.
وبرغم أنها كانت تسمع بأن هناك من يعمل ضد الحكومة لكنها
تخاف حتى التفكير في مثل هذه الأمور، غير أن قراءة قصة (متاهة آدم)
أو (المرأة المجهولة) زلزلت كيائها. لقد أحست وكأنها كانت في غيبوبة.
لا تدري حواء المؤمن ما الذي يجري في أعماقها، فقد بدأت
تفكر في علاقتها بزوها، أنه ليس سيئا وجافا وقاسيا كما يبدو عليه،

فقد أحست من خلال القصة التي كتبها أنه حساس جدا، وربما هي لم تفهمه ولم تقدر ما يعانیه وما يفكر فيه. يجب أن تخدمه وتوفر له الراحة، فربما هو يقضي معظم وقته خارج البيت لأنه غير مرتاح معها، لكنه أيضا غريب الأطوار، فأحيانا يقترب منها وأحيانا يعاملها وكأنها غير موجودة. أحيانا تحس أنه يقترب منها فقط من أجل متعته، وأحيانا تحس بأنه يحبها ويهتم بها. لا تعرف أي من هذه الوجوه هو وجهه الحقيقي، ربما أنه لا يشعر معها بالراحة لأنها ليست في مستواه الثقافي فلا يستطيع أن يناقشها ولا أن يتحاور معها، لكنه أيضا سألها عن مصير المهندس آدم المطرود وكيف يتم الحكم عليه وهو البريء.

لكن بما أن الشيء المتأكدة منه جدا أن جسدها هو الذي يعجبه، فعليها أن توفر له المتعة التي يحتاجها وعليها أن تهتم بنفسها وبجمالها. في هذه اللحظة طُرق باب الشقة. استغربت لأن زوجها لديه مفتاح الشقة، وهذا يعني أن ثمة أحداً عند الباب، فنهضت ووقفت عند الباب وسألت بالعربية:

– مَنْ؟

– أنا جاركم اللبناني

فتحت حواء المؤمن الباب فواجهها جارهم الأعزب الشاب اللبناني الذي تكاد بابه تلتصق بابهم عند الخروج، وإذا ما صادف خروجهما معا فأنهما يكاد يصطدمان..

سألته مرحبة:

– أهل بالجار.. أحتاج شيئا ما؟

– لا تؤاخذيني، هل يوجد لديكم بعض معجون الطماطم، فقد طبخت ولكن الآن انتبهت انه لا يوجد عندي معجون، ولا أستطيع أن أخرج من البيت لأنني أنتظر ضيوفا في هذا الوقت بالذات.

– تكرم.. لحظة

دخلت حواء المؤمن إلى المطبخ وعادت بعلبة متوسطة من معجون الطماطم. أخذها من يدها فمست أصابعه أصابع كفها، فاحمر وجهها مباشرة. نظر في أعماق عينيها وشكرها، ومد يده في جيبه ليخرج ثمنها، فلاحظت ذلك وفهمت ما ينوي فقالت له مباشرة:

- ماذا تفعل يا جار.. نحن جيران وأهل..

فأخرج يده فارغة وشكرها قائلاً:

- شكرا جزيلاً.. أن شاء الله تزوروني.. فنحن جيران.. وحق الجار

على الجار.. هل تحبين القهوة أم الشاي.. أم النسكافيه..

- أحب الشاي.. بس أحيانا أشرب القهوة

- إن شاء الله تتفضلون يوماً ما عندي على الفطور اللبناني، فول

وزيتون وجبنه ومناقيش..

- شكرا جزيلاً.. لا تشغل نفسك

- على كل حال شكرا جزيلاً على علبه المعجون.

وأغلقت حواء المؤمن الباب وعادت إلى غرفة الاستقبال. تذكرت

فجأة الطعام على الطبخ، فذهبت إلى المطبخ وفتحت غطاء قدور الطعام

وحينما تأكدت من نضج الطعام أطفأت الطبخ، ومن هناك مضت إلى

غرفة النوم وألقت بنفسها على السرير، لكنها استغربت من نفسها لأنها

بدأت تفكر في جارهم، لماذا يعيش وحيداً، وهل ضيوفه من الرجال أو

النساء، هل هم لبنانيون أو عرب؟.

انتبهت حواء المؤمن إلى أن جارهم يشبه حبيبها الأول بل وأكثر

وسامة منه، وأثناء استحضارها لصورتيهما في ذهنها سمعت حركة على

السلم فخمنت أنهم ضيوف جارهم، فنهضت بسرعة وفتحت الباب فتحة

ضيقة جداً تسمح لها بمشاهدة من يصعد السلم فلمحت رجلين يصعدان.

أغلقت الباب بسرعة، لكنها شعرت بالراحة لأنهما كانا رجلين، ولم

يكن ضيوفه من النساء. لكنها سألت نفسها: ما لها ولأصدقائه؟ لماذا

أحست بالراحة لأنهم من الرجال؟ هل كانت تغار لو لم يكن هناك

ضيوف بل صديقة له مثلاً؟ أحست بمشاعر مختلطة، وبرغبات متداخلة ولم تفهم نفسها وماذا تريد حقاً.

عادت حواء المؤمن إلى غرفة الاستقبال. جلست على الأريكة، ثم أخذت مشغل التلفزيون عن بعد وضغطت عليه فظهر على الشاشة وجه جميل جداً لفتاة محجبة، وانتهت من خلال اللغة والمكان الذي تجري فيه الأحداث إلى أن القناة الألمانية تبث فيلماً إيرانياً بترجمة مكتوبة على الشاشة. ظلت تتابع الفيلم الذي أعجبها أناقة البطلة وجمالها في الحجاب.

فجأة راودت حواء المؤمن فكرة غريبة جداً لم تفكر فيها طوال حياتها ألا وهي فكرة الحجاب. سألت نفسها: لماذا لا تلبس الحجاب؟ هل يروق لها أو أنه سيشوهدا؟ ماذا سيقول زوجها الدكتور آدم التائه، هل سيوافق أو سيرفض؟ ولماذا يرفض، معظم الرجال يتمنون أن تتحجب زوجاتهم لأنهم بذلك يحسون بملكيتهم الشخصية لها ولجمالها ولجسدها؟ ماذا سيقول الجيران؟ وما فائدة الحجاب بدون صوم وصلاة؟ صحيح أنها لا تؤدي فريضة الصلاة لكنها مؤمنة ولا تؤدي أحداً ولا تكذب أو تغتاب أو تتأمر أو تسرق؟ وماذا سيقول جارهم اللبناني؟ لقد انتهت أكثر من مرة بأنها تعجبه وذلك من خلال نظراته؟ لكن ما لها وله؟ فجأة قامت من مكانها وذهبت إلى غرفة النوم وسحبت من فوق

الدولاب حقيبة جلدية كبيرة كانت قد حفظت فيها العباءة والحجاب والفوطة التي أهدتها لها المرأة المحجبة في عمان، أما المصحف فقد أخرجته ووضعته على القسم من الدولاب في غرفة النوم.

لم تشأ أن تلبس الحجاب الذي قدمته لها المرأة الأردنية لأنه حجاب خليجي غير متعارف عليه لا في العراق ولا هنا في ألمانيا، فالعربيات المحجبات من عراقيات ولبنانيات وحتى الإيرانيات والتركيات يضعن فوطة على الرأس وأحياناً يلبسن معطفاً طويلاً.

أخذت الفوطة الملونة بإحدى الألوان الصينية ما بين البنفسجي

والوردي والتي تحمل رسومات صغيرة لأشكال فنية مختلفة من الحقيبة الجلدية وتوجهت إلى مقعد صغير أمام الطاولة التي تنتصب عليها مرآة كبيرة وبعض مواد التجميل والعطور.

شدت الفوطة على رأسها وأخذت قلم الكحل ومررت به حول جفنيها فبدت أكثر جمالا ووقارا وإثارة مما هي بدونه.

من المؤكد أن زوجها سيصطدم من كثرة المفاجآت اليوم، فقد قرأت الرواية، وهي تريد إقامة الحداد عليهم وقراءة الفاتحة عند العشاء على أرواحهم، ولبست الأسود حزنا عليهم وها هي تلبس الحجاب.

شعرت حواء المؤمن بالضيق أول الأمر من مسألة الحجاب، لكنها حينما عادت إلى غرفة الاستقبال وانتهت إلى أن الفيلم الإيراني لم ينته بعد جلست لمتابعتة، وبمرور الوقت شعرت بالراحة والقرب من بطلة الفيلم على الرغم من أنها لم تفهم الحوار، لكنها فهمت من سير المشاهد بأن هذه المرأة تريد أخذ طفلها بمساعدة صديقة لها وأن هناك من يلاحقها، زوجها أو من أهل زوجها، وهي تهرب من مكان إلى مكان. تعاطفت مع هذه المرأة كثيرا، وأعجبها هذا الجمال الشرقي الذي لا ترى مثله في الأفلام الغربية.

حينما انتهى الفيلم انتقلت إلى محطة تلفزيونية ثانية كانت تبث حفلا موسيقيا، وأخذت تنتقل بين المحطات الألمانية المختلفة، وأخيرا انتقلت إلى المحطات العربية التي كانت تبث فيلما مصرية قديما. لم تكن سابقا تعرف بوجود هذه القناة، فكان الأمر بالنسبة لها اكتشافا سيفرح زوجها بلا شك.

جلست تتابع الفيلم بعد أن كانت قد نوت الذهاب للاستلقاء على سريرها. كان الفيلم مسليا جدا، بل الأهم من ذلك هو من تمثيل هند رستم وسعاد حسني وعمر الشريف والممثل الكبير السن الذي يضع طاقية فوق رأسه وقد نسيت اسمه، لا تذكرته أنه يوسف وهبي وكذلك الممثل عبد المنعم إبراهيم. هذا الفيلم الذي شاهدته مرات من شاشة

التلفزيون العراقي عصر أيام الجمعة حيث كان موعد الفيلم العربي، لكنها لا تمله فهي تشاهده بمتعة شديدة برغم معرفتها بكل أحداثه، وأنها تضحك كل مرة، من كل قلبها، لبعض المواقف المضحكة فيه. تمددت على الصوفا ساندة رأسها إلى كفها مستغرقة في أحداث الفيلم المسلية.

عند الأصيل، كان الفيلم قد انتهى وبدأت المحطة تبث لقاءً مع فنان مصري معروف متوقفة عن حياته الفنية وأفلامه ومسلسلاته. سمعت وقع خطوات على السلم الخشبي، فنهضت بنشاط، ومضت فاتحة الباب فتحة ضيقة لترى من القادم فرأت ضيوف جارهم اللبناني وهم ينزلون السلم، بينما كان هو واقفاً عند الباب يودعهم، وحينما اختفوا في منعطف السلم فتحت الباب فتحة أكبر وكأنها كانت تنتظر أحداً لكنها في أعماقها أرادت أن يراها جارهم اللبناني بشكلها الجديد، وفعلاً ارتسمت علامات الدهشة والإعجاب الشديد على وجه الجار اللبناني حينما رآها، ابتسم لها وابتسمت له، لكنها لم تستطع تبرير فتحها الباب كي لا يفهم أنها تتلصص عليه، فقالت باستحياء:

- ظننت زوجي قادم، نحن أيضاً ننتظر ضيوفاً
- إن شاء الله خير.. هل حصل شيء.. أراك بالأسود
- نعم.. استشهد لنا بعض الأقارب في العراق.
- إلى رحمة الله.. لكن هل يجب وضع الحجاب؟
- لا.. أريد أن ارتدي الحجاب..
- رائع.. أنك رائعة فيه.. سبحان الله..
- شكراً..

لم تستطع أن تتواصل معه، فظلت للحظات تنتظر منه أن يتواصل معها لكنه كان ينتظر منها أيضاً أن تقول شيئاً لأنه أحس أنها منجذبة للحديث معه. أخذ يتأملها بجرأة ورغبة واضحة، شعرت برجفة من نظراته فأغلقت الباب بشكل مفاجئ.

خلف الباب ووقفت حواء المؤمن وهي تحس بسعادة خفية من كلامه الذي كان يتضمن إعجابا صريحا بجمالها وأيضا من نظراته التي كانت تشعر وكأنها تحرقها. لا تدري لماذا شعرت برغبة عارمة في أن تراه ثانية ففتحت الباب، بالرغم من أنها كانت تشعر بأنه غير موجود، لكنها فوجئت بأنه كان واقفا في مكانه، فارتعبت، لكنه قال لها بجرأة:

– تعالي تفضلي اشربي القهوة، إلى أن يأتي ضيوفكم

ارتعبت وبدت الدهشة على وجهها الجميل وقالت:

– لا.. ماذا تقول.. إذا يراني زوجي سيقتلني.. ماذا سيقول؟

– ومن أين يعرف؟ اشربي القهوة.. وستترك الباب مفتوحا.. فإذا

سمعنا صوت أقدام صاعدة عندها ستخرجين..

صمتت للحظات، ثم قالت:

– لا.. لا.. أخاف.. لا يجوز ذلك

أغلقت الباب. ووقفت خلف الباب مرعوبة من هذا الحوار المكشوف والدعوة الصريحة للتواصل الشخصي، لكنها برغم كل هذا أحست بنشوة تجتاحها. بدأت تتعجب من تحولات مواقفها ومن نفسها وتناقضاتها، فقبل قليل كانت تجتاحها حمى دينية حيث لبست السواد حزنا على شهداء قصة (مناهة آدم)، وغطت رأسها بالحجاب تحت تأثير شطحة فنية وروحانية، وشعرت بالود والقرب من زوجها وها هي تسعى لإقامة علاقة مع جارهم. هل هي سهلة إلى هذه الدرجة، وضعيفة بهذا الشكل أمام شهوتها؟

فكرت حواء المؤمن سائلة نفسها بصراحة: ماذا تريدان يا حواء؟ ولم

تجد أية إجابة شافية ووافية لأنها نفسها لا تدري فعلا ماذا تريد بالضبط؟

آدم البغدادي: هل يا ترى أن حواء المؤمن بهذا المستوى من

الوعي الذاتي لنفسها بحيث تطرح على نفسها هذه الأسئلة؟

لم لا، أذكر أن جارتنا زهرة كانت متزوجة أيضا من شخص

محترم لكنها كانت لا تستطيع أن تقاوم نفسها ورغباتها، حيث كانت تقيم علاقة مع الشبان في محلنتنا، وكانت على علاقة معي أيضا، لكنني كنت على علاقة طيبة مع زوجها، وأكن له الاحترام، وذات مرة سألتها لماذا تفعل ذلك وتسيء لزوجها؟ ألا تحترمه؟ ألا يرويهما جسديا؟ والغريب أن إجابتها كانت تؤكد بأنه شخص محترم ويحسن معاملتها وهو قوي وجيد معها في الفراش، لكنها لا تستطيع أن تقاوم نفسها في أن تقيم علاقات مع آخرين؟ لا تدري لماذا؟ هل هو تأكيد للذات على أنها مرغوبة من الآخرين؟ هل هي غيرة من بقية الفتيات الشابات اللاتي يتابعهن الشباب في المحلة؟ هل هي محاولة للتشبه ببعض النساء اللاتي اشتهرن في الوسط النسائي في المحلة بأنهن يبدلن الرجال مثل تبديلهن جواربهن؟ هي لا تدري لماذا، بل هي تؤنب نفسها على ذلك، وكما روت لي فأنها كانت تلوذ إلى الصلاة بعد أي ذنب أو لقاء لها مع شاب، ولو أنها في حياتها اليومية لا تقيم فريضة الصلاة، وكثيرا ما كانت تبكي حين تكون وحدها على سوء تصرفاتها وإساءتها لزوجها، بل وكانت تتذلل إليه بعد أي ذنب تقترفه.

فهل استمد هو طبيعة حواء المؤمن من مدخرات ذاكرته ليشكلها دون وعي منه من خلال شخصية زهرة التي عرفها في فترة مراهقته.

ثم أن تساؤلات حواء المؤمن عن نفسها وضعفها وسهولتها إلى هذا الحد بحيث يدعوها جارهم اللباني مباشرة إلى بيته وحدها متعمدا أن يكون ذلك سرا بينهما فقط، هو تشخيص لنمط من النساء. أذكر نموذجا روائيا عند (هنري ميلر) في كتابه (ربيع أسود) حيث يصادف أن يعجب بطل الرواية بامرأة اسمها (كورا)، وهي امرأة متزوجة من رجل اسمه (بول)، وكانت

هذه المرأة المثيرة الشهية الحزينة الملامح تبدو عاشقة مخلصه لزوجها، لذا كان بطل الرواية يهاب الاقتراب منها لأنها امرأة عاشقة وفاضلة، وصادف أن غرق زوجها في بحيرة أثناء السباحة، وحينما قرر زيارتها لتقديم التعازي، فوجدها في ثوبها الأسود المفتوح الصدر والقصير، وحينما جلس يواسيها مرددا الجمل عن حسنات زوجها، وبينما كانت هي تبكي قام هو فرفع ثوبها وأولجها فيها، وكانت هي تصرخ وتلهث من اللذة وتقول له، لم أكن أتصور أنك ستفعل هذا. في ما بعد ذلك أخذت رأسه إلى الأسفل وطلبت منه أن يقبله، وتقول له وهي تتوسل: هل تعدني أن تبقى على حبي. ويردد بطل الرواية أنه لم يكن يعرف أنها سهلة لهذا الحد برغم مظاهر الفضيلة التي تبدو عليها.

لكن ليس بالضرورة أنني قد تأثرت بهذه الرواية، أو أنها برزت من لا شعوري، علما أنني وضعت إشارة على تلك الصفحات التي تتضمن هذا المشهد، وإذا ما صارت الرواية أمامي فأني لا أتردد من فتحها على تلك الصفحات. ويبقى السؤال أثناء سير النص والأحداث أن أتتبع الينابيع الإبداعية، وأن أتعرف على طبيعة تشكل العمل الإبداعي.

الفصل العاشر

تحولات الدكتور آدم التائه

رجع الدكتور آدم التائه من مدينة (أيسن) القريبة عند الغروب. كان تعباً وساهماً ومهموم الملامح، وما أن فتح باب الشقة حتى وصلت أنفه روائح الطعام الطيبة، رائحة الرز البسمتي الزكية، وروائح البهارات المنبعثة من تشريب الدجاج الذي أعدته زوجته، وكذلك روائح البخور الزكية المنبعثة من غرفة الاستقبال، لكنه ذهل حينما دخل إلى غرفة الاستقبال مباشرة ورأى زوجته حواء المؤمن في ثوبها الأسود وقد غطت رأسها بفوطة جميلة زاد وجهها جمالاً وإثارة.

هبت هي واقفة منتظرة أن يقول شيئاً، لكنه ظل للحظات يتأملها، ثم استدار وخرج من الغرفة متجهاً إلى المطبخ، وسمعت أصوات القدور والأطباق، فأصيبت بخيبة كبيرة وإحباط، وأحست بغضب خفي يجتاحها، ولا تعرف لماذا برق للحظة في ذاكرتها البصرية وجه جارهم اللبناني ثم اختفى.

فكرت حواء المؤمن مع نفسها للحظة: أمن المعقول أنه لم يتتبه إلى ثوبها الأسود وحجابها؟ لقد تأملها جيداً لكنه لم يعلق، لماذا؟ يبدو على وجهه أنه ضد ذلك، لا ولا أنه مع؟ هل أنه جوعان إلى الحد الذي لم يدعه أن يبدي رأيه؟

مضت خلفه إلى المطبخ. وجدته قد صب لنفسه شيئاً من الرز في طبق، فأسرعت هي وصبت له مرقاً في طبق آخر ووضعت له أفخاذ الدجاج لأنها تعرف أنه يحب أفخاذ الدجاج، وأخذت الأطباق ووضعتهما

في صينية. كان هو منهمكاً بغسل الفجل، التفت إليه وقالت:
- هل أنت جائع إلى هذه الدرجة؟ يبدو التعب على وجهك، ألم
تأكل شيئاً كل هذه الفترة، أين كنت؟
ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة وقال بهدوء:

- على أي من هذه الأسئلة أجيب أولاً؟ نعم أنا جائع وأموت من
الجوع، وأنا تعبان جدا، ولم أكل شيئاً لحد الآن، أما أين كنت،
فسأجيب عليه بعد الأكل لأنني جائع جدا جدا، وبالمناسبة أراك
قد طبخت كل هذا وبخرت البيت ولبست الأسود ووضعت
حجاباً على رأسك، فما سر كل هذا الانقلاب؟

انتبهت حواء المؤمن إلى أنه قد لاحظ كل شيء لكنه لم يعلق في
حينها لأنه وكما يبدو جائعاً بالفعل. حملت الصينية وذهبت إلى غرفة
الاستقبال، فقد كان كثيراً ما يأكل هناك على الطاولة الموضوعة في وسط
الغرفة بعد أن يقربها إلى الصوفا. تبعها حاملاً بعض فصوص الفجل
الأحمر الذي غسله.

جلست ناظرة إليه وهو يلتهم الطعام التهاماً، لم تشاهده جائعاً بهذه
الطريقة، كما لاحظت أنه لم يعترض على بقائها في الغرفة وهي تنظر
إليه، فهو كثيراً ما كان ينزعج حينما تظل تتأمله وهو يأكل طعامه.

كان الدكتور آدم التائه يأكل وهو غارق في تأملاته، فلم ينظر إليها
قط، كان ينظر في الصينية، يأكل بهمة ونهم وكأن عليه انجاز مهمة سريعة،
لكنها أحست أن فكره في مكان آخر، هذا واضح من نظراته الشاردة
ووجهه المتعب، وعدم انتباهه لها، لكن يا ترى أين كان؟

لم تنتظر إلى أن ينهي طعامه إذ قامت إلى المطبخ لتعد الشاي،
فوضعت الماء في الدورق الخاص بغلي ماء الشاي وأشعلت الطباخ،
ثم صبت لنفسها صحناً من الرز وعليه شيء من المرق وقطعة من الخبز
ووضعتهما في صينية صغيرة وجاءت ثانية إلى غرفة الاستقبال، وجلست
قبالته وبدأت تأكل أيضاً.

كانت تأكل وتنظر إليه، لم ينتبه لها إلا حينما أوشك على الانتهاء من الطعام. كانت هي أيضا على وشك الانتهاء، وكانت ملامح الارتياح قد بدأت تأخذ مكانها على وجهه، ابتسم لها بطيبة وكأنه انتبه لوجودها فأراد بابتسامته أن يعتذر، فاستغلت هذا الوضع وقالت له:

– أرجو أن تقرأ الفاتحة

نظر إليها متعجبا وقال:

– الفاتحة.. على روح من؟

– على روح أمك أولا، فمن الواجب أن نقيم وليمة كل ليلة جمعة ونقرأ الفاتحة على أرواح الموتى، ثم.. ليس فقط على روحها وإنما على أرواح آخرين أيضا..

– ما الذي يجري يا حواء؟ ما هذه الروحانية التي أصابتك؟ وعلى أرواح من أيضا نقرأ الفاتحة؟

صمتت لحظة، كانت مترددة، لكنها حسمت أمرها وقالت له:

– على روح المهندس آدم المطرود، والمهندس آدم صاحب، والشخص الآخر زوج حواء اللهيبي

ارتسمت دهشة كبيرة على وجه الدكتور آدم التائه، حدق في وجهها للحظات، نظر فجأة إلى ملف الرواية على الطاولة، التفت إليها ثانية، وارتسمت ابتسامة على وجهه، وقال لها بهدوء:

– هل قرأت الرواية؟

ترددت قليلاً ثم أجابت وشعور مزدوج من الخجل والذنب يجتاحها:
– نعم.. قرأتها اليوم.. وبكيت على هؤلاء الأبرياء... لذا قررت مع نفسي أن أقيم العزاء على أرواحهم لمدة ثلاثة أيام، وأن ألبس السواد حزنا عليهم، وأن أطبخ هذه الوليمة لقراءة الفاتحة على أرواحهم البريئة..

أحس الدكتور آدم التائه بمشاعر مختلطة وهو يستمع إليها. مشاعر هي خليط من الطيبة والشفقة، والفرح، والخجل أيضا، فقد قرأت تلك

المشاهد الجنسية والتفاصيل الأخرى، وربما فهمت شيئاً آخر، فقال لها
بعد لحظات من الصمت الثقيل عليها:

- تعرفين أنني أكره من يتلصص عليّ، ويفتش في أوراقى وكتبى،
ويقرأ شيئاً لا أريد أن يقرأه أحد حالياً...

صمتَ للحظات، بينما هي أحست بالخوف، وشعرت أنها ارتكبت
شيئاً لا يحبه ويثير غضبه كما يقول، فنكست رأسها اعترافاً منها بالذنب،
لكنه استمر قائلاً:

- لكنى برغم ذلك اشعر بالسعادة من تأثير الرواية عليك إلى هذا
الحد، وأنت أحسست بالشخصيات فى روايتى إلى هذا الحد،
هذا يعنى أنى قد نجحت فى خلق شخصيات تنبض بالحياة، إلى
درجة أنك بكيت ولبست السواد حزناً عليهم وأنت تريدين إقامة
العزاء لثلاثة أيام على أرواحهم...رائع جداً
أثار كلامه استغرابها، فكل ما يعنيه نجاحه فى الكتابة، لكنها برغم
ذلك سألته:

- ألا تريد أن تقرأ الفاتحة على أرواحهم؟

نظر إليها للحظات باستغراب ثم قال:

- بلى.. نقرأ الفاتحة على أرواحهم جميعاً.. على روح أمى أيضاً،
لكن هناك مشكلة

- ما هي؟ قالت مستغربة

- يجب ذكر اسم الشخص واسم أمه، وأنا لا أعرف أسماء أمهاتهم،
بل أن رجل السكرتيرة حواء اللهيبي لا أعرف اسمه أصلاً...

- هل هذا يعنى أنه من غير الممكن قراءة الفاتحة على أرواحهم؟
- بلى، لكننا سنقول الفاتحة على أرواح شهداء رواية متاهة آدم:

المهندس آدم المطرود بن حواء، والمهندس آدم الصاحب بن
حواء، والموظف المجهول الاسم زوج السكرتيرة حواء اللهيبي
بن حواء.. هل يعجبك هذا؟ والآن قومى واحملى إلي الشاي

قبل أن أغير رأبي ولا أقرأ الفاتحة..

- لا.. خطية.. أقرأ الفاتحة على أرواحهم.. الآن أجيب الشاي وقامت مسرعة إلى المطبخ حيث أعدت الشاي بعد أن كان الماء قد غلى في الدورق وكاد يتبخر منه، وأثناء ذلك أحضرت صينية الشاي ووضعت استكانات الشاي فيه، فعادة حينما يريد الراحة والسهر في البيت فإنه يشرب الشاي بالاستكان المتعارف عليه في العراق، وإذا ما كان على عجلة من أمره، أو جاء ضيوف من الجالية العربية فإنه يفضل الأكواب، واليوم لاحظت أن مزاجه ليس سيئا على الرغم من التعب الذي كان فيه. فحملت دورق الشاي في الصينية أيضا ومضت إلى حيث زوجها. حينما دخلت غرفة الاستقبال وجدته متمددا على الصوفا وهو يشاهد التلفزيون من غير انتباه أو تركيز، فجلست على الصوفا الجلدية القريبة منه، ووضعت صينية الشاي على الطاولة التي تتوسط الغرفة وأخذت صينية طعامه وصينيتها وحملتهما إلى المطبخ ثم عادت فرأته قد جلس استعدادا لشرب الشاي. نظرت إليه بتساؤل، فاتبه لها وفهم ما وراء نظراتها، فقال لها:

- لقد قرأت الفاتحة على روح أمي أولا ثم على أرواح شهداء رواية (مناهة آدم) لكتبتها آدم التائه، وسميت الشهداء كلهم، بما فيهم حواء الصايغ وحواء الغريب بينات حواء.

بينما كان يتحدث كان هي تشعر بالارتياح وبسعادة خفية، لكنها استغربت حينما وصل اسم حواء الصايغ، فقالت بتعجب:

- لكن حواء الصايغ لم تمت؟

- لا أعرف، ربما قتلت هي أيضا؟

- كيف لا تعرف وأنت كاتب القصة؟ المهم، هل قرأت على أرواحهم الفاتحة؟

- نعم.. وعلى أرواحنا أيضا

- على أرواحنا؟؟ الحمد لله لم نمت بعد

- نحن موتى في الحياة..
- لا أفهم..
- أحسن.. لأن الفهم كثيرا ما يسبب وجع الرأس
- تمزح معي.. أليس كذلك؟
- الفهم والمعرفة تجلب الهم والشقاء والنكد يا حواء
- ربما أنت محق في هذا..
- كانت أثناء ذلك قد صبت له ولنفسها الشاي وبدأ يشربانه، لكنه توقف فجأة ونظرا إلى وجهها محدقا في غطاء الرأس وسأل:
- ما قصة غطاء الرأس هذا؟ هل تريدين التحجب أو أنها نزوة وتغير شكل؟ أم ماذا؟
- يعني..
- يعني..؟ يعني ماذا؟
- اليوم شاهدت فيلما إيرانيا بالتلفزيون وكانت البطلة محجبة فتذكرت أن المرأة المحجبة في الأردن أعطتني حجابا، فقلت وأخرجته من الحقيبة واستخدمت الفوطة غطاءً للرأس..
- وهل ستستمرين بغطاء الرأس هذا دائما أو فقط أيام العزاء التي تريدين أقامتها على أرواح شهداء المتاهة؟
- إذا لا تمنع أبقى مرتدية الحجاب
- ولماذا أمانع؟ هذه حريتك الشخصية، وبالمناسبة إنه يليق بك كثيرا؟ صرت أكثر جمالا وإثارة؟
- غمرها فرح خفي، لكنها وخلال ثوان استحضرت وجه جارهم اللبناني، وكلماته نفسها تقريبا من أن الحجاب أضاف إليها جمالا وإثارة؟ ابتسمت لزوجها وقالت بخجل ممزوج بشيء من الغنج:
- يعني يعجبك الحجاب؟
- يعجبني... صرت أجمل.. لكن هل تكتفين بالحجاب أم تريدين أيضا القيام ببقية الطقوس والفرائض؟

- أنا أعرف الصلاة وقد صليت لمدة ستة أشهر وتركتها، والحقيقة أنا لم أفكر في ذلك، لكن يمكن أبدأ بالصلاة أيضا. لم أكن أعتقد أنك متدين أو أنك لا تمنع بارتدائي الحجاب واقامة الصلاة؟ نظر الدكتور آدم التائه إليها وكأنما يقرأ أفكارها ثم ابتسم مع نفسه وقال لها:

- لماذا أمانع؟ أنت حرة، وشخصيا أنا غير متدين لكني أحترم الدين، أنا مؤمن لكني أنظر إلى جميع الأديان بشكل متساو..
لم يكن في ذهن حواء المؤمن حينما ارتدت الحجاب أن تصلي أيضا، لكنها وجدت نفسها قد ألزمت نفسها أمام زوجها بالصلاة، وأحست بشيء من الحرج بهذا الإلزام، وأرادت أن تغير مسار الحديث، فقالت:

- اليوم، صدفة، وأنا أتنقل بين القنوات وجدت قناة عربية مصرية جديدة.

- رائع. قال الدكتور آدم التائه معلقا
أحست حواء المؤمن أنها صارت أكثر قربا من زوجها هذا المساء، واستعدت لسهرة ممتعة، حيث سيشاهدان فيلما عربيا على القناة المصرية وسوف يبقى الليلة ولا يخرج كعادته مع أصدقائه، فقامت إلى المطبخ حاملة صينية الشاي، وهناك في المطبخ فتحت دولابا علويا وأخرجت أكياس الفستق واللوز وشرائح الجبس وبعض قطع الحلوى، ووضعت من كل صنف شيئا منها في طبق صغير ووضعتها في الصينية وحملتها إلى غرفة الاستقبال، فوجدته جالسا باسترخاء على الصوفا متكئا على جانبها وهو يقلب القنوات التلفزيونية، فوضعت الصينية أمامه وجلست على مقربة منه، فقال لها:

- تعالي أجلسي قربي.. أريد أن أعرف منك بعض الأشياء
جلست قربه على الصوفا من الطرف الآخر. صمتت لحظة بانتظار أن يسألها، إلا أنه كان منشغلا بالتنقل بين القنوات إلى أن استقر على

قناة عربية تبث من لندن، ثم وضع جهاز الريموت كونترول جانبا والتفت إليها سائلا:

- قولني لي يا حواء.. هل قرأت الرواية بكاملها؟
- نعم
- وهل أعجبتك؟
- نعم
- ما الذي أعجبك فيها؟
- لا أعرف بالضبط.. أعجبتني وكفى..
- ما الذي أعجبك فيها أكثر؟
- لا أدري.. ربما لأنها تتحدث عن الحب؟
- لكنها لا تتحدث عن الحب فقط؟
- صحيح.. لكن الحب بين المهندس آدم المطرود وحواء الصايغ جميل جدا
- وأي الشخصيات أحببتها أكثر؟
- أحببت كل الشخصيات.. كل شخصية لديها مشاكلها..
- أي الشخصيات وجدتها أكثر قربا منك؟
- لا أدري.. ربما حواء الصايغ.. أو حواء التركية.. أو حتى حواء اللهيبي
- والرجال؟
- مساكين الرجال... لقد أشفقت على هؤلاء الأبرياء الذين عذبوا وقتلوا ظلما. لكن لدي سؤال
- اسألني..
- هل ما جرى مع هؤلاء قد جرى فعلا؟ وهل يحدث هذا في العراق؟
- ما جرى معهم جرى بالضبط مع الآلاف من الناس الأبرياء يا حواء، وكان وما زال هذا يجري في بلادنا.. ولم نكن نحن نعرف

عنه شيئاً، لأننا كنا نعيش في عزلة.. أتدرين أين كنتُ أنا اليوم؟
- لا.. من أين أدري؟

- كنتُ مع بعض العراقيين المعارضين في مظاهرة ضد النظام
الحاكم في العراق..

ارتسمت ملامح الرعب والخوف على وجهها، وقالت متسائلة:

- ماذا تقول؟ ألا تخاف منهم؟ ولماذا تفعل هكذا يا دكتور؟
حدق للحظات في وجهها الجميل وأحس أنها قريبة منه وأنها برغم
بساطة ثقافتها هي ما تبقى له من أهله ووطنه في هذه الغربة، فقال لها
شارحا:

- في البداية قال لي المحامي المكلف بالدفاع عن لجوئي بأني
يجب أن أثبت للمحكمة الخاصة باللاجئين بأني معارض للنظام
وأني ملاحق من قبله وأني لا أستطيع العودة إلى العراق وإلا
ستكون حياتي في خطر، وقال لي إن أسهل طريق لذلك هو
المشاركة في مظاهرات معادية للنظام تقيمها المعارضة العراقية
وأن ألتقط صوراً لذلك كي يقدمها هو إلى المحكمة من أجل
ضمان الاعتراف باللجوء السياسي، واليوم حضرت مظاهرة قد تم
الإعلان عنها قبل فترة وعرفت ذلك من بعض الأصدقاء، لكنني
هناك تعرفت على الكثير من العراقيين، من مختلف الجهات،
هل تتصورين، كان هناك الكثيرين من المعارضين الإسلاميين
ومن الشيوعيين ومن الأكراد. هؤلاء الذين كنا في العراق نخاف
أن نذكر اسمهم، اليوم كنت معهم في مظاهرة واحدة ورفعنا
الشعارات ضد النظام. هل تدرين يا حواء أن ما ذكرته في الرواية
لا يشكل إلا قطرة من بحر قياساً للذي سمعته وشاهدت بعض
صوره في المظاهرة. أين كنا نحن.. هل كنا نياماً؟

- ماذا تقول يا دكتور؟ كلامك يخوفني؟ هل في ذلك خطر عليك؟

- أنت تعرفين لا أحد لي في العراق، لكن معظم الذين كانوا

- يتظاهرون يعرفون أن أهلهم في العراق، وربما سيتعرضون للأذى
لكنهم لم يخافوا ذلك وخرجوا ينددون بالنظام..
- أنا أخاف عليك أنت، لا أحد عندي غيرك
- لا تخافي.. إن الله معنا.. لكن هل تعرفين لقد شعرت بالخجل
من نفسي
- أنت؟ ولماذا لا سمح الله تشعر بالخجل؟ ماذا فعلت حتى تشعر
بذلك؟
- لم أفعل شيئاً، ولأنني لم أفعل شيئاً شعرت بالخجل.
- لم أفهم؟
- تصوري أنا أستاذ جامعي، وأديب وكاتب روائي كنت أعيش في
برجي العاجي ومنغمسا في خصوصيتي، بينما في نفس تلك
الأوقات كان الناس يعذبون ويقتلون ويموتون بلا رحمة، ويرغم
أني كنت أتابع بعض ما ينشر هنا وهناك لاسيما في الأردن،
إلا أنني لم أفعل شيئاً، بينما وجدتُ اليوم بين المتظاهرين
بعض النساء، فتيات شيوعيات وأخريات محجبات كن ضمن
المتظاهرين..
- حاولت هي أن تواسيه فقالت:
- لا تنس يا دكتور هؤلاء الذين يتظاهرون هنا في ألمانيا لم يتجرأ
أحد منهم أن يفتح فمه في العراق، وربما كانوا في الحزب، وربما
الآن يحتاجون إلى صور يثبتوا فيها أنهم ضد النظام كي يضمّنوا
بقائهم في ألمانيا..
- أحس هو بالإحراج من كلامها إذ يمسه هو أيضا لكنه كان يدرك أنها
تريد أن تخفف عنه انتقاده لنفسه، فابتسم قائلاً:
- لم أكن أتصور أنك محللة سياسية، ففي كلامك شيئاً من الصحة،
بعضهم حالهم مثل حالي، لكن هذا لا يغير من الموضوع شيئاً..
- نحن في بلد خارج التاريخ والحضارة...

- المهم أتمنى أن لا يشكل ذلك خطراً عليك
ابتسم لها وسأل:

- لماذا؟ هل تخافين عليّ؟

خجلت من سؤاله فهو لأول مرة منذ زواجهما يسألها هذا السؤال،
وبهذه الرقة، فابتسمت، وشعرت بسعادة وسلام حقيقي يغمر روحها.
وقالت:

- كيف لا أخاف عليك، ألسنت زوجي؟

- هل تخافين عليّ لأنني زوجك فقط؟ ترى هل تحبينني؟

- وهل يحتاج هذا إلى سؤال؟

- طبعاً

- كيف لا أحبك، أنت زوجي؟

صمت الدكتور آدم التائه لحظة، وشرد ذهنه، ثم التفت إليها وسألها
وهو يحق في وجهها:

- هل كنت تخافين على زوجك السابق، وتحبينه أيضاً؟

أربكها سؤاله وأحست أن كل ما بنته من أفكار عن تطور علاقتها
معه وتقربها منه ليس إلا مجرد أوهام، فما زال زواجها السابق يمتد
كهوة سوداء بينهما، فهو يغار من زوجها السابق، ولا يستطيع أن ينسى
بأن ثمة رجلاً آخر نام معها، ولو على سنة الله ورسوله، فالمشكلة لديه
أنه كان في رأيه أول رجل في حياتها، ومن المؤكد أن يتخيلها معه، لذا
فهو يطرح سؤاله من باب الغيرة، لكن كيف لها أن تجيبه، أنها ليست
مثله تعرف كيف تتكلم وتطرح الأسئلة وتجب عليها، وإلا فأن جوابها
الساذج على سؤاله هو الذي استفزه ودفعه لطرح سؤاله. لذا استجمعت
كل قدرتها وأجابت:

- ذاك كان قاسياً معي، ويضربني، وكان يسيء إليّ، وكانت حياتي

هناك عذاب في عذاب، كانت جحيماً، بينما أنت إنسان مختلف.

إن حياتي بدأت منذ اليوم الأول الذي دخلت فيه بيتكم، المرحومة

الوالدة أحببني مثل ابنتها، وأنت كنت دائما طيبا معي، لذلك لا توجد مقارنة بين حياتي السابقة قبل أن أدخل بيتكم وبين حياتي معك.

ابتسم مع نفسه ابتسامة خفيفة وهو يستمع لجوابها الدبلوماسي، انتبه إلى أنها لم تذكره زوجها السابق إلا بذكره (ذاك) وزواجها السابق إلا ب (حياتي السابقة). فكر في نفسه أنها ذكية، وذكية جدا، ثم فجأة انهالت عليه ذكرياته السابقة، تذكر أمه وعلاقتها بزوجته، فرق قليلا، لكنه استذكر أباه أيضا، لذلك التفت إليها وسألها:

– وأبي؟ كيف كانت علاقتك معه؟

– أبوك؟ كانت علاقتي بعمي طيبة، عادية، ربما لأنني الوحيدة التي كنت اتحدث معه في البيت، فقد كان لا يتكلم تقريبا مع الوالدة رحمها الله، وأنت كنت لا تود التحدث معه، وكنت أنا محتارة بينكم. كان من خلال حديثه معي يعرف أخبارا عن الوالدة وأخبارك.

– وهل كان فعلا يفكر في حفيد له؟

انتبهت إلى أنه يشير إلى المشهد الذي رآه عندما وجده جالسا جنبها على سريرها في غرفة النوم، فقالت بحذر شديد:

– نعم..

نظر إليها وكل ملامحة تعبر عن لا تصديقه لجوابها، وقال:

– لا أعتقد ذلك. أنه لم يفكر بهذا أبداً، أنه يكرهني ولا يعتبرني ابنه، بل إنه عذب أمي ودمر حياتها واستولى على أموالها، أهانها وأذلها وضربها واحتقرها، كنت أشاهد ذلك بعيني وأنا طفل صغير، لذا ما تقولينه ليس صحيحا. كانت لديه دوافع أخرى.

أحست بالرعب، وتوجست لتدافع عن نفسها، فها هو يتهمها بشكل غير مباشر، فقالت:

– ماذا تقصد؟

صمت للحظات ثم نظر إليها وكأنه يقول لها، إنني اعرف كل شيء،
لكنه أجاب:

- لا أقصد شيئاً؟

ونفض من مكانه متجهاً إلى مكتبه وجلس على كرسيه، ومن هناك
سألها متقصداً معرفة رأيها:

- ما رأيك بالمهندسة حواء كوناى يا حواء؟

- لقد أحببتها، وتعاطفت معها، لكنني أستغرب لماذا لم تكمل قصتها
بعد أن خرجت من الغرفة؟

- لماذا أحببتها؟

- لأنني أعتقد أنها مظلومة، وجدت نفسها في ظروف صعبة، وأنها
كانت تخطئ وتتعذب لخطئها الذي تقترفه..

- هل وجدتها قريبة منك؟

- ماذا تقصد؟

- لا أقصد شيئاً..

- لكن لدي سؤال؟

- أسألي

- لماذا توصف العلاقة بين الرجل والمرأة بهذا الشكل المفضوح؟

ربما سيتهمك الآخرون بأنك لا تعترف بأداب المجتمع والتقاليد؟

وليس كل الناس لديهم هذا الاستعداد لقراءة مثل هذه الأشياء

المكشوفة.

إبتسم لها معجباً لذكائها الذي لم يكن يقدره جيداً، فهي تعرف كيف
تلتف على الأسئلة وتتهرب من المواضيع المحرجة، بل لديها رؤية نقدية
على بساطتها لكنها منطقية، فقال لها:

- لم أكن أعرف أنك ناقدة أدبية جيدة. صحيح ما تقولين. ربما

سيتهمني البعض بالإبتذال، والفحش، وربما سيفسر البعض بأن

هذه محاولة رخيصة للشهرة والانتشار من خلال أعمال فضائحية،

لكني أسألك شخصياً عن رأيك، ألا تجري مثل هذه الأمور بين الرجل والمرأة؟

– نعم تجري، عند البعض، لا أدري أن كان الجميع هكذا؟
– إذن، أنا اتحدث عنها بصراحة بينما يستحي الآخرون الأقترب منها.

– لكن هل هناك داع لذلك، أحياناً أستحي وأنا أقرأ هذه التفاصيل؟
– ماذا تعتقد أنت؟

– أنا لست كاتبة ولا أعرف الجواب
فجأة وجه الدكتور آدم التائه نظره إلى باب الشقة حينما سمع طرقاً على الباب، قامت هي تريد التوجه إلى الباب فقال لها:
– لا، أنا سأفتح الباب

وقام متجها نحو الباب، فاتحا إياه، فقابله وجه جارهم اللبناني الذي كانت عيناه لحظتها منخفضتين وابتسامة رقيقة ترسم على وجهه، لكنه فوجيء حينما رفع رأسه ورأى وجه الدكتور آدم التائه المتسائل أمامه. انتبه الدكتور آدم التائه لتحول ملامح الجار اللبناني. ارتبك الجار اللبناني وابتسم ثانية وقال مرتبكا وهو يشير إلى شقته المجاورة:
– أنا جاركم اللبناني، إسمي آدم.

ومد يده مصافحا فخرج الدكتور من الباب ومد يده مصافحا وهو يقول:

– أهلا وسهلاً أخ آدم، أنا الدكتور آدم التائه، أهلا وسهلاً، كيف يمكن أن نخدمك يا جار؟

– عفوا.. أنا كنت حجزت أشياء من (كارشترات) وتأخرت فاتصلت بهم فقالوا أنهم سلموها الطرد للجيران، فأردت أن أسأل إن كنتم قد استلمتم الطرد؟

من مكانه نادى الدكتور آدم التائه على زوجته:

– حواء.. هل استلمت طردا من (كارشترات) يعود لجاننا؟

إقتربت حواء المؤمن من الباب فنظر الدكتور آدم التائه إلى وجه الجار آدم اللبناني وهو ينظر إلى وجه زوجته فلاحظ ثمة قلقاً واضحاً وأعجاباً خفياً وكأنه يعرفها، وسمع زوجته تقول من خلفه:

– لا.. لم استلم شيئاً، ربما عند جيراننا في الأسفل فهم أقرب إلى الباب؟

إرتبك آدم اللبناني، وتراجع معتذراً وهو يقول بارتباك:

– أعتذر، ربما عند جيراننا في الأسفل، سأسألهم:

قال ذلك ونزل الدرج مسرعاً وكأنه سيذهب إلى الجيران في الطابق الأرضي، بينما دخل الدكتور آدم التائه وهو ينظر نظرة مليئة بالألغاز إلى حواء المؤمن التي كانت قد أعطته ظهرها وهي تدخل إلى غرفة الاستقبال، غالقاً الباب خلفه، وكأنه اكتشف شيئاً جديداً أو جانباً لم يكتشفه من شخصية زوجته حواء المؤمن، فثمة هاجس نشأ خلال لحظات يشير إلى ثمة معرفة أو تواصل بين جارهم آدم اللبناني وبين زوجته.

آدم البغدادي: على الرغم من أن الدكتور آدم التائه ليس وحده في هذا الفصل إلا أن الفصل يحمل إسم تحولات الدكتور آدم التائه، لكن ثمة إشارة هنا لتحولات آدم التائه الفكرية، فهنا في ألمانيا سيتعرف على القوى السياسية العراقية المعارضة للنظام، فهنا يتعرف وجهاً لوجه مع القوى الإسلامية العراقية التي كانت السلطة تعدم كل من يشتبه به على أنه منهم، كما تعرف على الديموقراطيين الشيوعيين بكل أطيافهم، تعرف عليهم وعلى أفكارهم وناقشهم بحذر، وهذا ما أثر على فهمه لوظيفة الكتابة، بل غير من مصائر روايته ومساراتها الدرامية، فهو هنا في ألمانيا تعرّف على بعض الشعراء والفنانين العراقيين الذين زدوده بالكثير من أدبيات فيها الكثير عن شهادات التعذيب في العراق، كما أنه تعرّف هنا على شاعر عراقي شاب كان في

سجون السلطة وتعرض لأبشع أنواع التعذيب، وهو ما استفاد منه في كتابة تفاصيل تعذيب بطله آدم المطرود.

لكن هنا أيضا حواريته المهمة مع زوجته حواء المؤمن.

إنها بعض جدل الأفكار في تأثير الميديا ووسائل الاتصالات وهيمنتها على لواعي الانسان لاسيما من خلال ايقاظ ما دفن في أعماق اللاوعي الفردي والجمعي، وهذا ما نراه في إيقاظ الشعور الديني الكامن في أعماقها، وفي انجرارها لإقامة طقوس العزاء لشهداء في رواية، فهذا رغبة لواعية دفينية في العودة إلى الجذور، وفي الجوهر هو عزاء لحواء المؤمن نفسها، ورصد للصراع النفسي الأخلاقي والغريزي لديها.

الفصل الثاني عشر

صلاة، وقبر.. أشباح، واغتصاب

مرت عشرة أيام على سؤال الجار اللبناني عن طرده، لكن هاجس الدكتور آدم التائه في وجود علاقة بين زوجته وجارهم آدم اللبناني تحول إلى شك أشبه باليقين؟.

فمنذ دخوله وإغلاق الباب خلفه وهو غارق في أفكاره، بل حتى نظراته إليها فيها الكثير من الكلام الخفي والاتهام، وهذا ما أكد قناعاتها السابقة في أنه يشك في علاقتها بأبيه، وأنه يتهمها في هذه العلاقة بدليل أن قصة حواء كوناي في روايته (متاهة آدم) أو (المرأة المجهولة) هي انعكاس لقناعاته تلك، وأنه لاحظ شيئاً من خلال نظراته إلى جارهم آدم اللبناني، لكنها مجرد أوهام فليس هناك من علاقة بينهما، فلماذا هذه النظرات الاتهامية القاتلة؟؟

أخذ الدكتور آدم المطرود يكثر من خروجه ويبقى لفترة طويلة خارج البيت، وحينما يعود متعباً فإنه يأكل ويشاهد التلفزيون ويذهب إلى النوم، وأحياناً ينام على الصوف الجليدية في غرفة الاستقبال، وكانت علاقته بزوجته حواء المؤمن باردة، فقد عاد كما كان سابقاً في أيام زواجهما الأولى، يتعامل معها بجفاف لكن دونما تجاوزات، وإنما علاقة روتينية، خالية حتى من الاتصال الجسدي.

هذا الوضع أربك حواء المؤمن كثيراً، إذ اتسعت الهوة بينهما، فلقد شعرت للحظات وهي تقرأ روايته بأنه قريب منها، وأنها بعد ذلك أحسّت أنها اقتربت منه أكثر، لكن اللعنة حلت حينما طرق جارهم آدم

اللبناني الباب، وسألت نفسها: ما الذي جرى، أن جارهم لم يقل شيئاً غير اعتيادي؟ لقد سألت مجرد سؤال عن طرده؟
أحسست أن زوجها غريب الأطوار، فهي لم تفهمه جيداً، ربما لأنه حاصل على شهادة الدكتوراه ومستواه أعلى منها بكثير وبالتالي فهي لا تفهمه؟.

تلك الليلة التي طرق جارهم اللبناي الباب عليهم كانت بداية دخول حواء المؤمن في عالم الروحانيات والتدين، بل بالغت في التدين، وأخذت الكوابيس تراودها أثناء النوم.

لأول مرة في حياتها تفكر حواء المؤمن بالأرواح الهائمة والأشباح والجن والشياطين، كانت تشاهد الأفلام التلفزيونية التي تتحدث عن الأرواح والأشخاص المسكونين بها، وكانت أحياناً تشعر بالخوف من الأشباح.

لم تتبه حواء المؤمن إلى المبنى القديم الذي تقع فيه شقتهم، فهو بيت ألماني قديم من بيوت ما قبل الحرب العالمية الثانية، يتألف من طابقين، في الطابق الأسفل تعيش عائلة لبنانية كبيرة العدد، لذا فإن دائرة المساعدات الاجتماعية أسكنتها في الشقة الكبيرة التي تقع في الطابق الأرضي، أما الطابق الأعلى منه ففيه شقتان صغيرتان، أحدهما تتألف من غرفة كبيرة وملحقاتها يسكنها آدم اللبناي، والشقة المجاورة لها هي شقتهم وتتألف من غرفة الاستقبال ومطبخ في أعماقه تقع غرفة النوم والحمام وبين الغرفتين ثمة باحة صغيرة وضيقة جدا تفصل الباب عن الغرف، وما بين هاتين الشقتين والطابق الأرضي ثمة سلم خشبي قديم يصدر أصواتاً وأزيزاً عند صعود أي كائن عليه.

كانت حواء المؤمن، بعد أن تنجز واجباتها البيئية كإعداد الطعام وغسل الملابس، تقضي بعض وقتها أمام التلفزيون، ثم تتجه للصلاة وقراءة القرآن. وبرغم أنها لا تفهم مفردات العديد من الآيات لكنها كانت تقرأها بإنفعال ورهبة.

كانت تخاف الجحيم وصوره الرهيبة في القرآن، لكنها كانت تخاف أكثر من القصص التي سمعتها أثناء طفولتها أو التي قرأتها في بعض الكتب والكتيبات التي كانت تشتري منها أثناء قيامها بالزيارة إلى المراقد المقدسة للأئمة، لاسيما تلك الكتب التي تتحدث عن عذاب القبر وزيارة الملائكة للميت وحسابه هناك، لكن ما كان يثير رعبها هي تلك التصورات عن عالم القبر، ليس في ما يخص الملائكة، منكر ونكير، وإنما حينما تتصور نفسها وحيدة في ظلمة القبر وتمطر السماء فيتسرب الماء والوحل إلى داخل القبر ويغطيها بينما هي عاجزة عن الحركة، أو حينما تتسلل الأفاعي إلى قبرها وتسير زاحفة على جثمانها بينما هي لا تستطيع الصراخ أو الحركة، أو حينما تصل العقارب إلى قبرها وتدب عليها وهي مشدودة بالكفن، والغريب أنها في كل هذه التخيلات عن موتها تتصور نفسها حية، أي في وعيها لكنها ملفوفة بكفنها ومتروقة وحدها هناك؟

أحيانا كانت ترواها تساؤلات غريبة، مثلا أين سيجلس الملاك منكر ونكير، فلا مكان في القبر، إنه ليس غرفة وإنما حفرة يدفن فيها الجثمان ويهال عليه التراب، فياترى كيف سيدخل منكر ونكير؟؟ ثم ماذا عن الذين يموتون غرقا أين سيكون منكر ونكير؟ هل سيسبحان تحت الماء؟

وماذا عن تلك الجثث التي تأكلها الأسماك المختلفة؟ كيف سيحاسبها منكر ونكير؟؟ وماذا عن الذين تتمزق أجسادهم في الحروب ولا يبقى منهم سوى أوصال متقطعة من أجسادهم؟ أو عن الهنود الذين يحرقون جثامين الموتى وينشرون رمادها في الريح أو في النهر المقدس، كيف سيحاسبهم منكر ونكير؟؟؟ بعد ذلك تستغفر الله على هذه الأفكار، بل تخاف منكر ونكير أكثر من رب العالمين، فالله نور السماوات والأرض، وهو الرحمن الرحيم، الغفور العطوف الرؤوف. لقد كتب الله على نفسه الرحمة والغفران.

وصارت حينما تستغرق في الصلاة وقراءة القرآن تفز من أي حركة أو نائمة تسمعها في شقتهم الفارغة، وكثيرا ما كانت تتصور بأن ثمة شبهاً أو روحاً تدخل عليها الغرفة أو تقف خلفها وهي مستغرقة في القراءة، فتتوقف حينها عن القراءة للحظات ثم تلتفت مباشرة إلى الخلف فلا تجد أحداً، فتبسم وتصلي على النبي وتقوم من جلستها لتذهب إلى غرفة الاستقبال لتشغل التلفزيون وترقع صوته عالياً ليقضي على هذا الصمت والسكون والوحدة التي صارت ترعبها.

كانت حواء المؤمن تتوقع حدوث كارثة ما لكنها لا تستطيع أن تعرف ما هي، لكنها تشعر بأن زلزالاً سيهز حياتها، وكان هذا الأحساس يعذبها.

في أحد الأيام احتاجت أن تذهب إلى السوبرماركت القريب من بيتهم لشراء بعض منظفات البيت والمواد لغسل الملابس، وكانت قد نسيت أن تطلب من زوجها أن يشتري هذه المواد عند عودته إلى البيت، وما أن فتحت الباب حتى واجهها جارهم آدم اللبناني في تلك اللحظة. كان باب شقته مفتوحاً على آخره.

كان آدم اللبناني واقفاً عند منتصف الباب ما بين الخروج والدخول. ابتسم لها وحيها قائلاً:

– صباح الخير مدام حواء

جمدت هي في مكانها، فلم تستطع أن تتقدم خطوة واحدة. نظرت إليه بارتباك، ولم تجبه، وشعرت فجأة برغبة في الفرار منه وإلا فأنها لا تعرف كيف سينتهي لقاءها معه، فأرادت الرجوع للدخول إلى البيت لكنه كان أسرع منها، فقبض على كفها وسألها:

– ما بك حواء؟ ما الذي فعلته حتى تهربي مني؟

لم تجبه وإنما أرادت أن تسحب كفها من كفها، لكنه كان أقوى منها فسحبها بقوة جاذباً إياها إلى شقته. لم يترك آدم اللبناني الفرصة، فأغلق الباب وأوصده بالمفتاح، شلتها المفاجأة وأخرستها فلم تنطق بشيء،

وبدون أي تحرج، وبجرأة كبيرة حصرها على الجدار وضغط جسده عليها حتى كادت أنفاسها تتقطع لكنها أحست بالخدر، ووجدت وجهه قريبا منها وهو يقول لها:

– ما بك؟ أنت تهربين مني أم من نفسك؟

تمتمت بتوسل:

– أرجوك اتركني

– كيف اتركك وأنا منذ أيام لا أعرف النوم ولا أستطيع الخروج، أجلس قرب الباب مستمعا لكل حركة، مترقبا خروج زوجك، منتظرا رؤيتك، والآن تقولين اتركني..

كان يتحدث بينما يده أخذت ترفع ثوبها إلى الأعلى مداعبا فخذها، انتبهت إليه فأرادت أن تدفع يده عن موضعها تحت الثوب فتحرت مائلة قليلة مما أتاح له أن يطبق بشفتيه على شفيتها، فرفعت رأسها فصارت شفاهه على رقبتها ونزل بهما إلى صدرها. في هذه اللحظات تذكرت رواية (متاهة آدم) التي كتبها زوجها، أحست بالتهيج، لكنها أرادت أن تقاوم، فهي الآن متحجبة وتقيم الفرائض، لكن آدم اللبناني كان منهمكا في التوغل إلى مناطقها الحساسة، وبدون أن تتوقع رفعها من وسطها وذهب بها إلى السرير، وألقاها عليه.

حاولت حواء المؤمن أن تصرخ لكنها كانت عاجزة فلا صوت يخرج من حنجرتها، وأحست بالشلل الكامل. أرادت الهرب من السرير، لكنه كان أقوى منها، فرفع ثوبها إلى وسطها وكشف عن أسفل جسدها. لم تعرف متى وكيف فتح آدم اللبناني حزامه وبنطاله، كان شبه عار أيضا، ودون أن يعريها، فتح فخذها وأزاح سروالها جانبا بحيث يستطيع أن يولجه فيها. كان فرجها نظيفا جدا، ومبتلا قليلا، فأولجه فيها بسهولة.

كانت هي في حجابها ملقاة على سرير آدم اللبناني، وكان هو داخل فيها بقوة وانتصاب عجيب، وكانت هي وكأنها ليست هي، بل تسترجع مشهد اغتصاب السكرتيرة في الرواية. فجأة أحست بالخدر وتيارات

كهربائية تتابها، تيارات من المتعة، وكان وجهه قريبا منها، فلم تجد نفسها إلا وهي تضمه وتقبله بشراهة وعنف، وأحست به وهو يملأها بمائه، أحست بدفقاته فيها، أحست بأنها تغرق، وتهوي معه في هوة بلا قرار. بعد لحظات انتبهت لما اقتربت فصاحت بأعلى صوتها:
- استغفر الله... عليك اللعنة..

وهربت من الغرفة. فتحت الباب ودخل شقتها التي بابها لما يزل مفتوحا.

أغلقت الباب ووقفت خلف الباب متكئة عليه وهي ترتعش من الغضب الممزوج بارتعاشات اللذة التي تسري كتيار في مسامات جسدها. أحست بسائله المنوي يخرج منها فاسرعت إلى الحمام نازعة عن نفسها وهي في الطريق حجابها وبلوزتها الخفيفة وثوبها الطويل، ووقفت تحت دش الماء نازعة عنها ما تبقى عليها من قطع قماش.

أخذت تفرك جسدها بالماء والصابون بسرعة وقوة وكأنها تريد أن تتخلص من رجس لوث جسدها، بل أخذت خرطوم الماء وأدخلته حتى فتحة رحمها محاولة تطهير رحمها من مني جارهم الذي اغتصبها.

أرجعت خرطوم الماء إلى موضعه وقرصت تحت شلال الماء المنهمر، وهي تسأل نفسها لماذا لم تصرخ؟ ولماذا لم تقاومه؟ بل لماذا ضمته وقبلته بشهوة وحرارة وهي تلهث من الشهوة والمتعة؟ هل هي سافلة ومنحطة وفاسقة إلى هذا الحد، بحيث تقوم الليل بالصلاة وقراءة القرآن بينما في أول خطوة لها خارج الباب تنهار وترني؟

فجأة تذكرت زوجها وألقت اللوم عليه، فهو لم يقترب منها منذ عشرة أيام، بينما عودها منذ سنوات بأن يضاجعها بشكل شبه يومي، فهي تعودت على المضاجعة وأدمتها ولا تستطيع أن تبقى هكذا، لكنها لعنت نفسها. تعرف أنها تبحث عن تبرير لفعلتها. أخذت تبكي وهي في جلستها تلك، بينما ظل شلال الماء ينهمر عليها غاسلا دموعها ورجسها الذي هز كيانها.

آدم البغدادي: كان موقف الدكتور آدم التائه من زوجته كثيرًا عليها، فلم تستطع أن تتحمّله، لا جسديًا ولا نفسيًا، فهو يعرف أن ابتعاده عنها بهذه الطريقة هو عقوبة جسدية كبيرة لها، لكنه أيضًا عقوبة نفسية أشد، فهي حبيسة الجدران الأربعة ولا تخرج من الشقة تقريبًا، لكنه لم يقدر الأمور حق تقديرها، ولا هي كانت تتوقع أن يتجرأ جارهم آدم اللبباني على اغتصابها، لكنها أيضًا كانت لديها رغبة دفينة في أن يقوم بذلك، ولولا أنه قرأ ذلك في وجهها وأعماق عينيها لما تجرأ على أن يأخذها بهذه الطريقة السهلة. ربما هذه هي بداية نهاية حواء المؤمن، فهي قد دخلت مرحلة جديدة أخلط عليها الوهم بالواقع.

الفصل الثالث عشر

الجنّي الأزرق

حين عاد الدكتور آدم التائه متأخرا على غير عادته في ذلك اليوم بعد أن شارك في تظاهرة سياسية عراقية ضد النظام في مدينة (كولن) كانت زوجته في سريرها تبكي.

لم ينتبه لها أول الأمر، لكنه حينما دخل المطبخ وبدأ يفتش عن الطعام قامت هي من سريرها وجاءته لتعد له الطعام فلاحظ أنها على غير عاداتها، وانتبه لعينيها المغروقتين بالدمع وأنفها المنتفخ قليلا فعرف أنها بكت بحرقه. سألها دونما اهتمام واضح وبحيادية:

– ما بك؟

أجابت بحزن ممزوج بالخوف:

– لا شيء

خرج آدم التائه من المطبخ متجها إلى غرفة الاستقبال دون أن يبدي اهتماما أكثر بوضعها، فقد كان متعبا واعتقد أنها متأثرة من تعامله الجاف معها، وقرر مع نفسه أنه سوف يرضيها الليلة.

أعدت له العشاء، بيضا مخفوقا بالدهن، شايا عراقيا وجبنا لبنانيا وزيتونا يونانيا وخبزا تركيا. وضعت الصينية أمامه وجلست بالقرب منه بينما كان هو يتابع قناة عربية تبث من لندن.

لم تطلق حواء المؤمن الاستمرا بالجلوس، بدت وكأنها في عالم آخر فهضت خارجة من غرفة الاستقبال متجهة إلى غرفة النوم.

حينما فتحت حواء المؤمن باب غرفة النوم لم تستطع أن تبصر

أي شيء. كانت الغرفة باردة وملئية بالضباب البارد المخضر ويتوسط الضباب ضوء فضي باهر مائل للإخضرار وكأنه ينسكب من مكان مجهول في السماء.

توجهت كالمأخوذة إلى سريرها، إذ لم يراودها قط أن تهرب أو أن لا تدخل الغرفة أو تنادي زوجها. ألقَتْ بنفسها على السرير واخذت تحديق في المجهول، نحو جهة الضوء الفضي المخضر الباهر والضباب الكثيف. أحست أن ثمة شيئاً يقترب من خلال الضباب، شيئاً فشيئاً بدأ ثمة مخلوق يشبه تلك التي رأت مثلها في بعض الأفلام الغرائبية، هيئته هيئة رجل بلا ملامح، أصلع الرأس، لا يرتدي شيئاً وبرغم ذلك كان وكأنه يلبس بدلة فضية مائلة للإخضرار تغطي جسده. كان وجهه بلا ملامح، وكان بلا عينين، فليس في محجر العينين أي شيء. كان يذكرها بتمثال الأوسكار الذي تراه أحيانا في الأفلام والمجلات الفنية.

إنكمشت مرعوبة في سريرها حين وقف عند حافة السرير من جهة القدمين. أحست بريح باردة، وعلى الرغم من أن هذا المخلوق كان بلا ملامح إلا أنها لاحظت ما يشبه الابتسامة قد ارتسمت على وجهه المطاطي الفضي. أحست بخوف طفولي بريء وأخذت تبسمل مع نفسها عسى أن يختفي هذا المخلوق فكثيرا ما سمعت عن تأثير البسملة على كل شيء أثناء الخطر لكن هذا المخلوق لم يختف.

مد المخلوق الفضي المائل للإخضرار وجهه لها فامتد لأكثر من متر حتى صار وجهه قريبا منها على بعد سنتيمترات قليلة. لم يكن يتنفس، وبرغم وجود أنف يتوسط وجهه الخالي من الملامح إلا أن أنفه كان بلا منخرين. أغمضت عينيها خوفاً، لكن بعد ثوان قليلة فتحتهما فرأت في موضع عينيه ما يشبه المجرات والكواكب والسحب الكونية، ثم سمعت صوتا وكأنه صوت ميكانيكي وغير بشري يأتي من آلة تسجيل، سمعت:

- من أنت؟

إرتبكت حواء المؤمن وقالت متممة برعب:

- أنا حواء المؤمن زوجة الدكتور آدم التائه
حدق المخلوق الفضّي إليها قليلاً فرأت تحولات وصوراً في محجر
عينيه وكأنّ فيلماً مصوراً مرّ في لحظات، ثم سمعت صوته قائلاً:

- هذا بيتي. لقد حكّم عليّ بالنفي كعقوبة فألقيت بي إلى كوكب
الأرض. سُجنت في أعماق البحار. هذه الأرض كانت بحراً
قبل ملايين السنين، ثم انحسر البحر فصارت أرضاً، ثم غابة، ثم
سكنتها الدببة، ثم آدم، وما أن عمّرت ببني آدم حتى تمّ إطلاق
سراحي، لكنني صرت أعود إلى هنا كل ألفي عام. في المرة
السابقة كانت هنا خيمة لحكيم الهمج. ورغم أنني أنهيت فترة
عقوبتي وعدت إلى موطني في مجرة السديم الأزرق، إلا أنني
أزور هذا المكان مرة كل ألفي عام كما قلت. هذه المرة أنت
هنا، لا تخافي، لا أريد أن ألحق الأذى بك، لكن لا تخبري
أحدًا بوجودي، أنت فقط سترينني، سأكون هنا معك، في هذا
البيت وفي أي مكان ستذهبين، هل فهمت؟

تمتعت حواء المؤمن مرعوبة:

- فهمت... فهمت..

مد المخلوق رقبتَه التي تطول إلى أي مدى يريد، وأخذ يتأملها ثم
سمعت صوتاً صادراً منه:

- أنت آدمية جميلة.. أريدك لي

فتمتعت مرعوبة:

- أنا متزوجة

- أعرف أنك متزوجة من هذا الذي أسمه الدكتور آدم التائه، لكنني
أحببتك، أنا المخلوق من النار الزرقاء والدخان، أنت لي أنا.

كانت حواء المؤمن تفكر مع نفسها بأن ما يجري مجرد تخيلات، لذا
شعرت بشيء من الجرأة في الحوار والمغامرة، فقالت بصوت خافت:

- أنا إنسانة وأنت مخلوق غريب لا أعرف كيف أسمّيك فماذا تريد

مني؟

- أتم بنو آدم تسموننا الجن أو الأشباح أو الشياطين، تطلقون علينا أسماء مختلفة، لكن الجوهر واحد هو أننا لسنا من لحم ودم ولسنا مقيدين بقوانينكم البيولوجية والفيزيائية، وبرغم ذلك تعتقدون أنكم أفضل وأشرف وأعظم المخلوقات في هذا الكون الرحيب، بينما نحن ننظر إلى بني آدم من السماء وهم يتخطون في الحضيض، في الشقاء الأرضي، نراكم تلهثون وراء المال والسلطة، وراء الذهب والنفوذ، تهربون من أنفسكم، تذهبون طائعين إلى عبودية المال والسلطة. أنتم منافقون، كلكم تتحدثون عن الخلاص لكنكم لستم صادقين لأنكم تستفيدون من كلامكم لتبنوا سلطانا وجاها ولتكنزوا الأموال، وبذلك تصيرون عبيدا لدعوى الخلاص، بل دعوة الخلاص تصير مهنة لكم.

صمت المخلوق الفضي لأقل من دقيقة، ثم واصل وكأنه يترافع في محكمة:

- ليس بنو آدم أفضل المخلوقات، فنحن أفضل وأذكى وأقوى منكم. نحن نرى ونسمع ونتحرك ونطير بسرعة الضوء ونتحول كما نشاء بينما أنتم لا تستطيعون ذلك، ونحن أشرف فنحن من نار زرقاء بينما أنتم من لحم ودم. أنتم جيفة، داخل كل منكم جيفة، غائط وبراز وسوائل كريهة، وعند الموت تتحللون وتكون جيفتكم قاتلة، لا يمحوها سوى التراب، بينما نحن نار زرقاء، موتنا إنطفاء، ومقبرتنا السماء. لستم أشرف منا وأكرم. أنظروا إلى أنفسكم حينما تتغطون، سواء كان الشخص ملكا إمبراطورا أو ملكة جمال فأنهما حينما يتغطان ويتدفق الغائط والروائح الكريهة منهما فأنهما يكونان أسفل سافلين، فحتى خراء بني آدم أكثر جيفة من براز بقية الحيوانات على الأرض فأين الشرف والكرامة؟

فقلت متممة:

- أنا لا أفهم هذا الكلام الكبير، ماذا تريد مني؟

تقدم بجذعه الأعلى متمططا ومقتربا:

- أريدك... أريدك لي

- أنت جنني وأنا إنسانة

- ثم ماذا...

- أنا أخاف منك..

- لا تخافي مني، على العكس أنا سأحميك، سترتاحين معي.

صُدمت حواء المؤمن من سماع ذلك، فقلت بشكل ميكانيكي وكأن

شخصا آخر كان يجيب:

- استغفر الله..

فقال بنبرة حادة:

- هل تريد أن أخطفك وأذهب بك إلى كهوف بعيدة؟

فقلت مرعوبة:

- لا..

- لا تخافي.. ستستمتعين معي. أعرف أنك تحبين الأير طويلا

ومتيئا، وسأريحك أنا من هذا الجانب، وسأوفر لك كل شيء

من مال وثياب ومجوهرات

أحست حواء المؤمن بالخجل والخوف من كلامه، لأنه يعرف عن

مشاعرها الدفينة ورغباتها التي لم تفصح بها لأي كان.

- سأكون معك في كل مكان، وسأنتظرك وحدك هنا في هذه الغرفة.

بدأ المخلوق الغريب ينسحب ويدخل وسط الضباب ثانية، وفجأة،

وكان ريحا تدور، إلتف الضباب واختفى كل شيء. أحست حواء المؤمن

أن كل ما جرى وكأنه مشهد من فيلم سينمائي أميركي عن مخلوقات

الفضاء، وبرغم أنها كانت تستشعر وجود شيء ما في هذه الغرفة، لكنها

لم تفكر لحظة بأن يكون الجنني بهذه الهيئة، فقد تصورته طويلا، ضخما،

أصلح أو بظفيرة، لديه مخالب طويلة، أخضر، كما تم تجسيده في بعض الأفلام العربية والأجنبية المأخوذة عن قصص ألف ليلة وليلة.

كانت حواء المؤمن في فراشها في حالة ذهول وخوف. فكرت لماذا ظهر لها هذا المخلوق الغريب؟ ولماذا أختارها لتكون له؟ ماذا يقصد بذلك؟ هل هي رخيصة إلى هذا الحد بحيث حتى الجني يطمع بها؟ أو لأنها جميلة فعلا بحيث يرغب فيها الرجال فور رؤيتهم لها؟ ولكن كيف عرف أنها تحب عضو الرجل طويلا ومتينا؟ ومرقت في أعماقها رغبة غريبة في تجرب ذلك، لكنها تذكرت أنه بلا ملامح وأعضاء بشرية سوى القامة.

تاهت حواء المؤمن في براري تفكيرها. سألت نفسها، هل يجب أن تخبر زوجها بما رأت؟ لكن ذلك المخلوق طلب منها أن لا تخبر أحدا بما جرى، ثم كيف سيكون رد فعله إذا ما أخبرته بكل تفاصيل الحديث الذي جرى بينهما؟

صحيح أنها لا تذكر كل ذلك الحديث عن بني آدم والمقارنة بينهم وبين الجن بالضبط، ولم تفهم أبعاده، إلا أنها تذكر جيدا إشارته بأنه سيتمتعها لأنها تحبه طويلا وضحما، وأنه يريد لها، وأنه سيكون معها، وبإمكانه اختطافها.

أحست حواء المؤمن بأن ثمة تغييرات تجري في أعماقها، وبأنها بدأت تفقد شيئا من ذاكرتها، وأنها صارت ليست هي نفسها. أحست أنها بدأت تخرج من شخصيتها مثلما تخرج الأفعى عن جلودها القديم. خافت قليلا، لكنها أحست بالراحة لهذا التغيير الذي يجري فيها ومعها، إذ أحست أنها صارت لامبالية قليلا، لايهمها كيف ستنتهي هذه المغامرة، ثم أن الجني وعدها بأن يحميها، لذا قررت أن لا تخبره بشيء.

قامت من مكانها واتجهت إلى غرفة الاستقبال حيث زوجها. حينما دخلت عليه وجدته منشغلا بقراءة كتاب رسمي وصل إليهم من دائرة الأجانب، لكنه لم يفهمه بالكامل، إذ وجدت القاموس الألماني العربي

بالقرب منه، بينما جميع الصحون في الصينية فارغة.

جلست على مقعد مقابل زوجها. لم يعرها اهتماما، إذ كان منشغلا بالكتاب الرسمي في يده، ثم أخذ القاموس ففتحه مفتشا عن معنى إحدى المفردات في الكتاب، لم يجدها، فألقى بالقاموس جانبا، ثم طوى الكتاب ووضعه على الطاولة القريبة منه. رفع رأسه إليها قائلا:

– هذه رسالة من محكمة اللاجئين في تسيلندورف فيها تحديد موعد للمقابلة في قضية اللجوء، ومعها كتاب من دائرة الأجانب يدعوننا إلى أن نقدم طلبا وأشياء أخرى لم أفهمها. غدا أتحدث مع المترجم مصطفى بوزونيتو الجزائري الذي يعمل هناك ليترجمها لي.

شعرت وكأن الأمر لا يعينها فانتبه هو لذلك. تأملها، وجدها مرتبكة ونظراتها شاردة، فقال لها:

– ما بك؟ حينما جئت اليوم وجدت عينيك محمرتين ومتفخختين من البكاء، والآن أراك وكأنك تائهة، حتى أن خبر تحديد موعد لمقابلتنا في محكمة اللاجئين لا يثيرك، بينما كنا نتنظر ذلك شهورا، ما بك؟

– لا شيء..

– لا شيء، كل هذا ولا شيء؟

فجأة أحست وكأنها صحت من غيبوبة، أو وكأنها عادت من رحلة طويلة، ارتبكت وأحست بشيء من الخجل، متذكرة اغتصاب جارهم لها، فقالت:

– لا شيء أنا تعبانة قليلا

راود الدكتور آدم التائه شعور بالتعاطف معها، وأحس بالذنب في أنه يتركها طوال النهار وحدها، لكنه يعرف أن متعتها الحقيقية هي الجنس لذا أراد الاقتراب منها، انتبهت هي لذلك، وقبل أن ينهض قامت هي قائلة:

– سأذهب لأستحم، هل تحتاج شيئا؟

- لا..

قامت خارجة بينما ظل هو جالسا في مكانه يفكر كيف سيرضيها بعد الحمام. بعد دقائق قليلة قام واتجه إلى الطاولة وجلس على الكرسي. نظر إلى مخطوطة روايته (متاهة آدم) أو (المرأة المجهولة)، أخذها وتصفحها. فكر في أن يكتب فصلا أو أكثر يكمل فيه حكاية (حواء كوناى) يروي فيه مصيرها وكيف صارت مهندسة وكيف واجهت الحياة بعد موت زوجها وعمها، لكنه فكر أيضا ربما سيكون شيقا أن تبقى المصائر مفتوحة على أقدارها.

لا يدري كم مر من الوقت وهو على كرسيه مستغرقا في تفكيره بمصائر أبطال الرواية، لكنه انتبه إلى أن التلفزيون الألماني كان يبث موجزا للأخبار عند منتصف الليل، وهذا يعني أنه أمضى مع روايته أكثر من ساعتين.

قام واتجه إلى غرفة النوم بعد أن أطفأ جهاز التلفزيون والضوء في غرفة الاستقبال، وحينما فتح الباب كانت الغرفة مظلمة وزوجته نائمة في سريرها، فأغلق الباب ثانية وعاد إلى غرفة الاستقبال. ضغط على زر التيار الكهربائي فأضاء الغرفة ثم اتجه إلى طاولته وجلس على كرسيه مسترخيا غارقا في تأملاته.

آدم البغدادي: لا أدري كيف سأمضي بهذه الشخصيات نحو مصيرها الروائي، فأمامي نهايات متعددة للدكتور آدم وزوجته حواء المؤمن. إن مصير كل منهما هو احتمال من بين مئات الاحتمالات التي يمكن أن تحدث أو حدثت فعلا.

لا أدري لماذا غيرت صورة الجنى الأزرق وقدمته بهذه الصورة، فقد روى الدكتور آدم التائه، وأقصد صديقي الدكتور الحقيقي، بأنه تعرف على أديبة خليجية معروفة روت له بعد حديث عن الأرواح والجن بأن جنيا يعشقها، وعلى الرغم

من أنها كانت متزوجة وأم لعدة أبناء، إلا أن هذا الجني كان يضاجعها بشراهة والغريب أنه أحياناً كان يضعها في كفه، كما روت له، وأنه كان بالهيئة التي قدمتها الأفلام العربية، ضخماً، أخضر اللون، أصلع الرأس، نتن الرائحة، وكان يعرف عنها كل شيء.

وكما روى لي الدكتور الذي جسده فيما بعد من خلال شخصية الدكتور آدم التائه، بأن هذه الأديبة كانت مثقفة جداً وتعرف كل النظريات حول الكبت واللاوعي، وأنها تؤكد بأن ما يجري معها حقيقة وليس أزوداجية في شخصيتها، ولا تعبيراً عن رغبات جنسية دفينّة.

الفصل الرابع عشر

باب الضياع

لم تخرج حواء المؤمن من الشقة منذ عشرة أيام حتى ولو لشراء أشياء تخص المطبخ والغسيل. انتبه زوجها ذلك ففسره بالتحولات النفسية المزاجية للمرأة، لاسيما وأنها توجهت في الفترة الأخيرة نحو التدين فتحجبت وبدأت بالصلاة في مواعيدها.

كان هو يخرج مبكرا أحيانا ويعود متأخرا فيجدها نائمة أو يجدها متعبة، لكنه استغرب من إبتعادها عنه وتهربها من أي تلاحم جسدي معها. انتبه إلى أنها تقضي معظم وقتها في غرفة النوم، وظن أنها مشغلة بالصلاة والعبادة. وبرغم إستيائه من إبتعادها عنه إلا أنه ضغط على نفسه وألزمها بالصبر لبضعة أيام أخرى.

أما حواء المؤمن فأنها صارت كالمأخوذة، فهي تؤدي واجباتها البيئية من طبخ وغسل ملابس بسرعة شديدة لتدخل غرفة النوم وتستلقي على السرير منتظرة حضور الجنى الأزرق.

في اليوم التالي من رؤية الجنى الأزرق كانت خائفة من دخول الغرفة، فبعد أن خرج زوجها من البيت بقيت وحدها. حاولت أن تجد لنفسها أي حجة للخروج من الشقة، ولا تعرف كيف حضر جارهم آدم اللبناني في ذهنها، وتمنت لو أنه في شقته، أخذت تفتعل الضوضاء عند الباب الخارجي للشقة ليتبته لوجودها. لم تخرج من الشقة وكأن ثمة قوة خفية تشل إرادتها، فبرغم خوفها من البقاء وحيدة إلا أنها لا تستطيع الخروج بل ولا تريده.

ظلت حواء المؤمن ذلك النهار تنتقل بين المطبخ وغرفة الاستقبال وتتجنب الدخول إلى غرفة النوم، وأخيرا حزمت أمرها فتوجهت إليها بهدوء وتردد وفتحت بابها وبسملت ثم دخلت.

كانت الغرفة خالية من أي أثر غريب، لا ضباب ولا برودة، ولا ضوء فضيًّا مائلًا للإخضرار، كان السكون يعم الغرفة.

جلست على السرير للحظة ثم استلقت على ظهرها منتظرة أن يحدث شيء، لكن لم يحدث أي شيء، ولا في اليوم الذي بعده، ولا في اليوم الثالث، بل صارت مهووسة بالبقاء في الغرفة متمنية أن يظهر لها الجني، بل اجتاحتها أمواج الرغبة.

وهكذا سكنت الغرفة معظم وقتها خلال تلك الأيام الفائتة، ولم تغادرها إلا عندما يأتي زوجها بعد المغيب فتقدم له العشاء ثم تعود إليها ثانية، وحينما تشعر بدخول زوجها تغمض عينيها وتبدي وكأنها تغط في النوم، فيتمدد إلى جانبها، وأحياناً يحاول أن يشعرها بوجوده لكنها، وهذا ما أثار إستغرابها من نفسها، لم تحس بأية رغبة في التواصل معه، فهي في شوق ولهفة للقاء الجني الأزرق والتأكد من عودته لها.

يُست حواء المؤمن من ظهور الجني الأزرق ثانية، فأخذت تعود شيئاً فشيئاً إلى طبيعتها وحياتها الاعتيادية، حتى أنها أخذت تشك بأن كل ما جرى معها لم يكن أكثر من رؤيا وأوهام اختلقها عقلها، كما شعرت بالذنب إزاء زوجها الدكتور آدم التائه، فهي لأول مرة منذ زواجهما تنقطع عن التواصل الجسدي معه لفترة طويلة دون أن يبدي تذمرا أو يجبرها على فعله، وهذا ما قدرته في شخصيته.

حينما استيقظت صباح هذا اليوم على ضوءاء قادمة من المطبخ عرفت حينها أن زوجها قد استيقظ قبلها، وربما هو الآن يسعى لإعداد القهوة، فأحياناً حينما يريد أن يكتب فجرا أو في وقت متأخر من ساعات ما بعد منتصف الليل يقوم هو بإعداد ما يحتاجه، شايا أو قهوة أو النسكافيه المحلاة بالسكر ومسحوق الحليب.

لا تدري ما بها. لم تشأ أن تواجهه في المطبخ وانتظرت إلى أن يذهب إلى غرفة الإستقبال، إذ أحست أن ثمة فراغاً نشأ بينهما، وأن ثمة فتورا يتغلغل في أعماق روحها. سابقا كانت تمنى أن ينظر إليها نظرة رضى ومودة. كانت تهاب شخصيته، وتهاب سمعته الأكاديمية والأدبية. كانت مليئة أعجابا به وبرجولته وخبرته في ايقاظ حواسها ورغبتها الشبية، لكنها الآن فاترة الأحاسيس والمشاعر نحوه، بينما كانت في الأيام السابقة مشتعلة بل ومهووسة بالجني الأزرق، لكنها استغربت أنها فكرت في آدم اللبناني أكثر من مرة، وأحست برغبة في رؤيته والإلتقاء به، برغم أنها عانت ما عانت من عملية إغتصابه لها، بل تتعجب الآن من نفسها، ومن رغبة في أعمق أعماقها في أن يغتصبها ثانية.

حينما أحست بأن زوجها صار في غرفة الإستقبال نهضت عن السرير بتثاقل. دخلت إلى غرفة الحمام. أقفلت الباب وتعدت ثم دخلت الحاجز الزجاجي تحت رشاش الماء. فتحت الصنبور على الماء الحار والبارد معاً، فانهمر الماء البارد أولاً ثم صار دافئاً شيئاً فشيئاً إلى أن صار ساخناً تقريباً. ظلت حواء المؤمن تحت الماء المنهمر عليها بقوة شاردة الذهن. كانت تفكر في أشياء كثيرة مرت على ذهنها المتعب، لكن ما سيطر عليها هو عملية اغتصابها، إذ أخذت تفكر بكل تفاصيلها. فجأة ندت عنها صرخة خافتة حينما سمعت طرقة على باب الحمام وسمعت صوت زوجها يسألها:

– حواء هل هناك شيء؟ هل أنت على ما يرام؟

فقالت مرتبكة وهي تغلق صنبور الماء الساخن:

– لا شيء.. أنا على ما يرام.. سأخرج حالا

أحست بتدفق الماء البارد على جسدها فشعرت بقشعريرة، ومدت يدها فأغلقت الصنبور وخرجت من الحاجز الزجاجي وأخذت المنشفة غطت جسدها الفتى ونشفتها من البلل، ثم ارتدت ثوبها ولفت المنشفة على رأسها وخرجت.

كان الدكتور آدم التائه يتصفح القاموس الألماني العربي حينما دخلت عليه وألقت عليه تحية الصباح بطريقة ميكانيكية:

- صباح الخير

تأملها للحظات ثم قال لها:

- صباح النور

صمتت للحظات وهو ينظر إليها ثم سألها فجأة:

- حواء، ماذا بك؟ هل أنت مريضة؟ هل تحسين بشيء يقلقك؟

إستغربت سؤاله وأجابت دونما إهتمام كبير:

- لا، ابدأ، لا أحس بشيء، ربما بعض التعب والتفكير

- التفكير؟ التفكير بماذا؟

- ليس هناك شيء محدد؟ عموماً علي مراجعة طبييتي الإيرانية، ربما

رجعت الآن من إجازتها

- هل تحتاجين أن آتي معك؟

- علي أن أعرف أولاً إن كانت قد رجعت من الإجازة، وبعدها

يمكننا الذهاب، ففي آخر لقاء لي معها قبل ذهابها إلى الإجازة

قالت من الضروري أن تذهب أنت إليها أيضاً.

- لماذا؟

- لا أدري، ربما لتحدث معك عن أسباب عدم الحمل

فوجئ الدكتور آدم التائه بهذا الموضوع واستغرب من سير الحوار

إلى هذه المنطقة، لذلك فسر مع نفسه غرابة حالتها بأنها مشغولة بمسألة

الحمل، ولكونه كان على موعد للذهاب إلى مدينة أخرى مع بعض

العراقيين من أجل توكيل محام ليتولى متابعة ملف اللجوء، فإنه ألقى

القاموس الذي كان يمسكه بيده وقام خارجاً وهو يقول:

- تأكدي من وجود الطيبة وخذي منها موعداً

أوصلته إلى الباب حين خرج، ووقفت للحظات لتودعه وهو ينزل

السلم الخشبي، وبرغم أنه انعطف عن زاوية النزول إلى الطابق الأرضي

إلا أنها ظلت واقفة لا إراديا منتظرة خروج جارهم آدم اللبناني، إلا أنه لم يخرج. حينها سمعت الباب الخارجي يغلق فعرفت أن زوجها قد صار في الشارع. أحست بالخيبة تقبض على نفسها.

دخلت وأغلقت الباب، مضت إلى المطبخ، وفي تلك اللحظات سمعت حركة عند باب جارهم اللبناني فأسرعت إلى الباب الخارجي لتفتحه، وفي طريقها إلى الباب سمعت صوت خطواته وهو يهبط السلم الخشبي، وحينما وصلت الباب وفتحته كان هو قد اختفى في زاوية السلم المتجهة نحو الطابق الأرضي، فأحست بخيبة أكبر وشعرت بالندم لأنها لم تطل وقفوها ولو لدقيقة عند الباب.

أغلقت الباب ثانية ووقفت خلف الباب للحظات. فجأة، شعرت بالخجل المصحوب بالمهانة والإذلال. فكرت مع نفسها هل هي عاقلة أو مجنونة؟ لماذا تركض وراء الرجل الذي اغتصبها؟ هل هي امرأة ساقطة؟ لماذا هذا اللهاث وراء الجنس بحيث صار معنى لوجودها ولا يمكنها أن تتصور الحياة بدونه؟ كيف يمكنها أن توفق بين الصلاة وبين اللهاث وراء الجنس والزنا؟ ولماذا الزنا؟ أوليست هي متزوجة من رجل وسيم وقوي ويعاملها بطيبة؟ ألا يشبعها زوجها؟ بلى إنه يلبي رغبتها؟ فلماذا تفكر في جارهم؟ هل هذه هي القيم التي تربت عليها؟ ألم تستغفر ربها وتوجهت إلى الدين؟

إسترجعت في لحظات شريط حياتها السابقة متوقفة عند محطات علاقاتها بالرجال، بدءاً من علاقاتها الأولى، إلى زواجها الأول، ثم زواجها الثاني، وأخيراً آدم اللبناني والجني الأزرق.

سألت نفسها، هل أرادت أن تخون زوجها مع الجني؟ نعم كانت هي مستعدة لذلك؟ ما بها؟ هل هي مريضة بحيث لا يمكنها الصبر على الجنس؟ لكنها منذ عشرة أيام قبل نزول دورتها الشهرية ولحد الآن، أي ما يقارب الشهر، لم يقترب زوجها منها، بل شعرت أنه يعيش على أعصابه معها، لكنه صبور وخلق وفي غاية التهذيب والإحترام لها.

آدم البغدادي: ليس بودي الاسترسال بقصة الجني الأزرق
رغم كم التفاصيل التي سمعتها عن حكاية الأديبة الخليجية
وعلاقتها بأحد الجن، وكمّ القصص التي سمعتها في هذا
المجال، لماذا؟ أنا شخصياً لا أعرف سبب هذه الممانعة الداخلية
للدخول في تفاصيل حكايات الجن، فربما هناك في اللاوعي
خطة لتخصيص عمل خاص يتناول هذه الحكايات، وربما أجد
أن الدخول بتفاصيل هذه الحكاية سيفقد العمل الروائي شيئاً من
صرامته الواقعية، لا أدري.

الفصل الخامس عشر

طفل الخطيئة

مر أسبوعان منذ أن غادرا مدينتهما الصغيرة متجهين إلى جنوب ألمانيا، إلى مدينة تسيلندورف، حيث تتم مقابلة اللاجئين السياسيين إلى ألمانيا. قبل الموعد المحدد بأيام سافرا إلى أصدقائهم من العوائل العراقية الساكنين في المدن التي تقع في الطريق إلى المدينة - المحكمة. عند كل عائلة يزورانها يسمعان قصصا عجيبة وغريبة، سواء معاناة هذه العوائل في العراق أم في البلدان المجاورة أم معاناة وصولهم إلى ألمانيا، كما التقيا بنماذج مختلفة من العراقيين، ولأن بيوت اللاجئين ضيقة فقد كانت هي تنام مع النساء وهو مع الرجال، وفي معظم الأحيان تكون غرفة الاستقبال هي المكان المناسب للرجال حيث يفترشون الأرض بينما تكون غرفة نوم الأزواج هي مكان نوم النساء.

طوال رحلتها أحست حواء المؤمن أن زوجها يشتهيها من خلال محاولاته الالتصاق بها كلما امكنه ذلك، سواء حينما كانا في ضيافة الأصدقاء أو أثناء التنقل في القطارات، أو حتى حينما كانا يجلسان بانتظار دخولهما إلى التحقيق في مسألة لجوئهما السياسي إلى ألمانيا. لقد مضى حوالي أكثر من الشهر دون ان يقترب منها، فلا هي سمحت له، ولا هو أرغمها على ذلك، لاسيما وأنه انتبه لوضعها النفسي المتقلب.

طوال هذين الأسبوعين، ولدقائق قبل دخولها على المحقق، كان زوجها يلقنها كيف تجيب على أسئلتهم بحيث لا تتضارب معلوماتها، لأن التحقيق يكون منفصلا، فلربما سيسألونها نفس الأسئلة أو بعض

الأسئلة المختلفة ليكتشفا تطابق أقوالهما وصدقهما من كذبهما.
لقد لقيتها زوجها بأن تخبرهم عنه بأنه كان يكتب مقالات ضد السلطة، وأنهم أعتقلوه في العراق وعذبوه، وأنه هرب، وعاش مختفيا، حتى باعت هي كل شيء، ثم هربا إلى الأردن، لكنهما هناك كانا مطاردين من قبل المخابرات العراقية أيضا، والتي كانت تطارد المعارضين العراقيين هناك، وأن زوجها حتى في الأردن كان يعارض النظام ويكتب في صحف المعارضة العراقية، وأنهم فتشوا عنه في الفندق الذي كان يسكنه مما دفعه إلى مغادرة الأردن إلى ألمانيا، وأنه حتى في ألمانيا كان يشارك في المظاهرات ضد النظام الدكتاتوري في بلاده، وفعلا في التحقيق كانت الأسئلة متشابهة تقريبا، وتدور حول وضعهما في العراق ثم الأردن ثم ألمانيا.

في محطة القطار دخلت مع زوجها إلى السوبرماركت الكبير الموجود في المحطة لشراء بعض أنواع العصير والحلوى، وحينما مرت في القسم الذي يحوي على مواد التجميل ومحافظ الدورة الشهرية للمرأة، أحست وكأن وميضاً أنار ذاكرتها، إذ إنتبهت إلى قضية هي بشارة وكرثة في الوقت نفسه.

إنتبهت إلى أن موعد دورتها الشهرية قد مر عليه حوالي الأسبوع دون أن تظهر عليها علائم قدومها. فجأة ولا إراديا همست مع نفسها:

– يا مصيبيتي...

تذكرت أن زوجها لم يقترب منها لأكثر من عشرة أيام قبل نزول دورتها الأخيرة، ولم يمسهما بعد ذلك سوى آدم اللبناني، الذي كان قويا وماؤه دافقا وغزيرا. هل هذا يعني احتمال أن تكون حاملا من آدم اللبناني؟ همست مع نفسها:

– يا إلهي خلصني من هذه المصيبة، خلصني من هذا العار، يا ربي

جد لي حلا، يا ربي دع هذا الأمر يمر على خير، لا أريد ابن زنا؟ لا أريد العار يا ربي. لماذا يكون جزاء زوجي الطيب أن

آتية باين حرام؟ ربي إنقذني..

شحب لون وجهها وتبلبل جبينها بالعرق بينما كانت هي منهمكة مع نفسها بقراءة الأدعية والرجاء من الله أن يكون الأمر مجرد إضطراب في الدورة ليس إلا.

إنته الدكتور آدم التائه لحالتها، فسألها بحنان:

– حواء، ما بك؟ هل أنت متعبة؟

فأخرجها صوته من عالمها، فقالت له:

– لا أبدا، ليس بي أي شيء، مجرد تعب.

قررت مع نفسها أن تنتظر لعدة أيام بعدها تذهب إلى الطبيبة النسائية لتجري الفحوصات اللازمة وتتأكد من الأمر.

طوال الطريق كانت تشعر بخوف شديد من أن تكون حاملا، وتمنت أن لا يتحقق ذلك ويكون الأمر مجرد إضطرابات نفسية سببت تأخر الدورة الشهرية، برغم أن الحمل هو حلمها الذي يعيد التوازن لحياتها لكنها أرادته من زوجها وليس من غيره. فكرت مع نفسها كم الحياة قاسية معها.

لم يفهم الدكتور آدم التائه شيئا من هذا التدهور المفاجئ في حالتها النفسية، إذ كانت تائهة النظرات تترقق الدموع في عينيها دونما سبب واضح، لكنه أحس بأن شيئا ما حدث بحيث وصلت إلى هذه الحال التي هي فيها. فكر مع نفسه، ربما بسبب إبتعاده عنها وعدم التواصل معها مما دفعها إلى أن تفكر بأنه لا يريد لها، لكنه برر لنفسه بأنه كان يراها غير مستعدة نفسيا أو نائمة وهو لا يريد أن يتعامل معها دون أن يستلم الإشارة الخفية منها، إشارة التقبل التي يراها في ألق العيون وطبيعة النظرة أو الحركات الخفية والإشارات الجسدية الممغنطة، وخلال الأسابيع الماضية كانت هي في عالم آخر، لكن هذا لا يعني أنه لا يرغب فيها، بل إنه يحس أنها صارت جزءا مهما من عالمه ووجوده.

كان الوقت مبكرا حين وصلا مدينتهم. وعندما دخلا بيتهما القديم التقيا جارهم اللبناني آدم وهو خارج بكامل أناقته. ألقى التحية عليهما وأختلس نظرة خاطفة إلى حواء المؤمن. وبرغم سرعة تلك النظرة إلا أن الدكتور آدم التائه لمحها، وحينما مر من أمامهما ألقى الدكتور نظرة على وجه زوجته وكأنه يريد أن يقرأ ما فيه. لمح أنها صارت أكثر هدوءا، ولم يستطع أن يشخص شيئا محمدا.

لم يتأخرا كثيرا في البيت، فبعد أن تحمما وشربا الشاي وأكلا وجبة الفطور بصمت تقريبا خرجا متوجهين إلى عيادة الطبيب. وعلى الرغم من أنه أراد أن تذهب إلى طبيب متخصص في الطب العام إلا أنها أصرت على الذهاب إلى طبيبتها الإيرانية.

جلس الدكتور آدم التائه في صالة الانتظار في العيادة. حينها لم يكن هناك سوى امرأتين إحداهما ثلاثينية، سوداء الشعر ذات جمال هاديء، مثيرة، تلبس ثوبا ضيقا طويلا يصل إلى قدميها ويكشف عن ساقين ممتلئتين ومتناسقتين وصدر يحمل نهدين صغيرين. أما المرأة الأخرى فكانت شقراء، يبدو أنها ألمانية.

كانت المرأة الألمانية منشغلة بتصفح المجلات التي أمامها، أما المرأة الأخرى، فكانت تنتظر وهي تنتقل بنظراتها بين الفتاتين المساعدتين العاملتين في العيادة والمرأة الألمانية وبينه، ثم تخفض رأسها ناظرة إلى الأرض، لتعود ثانية للتجوال بنظراتها.

بينما كان الدكتور آدم التائه يتأمل المرأة الأخرى محاولا قراءة جسدها وتعريتها في ذهنه مكتشفا جمالها الافتراضي، مفكرا بسبب وجودها في العيادة مفترضا أيضا سيرة شخصية لها من خلال عمرها وطبيعة جسدها وزينتها وثوبها القصير، متخيلا أوضاعا جنسية مختلفة معها سامعا صراخها الشبق وآهاتها المثيرة، أخرجت من حقيبتها كتابا، وبسرعة خاطفة عرف الدكتور آدم التائه أنه كتاب باللغة العربية من خلال عنوان الكتاب على الغلاف الأيمن، إنها رواية (التيه) للكاتب

عبد الرحمن منيف.

أحس الدكتور آدم التائه بفرح يغمره وقرر مع نفسه أن يتعرف على هذه السيدة العربية، لكن هذه التخيلات تم سحقها حينما سمع مساعدة الطبيبة تنادي:

– السيدة حواء فاكهاني

طوت السيدة الكتاب ووضعتة في حقيبتها وقامت متجهة نحو غرف الفحص بينما وصلت زوجته خارجة من ذات المرر الذي يضم الغرف. ربما لأول مرة منذ وجوده في ألمانيا يحس الدكتور آدم التائه بمثل هذه الخيبة، وتنامى في داخله غضب داخلي من زوجته، فلو أنها تأخرت قليلا لأمكنه فتح حوار معها وتعرف عليها. فكر مع نفسه بأنه لا يستطيع حاليا البقاء في العيادة فلا مبرر لذلك، عليه الإسراع بتوصيل زوجته إلى البيت أو الإدعاء بأن لديه موعدا، ثم ليعود منتظرا بالقرب من العيادة خروج السيدة التي عرف اسمها من خلال مناداتها (حواء فاكهاني). سأل نفسه هل هي سورية أم لبنانية، لأن تداول هذا اللقب منتشر في هذه البلدان.

لم يتبه الدكتور آدم التائه لزوجته حواء المؤمن حينما خرجت من غرفة الطبيبة، لأنه كان مشغول الفكر والمشاعر بحواء الجديدة (حواء فاكهاني)، إذ كانت مضطربة وخائفة ووجهها يعبر عن إنشغال وتفكير بعيد، وحينما سألها زوجها وهما خارجان:

– ماذا قالت الطبيبة.

لم تجبه مباشرة حيث صمتت للحظات ثم قالت بصوت منخفض:
– لا شيء.

– لكنك قلت إنها تريد مقابلي

– قالت فيما بعد

إراد الدكتور آدم التائه أن يتخلص من زوجته بأي شكل وأن يرسلها إلى البيت بسرعة فقال لها:

- لدي موعد مهم، هل أوصلك إلى البيت أو تذهبين وحدك؟
لم تجبه. كانت شاردة في أفكارها تطارد خيالات ونهايات بعيدة
جدا. كرر سؤاله بنبرة غاضبة:

- ألا أتحدث معك؟ هل تريدين أن أوصلك إلى البيت أو تستطيعين
الذهاب وحدك؟

نظرت إليه بقلق شديد وقالت:

- أستطيع ان أذهب وحدي، أنا أعرف الطريق جيدا، إذهب أنت
لموعدك.

نظر إليها للحظات وقد استرخت ملامح وجهه ثم استدار، بينما
استمرت هي في الطريق العريض المتجه نحو البيت.

في الطريق العريض المتجه إلى البيت كانت حواء المؤمن مصدومة
من النتيجة التي أخبرتها بها الطيبة، حينما أطلقت في وجهها كلمتها
المصيرية الحاسمة وهي تبتسم محاولة أن تجاملها باستخدام كلمة ذات
أصل عربي: (مبارك) أنت حامل.

لم تعرف حواء المؤمن منذ أن سمعت تلك الكلمة ماذا تفعل؟ هل
تفرح أو تحزن؟ ماذا لو عرف الدكتور آدم التائه بالحمل وشك في أن
الجنين ليس منه، وهي تعرف أنه رجل شكاك؟ هل تكذب عليه وتقول
له إن دورتها انقطعت منذ شهرين لكنها لم تخبره وانتظرت لتتأكد؟ ثم
أنها لا تريد ابن زنا؟ ويا تُرى هل تريد الطفل الذي انتظرته طويلا أو
تريد زوجها؟

كانت حواء المؤمن متوترة جدا من الداخل، وكانت تمشي دون أن
تدري ما يدور حولها، ولم تنتبه للإشارات المرورية حيث عبرت الطريق
برغم الاشارة الحمراء، لكن ومن حسن حظها لم تكن هناك سيارات أو
شرطة سوى بعض الألمان الذين نظروا إليها بغضب مكتوم.

فجأة، وخارج سياق أفكارها وانفعالاتها، انبثقت في أعماقها رغبة عارمة في أن ترى آدم اللبناني. أسرع السير إلى البيت، وصعدت السلم بسرعة وبضجة كبيرة، كي تعلمه بمجيئها، لأنها تعرف أنه يترصد خروجها ودخولها، إلا أن خيبتها كانت كبيرة حينما وجدت بابه مسدودا ولم تصدر أية إشارة عن وجوده.

وقفت للحظات أمام بابه تنتصت لأية حركة تأتي من الداخل فلم تسمع ما يؤكد لها عن وجوده، ففتحت باب شقتها ودخلت ثم أغلقت الباب.

فجأة سمعت طرقا خفيفا على الباب ومحاولة فتحه من قبضته، وما أن فتحت الباب حتى اندفع آدم اللبناني داخلا بارتباك وهو يقول لها بلهفة:

– وينك؟

لم تستطع أن تجيبه فقد أصابها دخوله إلى شقتها بصدمة شلت تفكيرها، وعلى الرغم من رغبتها العارمة لرؤيته إلا أنها لا تريده في شقتها، ولا تدري كيف نطقت بتلك الجملة الحاسمة:

– ليس هنا، أرجوك، خلينا ندخل عندك.

ذهل آدم اللبناني للحظات عند سماع هذه الجملة، وبسرعة فتح الباب وسحب حواء المؤمن بقوة ودخل بها إلى شقته لكنها قالت له:

– علي إغلاق الباب بالمفتاح

فترك يدها حيث أدارت المفتاح في الباب غالقة إياه، وعادت مسرعة إلى الشقة الأخرى المقابلة وأغلقت الباب خلفها. وعند الباب بالضبط أحتضنها آدم اللبناني فأحست بالرغبة فرفع وجهها وأخذ يقبلها بينما يده تمتد تحت ثوبها وتداعب فرجها الأملس، وبينما هو منهمك بفك حزامه مسكت يده وتمتمت وهي مثارة مثله:

– توقف، أريد أن أقول لك شيئا

لم يستمع لها بل استمر في نزع بنطاله، فمسكت يده بقوة وقالت:

- أنا حامل، حامل منك، في بطني طفلك
شلت الصدمة آدم اللبناني، جمد في مكانه للحظات. هربت الرغبة،
وأندفع دون أن يشد حزامه ملقيا بنفسه على الصوفا:
- ماذا تقولين؟
تمتم مصدوما، حانقا، مندهشا، بينما أحست هي بأنها قريبة منه جدا،
جدا، أقرب من زوجها آدم التائه.
جلست إلى جانبه على الصوفا وهي تبحث عن بداية مناسبة لسرد
قصتها، لكنه قاطعها قائلا بهدوء وفي صوته خيبة واضحة:
- هذا ما لم أتوقعه، لقد حاولت أن أكتب قصة بطلتها أنت وزوجك،
لكنني لم أتوقع أن تأخذ القصة هذا المسار بان تحملي مني
نظرت إليه مندهشة وعلى وجهها ملامح خيبة وحزن وسألت:
- هل أنت كاتب أيضا؟
- نعم، أنا أديب في بداياتي. أحاول كتابة القصص والروايات، مالك
تنظرين إلى الأدباء بهذه السلبية؟
- زوجي الدكتور آدم التائه كاتب أيضا
- حقا؟ لم أعرف ذلك
- هذا يعني أنت مثقف أيضا؟
- يعني... من يريد أن يصبح أديبا وكاتبا لا بد أن يكون مثقفا
- إسمعني جيدا، أريد أن تسمع قصتي قبل أن تحدثني عن قصتك
التي تحاول كتابتها عني.

نظر إليها بانتباه وتأمل وكأنه يكتشفها لأول مرة، فقد كانت سابقا
بالنسبة جسدا مثيرا لا يفكر إلا باختراقه واحتوائه وتقيله من الأعلى
إلى الأسفل، لكنه الآن أمام إنسانة، تدعي بأنها تحمل جنينا في رحمها
ومنه بالتحديد.

آدم البغدادي: أحس أنني أتدخل أكثر من اللازم في تقييد وتحديد حركة الشخصيات في هذا الفصل، وهذا ينتقص من الحرية الإبداعية وحرية الشخصية الروائية.

لم أتوسع في خيالات الدكتور آدم التائه في العيادة حينما رأى السيدة حواء فاكهاني، فأثناء كتابتي لذلك المشهد متقصا شخصية الدكتور آدم التائه، راودتني، أقصد راودته أحلام يقظة مليئة بالشبق وتفصيل تجنبت سردها وكتابتها، لخوفي من تداخل أحلامي مع أحلامه، وأيضا خوفاً من إمتلاء الرواية بتفاصيل جنسية وشبقية أخرى.

أحس أنني لقصدية غير إبداعية غيرت مسار الأحداث عندما دخلت حواء المؤمن إلى شقة آدم اللبباني. لم أود أن أتركها تتحدر إلى عالم الغريزة أكثر، بل تقصدت في أن تجلس على الأريكة لتروي له قصتها التي ستغير من مسار الأحداث.

والحقيقة أنني أريد إنهاء هذه الرواية، فأنا أريد أن تكون بحجم متوسط لأن الناس لا تستطيع قراءة الروايات الكبيرة الحجم. شخصيا أحب الروايات المتوسطة الحجم التي أستطيع قراءتها في يوم فراغ مخصص لها، وخلال ساعات معدودة، وليس في أيام، لذا أنوي عدم التوسع في مساراتها وسأحاول الضغط على الشخصيات لكي اقترب من النهاية التي تتسرب من بين يدي كالرمل.

مثملا هو واضح أحاول إختزال الأحداث وسردها بشكل تقريبي لاهتا نحو النهاية، لكن لماذا؟

هل لوضعي الشخصي، والوضع العام الذي يجري في البلاد علاقة بهذا اللهاث لإنهاء هذه الرواية وكأنها خطيئة يجب التخلص منها؟

لقد تم قبل أيام إغتيال صديقي المنقف السياسي كامل شيع

على الطريق السريع شرق بغداد، لا أدري إلى أين نتجه؟
إنني أخاف هذه الرواية، وأتردد في نشرها، فهي مليئة
بالمشاهد الجنسية، وتقدم البشر في حضيضهم الأرضي حيث
هم مكبلون بجاذبية الجسد لا يستطيعون الخلاص والآنفكاك عن
الجاذبية إلا بالإرتماء في أتونها. إنها رواية عن حضيض آدم
الأرضي، لا تهتم هنا الجغرافيا ولا القومية ولا الزمان والمكان.
لست فرويديا لكني أقدر عبقرية فرويد في التوغل إلى أعماق
أعماق النفس لكشف أهمية الجنس في حياة البشر.
إنني احاول هنا أن أكشف عن الوجوه رافعا عنها الأقنعة،
ليس الأقنعة الإجتماعية فحسب وإنما الأقنعة اللغوية، فكل الكلام
الجميل في المرحلة العاطفية والرومانسية من علاقة الرجل
بالمرأة تنهاوى في الممارسة الجنسية، حيث يبرز القاموس
اللغوي الخاص بالجنس.

الفصل السادس عشر

شهران من الشك

مر شهران على ما جرى من أحداث في الفصل السابق. خلال هذه الفترة جرت كثير من المياه تحت الجسور، وانطلقت الكثير من النجوم والكواكب في هذا الكون الفسيح وولدت نجيمات طفلة جديدة. خلال هذين الشهرين جاءت موافقة المحكمة الاتحادية الخاصة باللاجئين باعتبار الدكتور آدم وزوجته بمنحهما اللجوء الإنساني وليس السياسي، وهذا يعني منحهما جواز سفر ألماني وإقامة دائمة تتجدد كل سنتين أو أكثر، ويعني هذا أيضا إمكانية السفر إلى بلدان أوروبا وإلى القارات الأخرى. وخلال أيام بعد وصول الموافقة حصلا على جوازي السفر الخاص بهما. وترتب على ذلك تحول في وضعهما حيث تم انتقالهما من دائرة الأجانب إلى دائرة العمل وسجلا كعاطلين عن العمل، وتحسن وضعهما المعاشي قليلا.

وخلال هذين الشهرين عرف أن حواء المؤمن حامل، وبدأ الشك يمد جذوره الراسخة في نفسه من أن هذا الجنين ليس منه، لكن من يكون الفاعل، ولم يفكر طويلا، فقد أحس بما يشبه اليقين بأن ثمة علاقة ما بين زوجته وجارهم اللبناني.

وخلال هذين الشهرين تعمقت وبقوة علاقة حواء المؤمن بآدم اللبناني، إذ اتفقا ان تتطلق من زوجها الدكتور آدم التائه وتزوجه لأنها لا تريد لأبنها أن يكون نغلا. كما انها احست بأنها تحب آدم اللبناني فعلا، فهو رائع في تعامله معها، بل أنها لا تهابه حيث تأخذ حريتها معه

في الجنس وتحدث معه بألفاظ كانت لا تجرؤ أن تفكر في نطقها مع زوجها الدكتور آدم التائه، بل أنها أخذت تبادر في قيادة العملية الجنسية بينما لم تتجرأ أن تطلق آهاتها الشبقية بكامل حريتها مع زوجها.

خلال هذين الشهرين أفتنع آدم اللبناني من مسألة الزواج من حواء المؤمن، لأسباب عديدة لكن من أهمها أن الجهات الألمانية لن ترحله إلى لبنان إذا ما ارتبط بامرأة ألمانية أو مقيمة إقامة دائمية، وبالتالي فإنه يستطيع البقاء في ألمانيا إذا ما تزوج من حواء المؤمن التي حصلت على إقامة دائمة في ألمانيا. ثم انه أخذ يحس بتعوده على وجودها في حياته فهو يلتقيها بشكل شبه يومي، وكثيرا ما تأتيه وتطبخ له أو تحمل له مما طبخته في بيتها، إنه صار يعرف كل زوايا جسدها مثلما صارت تعرف جسده أيضا.

خلال هذين الشهرين حاول الدكتور آدم التائه معادلة شهاداته الأكاديمية في ألمانيا، كما راسل صديقا يعمل في إحدى الجامعات الخليجية.

خلال هذين الشهرين تكشف له بعض جوانب مشهد المعارضين للنظام وصراعاتهم التافهة، ومبالغاتهم السياسية وإيلاء الأهمية لأنفسهم ودورهم، فأصيب بالإحباط السياسي والفكري.

كان الدكتور آدم التائه في وضع نفسي متعب ومحبط، فشكه شبه اليقيني بزوجته عذبه كثيرا، وكثيرا ما جلس ساعات يفكر مع نفسه عن السبب الذي دفعها إلى ذلك، فهي متدينة، ترتدي الحجاب وتقوم بالفرائض لكنها من جانب آخر غير مخلصه له، ولم يشأ أن يقول مع نفسه بأنها زانية. هل هو المسؤول عن ذلك؟

فكر مع نفسه مسترجعا مسيرة حياته معها، فهو لم يضربها يوما ولم يشتمها أو يعاملها باحتقار يوما، ربما لم يولها الإهتمام الكافي، ولم يمتدحها أو يقل لها كلاما ناعما وجميلا؟ نعم، هذا صحيح، أنه لم يقم بذلك، لكنهما كانا على إنسجام في الفراش، هل كانت غير مرتاحة معه

من هذه الناحية؟ لا، لم يبد عليها أنها غير مرتاحة لذلك؟ ربما أنه كان يمارس معها أشياء تخدش الحياء مما نفرها منه، كدفعها لأخذ قضيبه في فمها لتمصه أو أنه يولجه فيها من الشرج أحياناً، أو أنه يقبل فرجها أحياناً، مما كان يشعر بحرجه من ذلك، ربما تلك الممارسات هي التي أبعدها عنه؟ ربما.

الذي كان أشد إيلاماً وعذاباً بالنسبة للدكتور آدم التائه أن زوجته خانته مع هذا الشاب العاطل عن العمل والذي ربما ينتمي لمافيا المخدرات المنتشرة بين أوساط العرب في ألمانيا، ولم يكن الدكتور يعرف بأن آدم اللبناني شاب جامعي ترك الجامعة في السنة الأخيرة وأنتقل للقتال في صفوف المقاومة اللبنانية، وأنه تركهم وجاء إلى ألمانيا بحثاً عن خلاصه الفردي، وأنه شاعر نشر بعض قصائده في الصحف اللبنانية ولديه محاولات قصصية نشر بعضها وأنه يحاول كتابة رواية عنه وعن زوجته حواء المؤمن وكل سكنة هذا البيت.

لم يكن مهتماً بأن زوجته حامل بل تمنى أن يستطيع الطلب منها بأن تجهضه، بل إنه أخذ يتجنبها من اليوم الذي عرف فيه بذلك. ولم تكن زوجته هي التي أخبرته بذلك وإنما من خلال مساعدات الطبيبة الإيرانية فخلال هذين الشهرين رافقها لمراجعة الطبيبة، وأثناء تواجد زوجته في غرفة الطبيبة وبمحض الصدفة، حيث كانت العيادة فارغة، وكان يجلس بالقرب من الاستعلامات، وبينما كانت المساعدة تنظم المكان وتحمل المجلات القديمة وتضع مجلات جديدة والتفت له بمرح قائلة وهي تبسّم سائلة كيف استقبل خبر حمل زوجته؟ وأن عليه أن لا يزعجها فالحوامل يكن في هذه الفترة مزاجيات. حينها ابتسم كالأبله ولم يقل شيئاً، لكن كلام المساعدة كان كضربة قوية على الرأس. انتابه الفضول فسأل المساعدة بلغة ألمانية ركيكة لكنها مفهومة بالنسبة لها:

– كم مضى على الحمل؟ أقصد كم عمر الجنين؟

فأجابته الممرضة المساعدة بنفس المرح:

– خمسة أسابيع تقريبا

كانت الإجابة أقوى من الخبر السابق بحملها، لأنه كان يعرف أنه في الشهر الأول السابق أي عند حدوث الحمل لم يقترب هو منها ولا خلال الأسابيع التالية أثناء سفرهم إلى تسيلندورف.

وظل الدكتور آدم التائه منتظرا أن تخبره زوجته بحالها إلا أنها لم تخبره بأنها حامل وهذا ما زاد من شكه، إذ كيف لها أن تصمت عن حدث مهم مثل هذا لولا أنها متأكدة بإقترافها خطيئة كبيرة وأن هذا الجنين جاء في فترة تباعد وعدم وصال بينهما.

الغريب لم يبد على حواء المؤمن أية عوارض حمل استثنائية، بل لم يبد على جسدها أية تغيرات واضحة للعيان. صحيح أن مزاجها متقلب، فتراها خلال الساعة الواحدة تتقلب ما بين الحزن والفرح والوجد الديني والشروذ الذهني، لكن ما كان يعذبها هو أن زوجها هجرها، إذ أنه خلال ما يقارب الثلاثة أشهر لم يقترب منها سوى مرة واحدة، وكان ذلك بعد عودتهم من سفرتهم قبل شهرين، وكان قبلها بأكثر من شهر لم يقترب منها، وكانت حينها قد عرفت أنها حامل عند زيارتها الأولى للطبيبة بعد رجوعهما من سفرتهم إلى المحكمة، إذ كان ذلك في تلك الليلة التي عادت من الطيبة ودخلت إلى شقة آدم اللبناني لتخبره بحملها منه، في تلك الليلة، عاد الدكتور آدم التائه متأخرا، وكانت هي في السرير وحاولت أن تصنع النوم، لكنه كان شملا قليلا، فأحست به من طريقة إرتمائه على السرير وعدم إهتمامه كونها نائمة أم صاحبة، لأنه أخذ يمد يديه في أنحاء جسدها، ويشيرها بشكل ذكي، ثم خلعه لثوبها عنها وتقبيله لجسدها من مختلف الأماكن حيث وجدت نفسها مشتعلة، وحركته الثملة والعنيفة والمستعجلة في خلع ملابسه ليدخل فيها بعنف ويتمم: يا فاكهتي، يا فاكهتي.. ولم تكن حواء المؤمن تدرك أنه في تلك اللحظات كان يتصور حواء فكهاني التي قابلها اليوم في العيادة هي التي بين يديه.

بعد ذلك انقطع عنها، بل إنه تغير بالكامل بعد زيارتهما الثانية للطبيبة

الايرائية، فهو صار يتجنبها بشكل حقيقي ولا يتحدث معها، بل إنه ينظر إليها وفي عينيه أسئلة واتهامات وحزن واحتقار وغضب ويأس.

هل هو يدري بحملها؟ لا، كيف له ذلك وهو لم يقابل الطبيبة الايرانية، لكن لماذا صار يتجنبها بل ولا يرغب فيها؟ لماذا صار لا يخبرها بسبب خروجه أو إلى أين يذهب؟ هل إنتبه لعلاقتها بجارهم آدم اللبناني؟ فكرت حواء المؤمن أن تفتحه بالطلاق؟ لكن مجرد التفكير في ذلك يصيبها بالرعب. لم تجد أي تبرير كي تطلب الطلاق منه إلا أن تعترف له بأنها زانية وأنها خاتمه وأنها حامل من جارهم اللبناني.

إنها تعترف بأنه كان طيبا معها، لم يسيء لها، ولم يبخل عليها، صحيح أن بينهما هوة فكرية وثقافية، لكنه كان يشاركها بعض الأمور المهمة بالنسبة له، فقد كان يسألها عن أبطال روايته مثلا. لكنه صامت معظم الوقت، في أعماقه حزن لا ينتهي، وهو تائه فعلا مثل لقبه، لا يستقر على حال، الشك مثل دودة تقضم تفاحة قلبه، الشك، الشك، الشك، هذا ما يربعها فيه، فهو يشك في كل شيء.

لا، لا، أنها لا تستطيع أن تطلب الطلاق منه، صحيح أنها حينما أخبرت آدم اللبناني بحملها منه وأنها أقنعتة بأنها لا تريد لابنها أن يتربى ليس عند أبيه الحقيقي، وانها لا تريد ابن زنا، لذا فأنها ستطلب الطلاق من زوجها، وتتزوج منه، وحينها اقتنع هو بما قالت وظل ينتظر، بل إنه في الشهر الأخير صار يلح عليها بطلب الطلاق، لكنها لا تستطيع، ما العمل إذن؟ ليس أمامها سوى الفرار مع آدم اللبناني، نعم ليس أمامها سوى الفرار، لكن إلى أين؟

الفصل السابع عشر

بصقة النهاية

إستيقظ الدكتور آدم التائه صباحا على رنين قوي لا ينقطع لجرس الباب انتبه إلى أن زوجته فتحت عينها مستيقظة أيضا. نهض مسرعا وهو يقول لها:

– أعتقد انه ساعي البريد

فقالت بهدوء ممزوج بتوجس من شيء مخيف على عادة العراقيين:

– يا ساتر يا ربي

لملم الدكتور نفسه ولبس بنطاله بسرعة وخرج هابطا السلم بسرعة واضحة فقد كان وكأنما ينتظر بريدا يصله.

نهضت حواء المؤمن وخرجت إلى المطبخ لتعد الفطور فأشعلت الطباخ واخرجت عدة الشاي، بينما كان ضجيج أقدام زوجها وهو يصعد السلم يصل إليها صاخبة. وفجأة وجدته يقفز فرحا داخل الشقة وهو في حالة نشوة تطفح من عينيه ومن مفاصله وهو يمسك بيده رسالة قد وصلته وقلبت كيانه بهذا الشكل.

نظر إليها ووجهه يفيض فرحا:

– وأخيرا سنسافر إلى الخليج يا حواء. لقد حددوا لي موعدا للمقابلة

للعمل كأستاذ جامعي

لم تستوعب حواء المؤمن الجملة بالكامل أول ما سمعتها لكنها أحست وكأن كارثة ستحل عليها. أحست بشيء من الدوار يلف رأسها فامسكت بالحوض الصفيحي.

انتبه هو لها فسألها:

- ما بك؟

- لا شيء..

- لا شيء؟

- لا شيء

لم يعرها اهتماما كبيرا، فقال وهو يتجه للحمام:

- عليّ الذهاب إلى المكاتب السياحية والسؤال عن تفاصيل الرحلات إلى دول الخليج

لم تجبه وانما استمرت لإعداد الفطور فأخرجت الجبن والزيتون والخبز التركي من الثلاجة، ووضعت الخبز في فرن التسخين الكهربائي. فكرت بأن عليها أن تتخذ موقفا سريعا فهي لا تستطيع الذهاب معه إلى الخليج، أنها تريد أن تكون مع آدم اللبناني الذي وعدها بالزواج إذا طلقها زوجها، رغم أنه قال لها إنها أمام الألمان بحكم غير المتزوجين لأنهما لم يتزوجا زواجا مدنيا وفق القانون الألماني أو حتى وفق القانون العراقي، وبالتالي فيمكنهما الزواج في مكان آخر لو أرادا ذلك. عليها أن تراه حال أن يخرج زوجها وعليهما أن يقررا مستقبل علاقتهما بشكل حاسم.

لا يعرف الدكتور آدم التائه من أين جاءه الإحساس بأن زوجته لم تفرح للخبر وأنها لا تريد مغادرة ألمانيا، وتأكد من إحساسه هذا حينما وضعت صينية الفطور أمامه وغادرت الغرفة، وحينما دعاها للفطور معه إعتذرت منه بأن معدتها تؤلمها وأنها ستفطر بعد أن يخرج.

دفع الأحلام والأفكار التي تمخضت عنها هذه الرسالة التي وصلته من إدارة الجامعة الخليجية لم تترك له الوقت الكافي للتفكير والتأمل في وضع زوجته، فأسرع في فطوره وخرج.

مثلما حملت الرسالة التي وصلت الأحلام والفرح للدكتور آدم التائه

فانها كانت كابوسا حقيقيا بالنسبة لزوجته، فما أن خرج وتأكدت من أنه صار في الشارع حتى خرجت من شقتها وطرقت الباب على آدم اللبناني الذي فتح لها الباب وهو شبه عار إلا من سرواله الداخلي فدفقت داخله وأغلقا الباب.

حينما جاء ساعي البريد صباحا وهبط الدكتور آدم التائه السلم مسرعا لاستلام بريده لاحظ أن السماء بدت مثل جدار سميك من غيوم سود وبيض كثيفة، لكن لم يرد في ذهنه قط أن السماء ستنتشق عن برق ورعد وشلالات من المياه التي ستعطل الحياة في المدينة لساعات. فما أن خرج من البيت بعد الفطور ولم يصل بعد منتصف الطريق إلى المكتب السفريات السياحية حتى أهتزت المدينة بالرعد والبرق الذي شق قشرة السماء التي بدت للدكتور آدم الذي نظر إلى السماء عند لحظة ولادة البرق وكأن الأرض وما عليها ليست إلا بيضة كبيرة، فما وراء الشق الذي أحدثه البرق أحس بأن هناك عوالم هائلة وليست سماءنا إلا السقف الداخلي لقشرة البيضة الكبيرة. وكانت السماء تهطل بالمطر مدرارا وكأن شلالات علوية بدأت تنهمر على المدينة الصغيرة.

فكر الدكتور آدم التائه بأنه يجب أن يذهب إلى المكتب السياحي وعليه إنجاز الأمر بأسرع وقت ممكن، لاسيما وان وضعه الاقتصادي بشكل عام ليس بالسيء، فلديه مبلغ البطاقة ومبلغ إضافي آخر للإقامة لفترة ما هناك. لكنه انتبه بأن المسافة المتبقية إلى المكتب السياحي تكاد تكون عارية من أي غطاء أو سقوف فالمكتب يقع في شارع بيوته تصطف بشكل متسلسل وبالتالي عليه العودة إلى البيت واخذ المظلة لاسيما وان نصف المسافة المتبقية ما بينه وبين البيت تكاد تكون مجموعة من المطاعم الصغيرة والمحلات المتوسطة الحجم التي تمد مظلات على الرصيف، ورغم ذلك فقد ابتلت ثيابه وشعره.

حينما وصل الدكتور آدم التائه إلى البيت لم يشأ أن يصعد السلم

مسرعا، بل راودته فكرة أن يعرف ماذا تفعل زوجته بغيابه.
بينما كانت إحدى يدي الدكتور آدم التائه تفتش في جيب سترته
عن المفتاح كانت يده الأخرى تمسك بمقبض الباب، وبحركة لا إرادية
دفع الباب فوجده مفتوحا. إستغرب، لكنه دخل الشقة، وقف عند الباحة
الصغيرة، نظر إلى غرفة الاستقبال المقابلة فعرف أنها فارغة، دخل المطبخ
ومنه إلى غرف النوم فوجدها فارغة أيضا.

أين هي؟

خرج من غرفة النوم واتجه إلى الحمام فلم يجدها. وقف للحظات،
أحس بتدفق الدم يصعد إلى رأسه، وبضغط قوي على صدغه، وبدون
تفكير خرج من الدار غاضبا لكنه وقف أمام جارهم آدم اللبناني، ولا
يعرف من أين هبط عليه الهدوء المفاجيء، وكأنما سكبوا عليه سطلا
من الماء المثلج.

إقترب من الباب وأخذ يتنصت. سمع أصوات لهاث جنسي، وسمع
صوت زوجته تقول وهي تلهث:

– أدخله كله، أدخله كله، أرجوك؟

وسمع صوت جارهم يقول وهو يلهث:

– كله فيك..

– لا تترك منه شيئا.. لا تترك منه شيئا. أرجوك.. أصير عبدتك بس

ريحني..

لم يتمالك الدكتور آدم التائه نفسه، ولم يستطع أن يفكر، وفجأة،
أفتح الباب بكل قوته فأنتفتح. لم يستطع أن ينسى ذلك المشهد. كانت
حواء بثيابها وحجابها على الرأس متربعة بإنحاء على الأريكة وقد رفعت
ثوبها كاشفة عن مؤخرتها عارية وسروالها الداخلي عند أحد قدميها
بينما يتربع آدم اللبناني بسرواله المنزوع حتى ركبتيه وهو يدفعه فيها
من الخلف بينما هي تمد يديها إلى الوراء ماسكة بفخذيته وهي تتوسل
أن يدخله فيها بقوة.

جمد كلاهما، حتى أن آدم اللبباني لم يستطع أن يغير من وضعه مع
حواء المؤمن التي سحبت يدها من فخذي آدم اللبباني ومسكت حجابها
لتغطي به وجهها.

لم يفعل الدكتور آدم التائه شيئاً، أحس بأن جسده قد تيبس، لحظات
قليلة كانت أقسى من سنين. تقدم بهدوء شديد وأقرب منها، نظر إليها
للحظات بينما أخذت تنزل ثوبها لتغطي عريها دون أن تتجرأ للنظر إليه،
لم يفعل شيئاً سوى أنه بصق عليها، وأطلق كلمات الطلاق الثلاث في
وجهها، وخرج، بينما تعالى خلفه نحيب حواء المؤمن العالي وهي تعيد
ترتيب حجابها.

الخاصة

آدم البغدادي: لم أشأ أن انهي علاقة الدكتور آدم التائه وزوجته حواء المؤمن بهذه الطريقة المخزية، لكنني كنتُ مدفوعا بشكل لا إرادي إلى أن تجري الأحداث هكذا، لماذا وكيف؟ لا أعرف هذا حقا.

وبالرغم من أنه أباح تجنبت أن يكون هذا النص خطابا جنسيا لأسباب تتعلق بواقع الحياة الشرقية اليوم وأفق الحريات الفكرية، لتوقعي بأنه هذه الرواية ستواجه سوء فهم كبير، إلا أنني انتبهت لمدى تراجع الحرية الفكرية في بلدان الشرق اليوم، لأنني وجدت أن أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هجرية)، الذي يُعد أول من ألف كتابا ورسائل في الجنسانيات مثل كتبه: (في النساء) و(مفاخرة الجوارى والغلمان) بل وحتى التتف التي جاءت في كتابيه (الحيوان) و(البيان والتبيين)، حيث أتخذ موقف اعتزاليا في أن الشريعة هي التي تنظم العلاقة بين الإنسان وشهوته، وبالرغم من أنه أباح المتعة بين الذكور والأنث دون قيد مؤكدا القول بالتحسين والتقيح العقلين.

وإذا كان الجاحظ قد فتح الباب أمام الآخرين للكتابة عن النساء والجنس، فقد خصص ابن قتيبة الدينوري (ت 276 هجرية) المجلد الرابع من كتابه الشهير (عيون الأخبار) للنساء ووضع له عنوانا هو (النساء: أخلاقهن وخلقهن وما يُختار منهن وما يُكره).

وكذلك كتب أبو الفضل ابن طيفور (ت 280 هجرية) كتابا خاصا عنوانه (بلاغات النساء). وكذا يمكن ذكر أشهر الكتب التراثية (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني (ت 356 هجرية) الذي يُعد من أبرز الكتب التي تناولت الأخبار الجنسية عبر التاريخ العربي الإسلامي إلى عصره.

ونجد مثل هذا الخطاب الجنسي عند ابن عبد ربه الأندلسي (ت 328 هجرية)، وبيدع الزمان الهمداني (ت 389 هجرية)، وكذا كتب أبي حيان التوحيدي (ت 414 هجرية) لاسيما (الإمتاع والمؤانسة) و(البصائر والذخائر).

بل هناك علماء تقاة فسروا القرآن الكريم وفي نفس الوقت كتبوا مؤلفات في الجنس والجنسانية التي صارت من النصوص المهمة في خطاب الجنس مثل كتب جلال الدين السيوطي لاسيما في كتابيه (الوشاح في فوائد النكاح) و(مباسم الملاح ومباسم الصباح في مواسم النكاح). وكذا الأمر عند ابن قيم الجوزية (ت 751 هجرية) في كتابه الشهير (أخبار النساء)، وابن كمال باشا (ت 940 هجرية) في كتابه (رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه). بل هناك عشرات الكتب التراثية حول (الباه) وحول الأوضاع الجنسية، بل ولدينا الكتاب العربي الاسلامي الخالد (الف ليلة وليلة) المليء بالحكايا الجنسية.

ولا أريد أن أقدم جردا للكتب التي شكلت الخطاب الجنسي في التراث العربي، وانما أوردتها لأقنع نفسي بأنني لم أفترف خطأ أو خطيئة عندما توغلت في أعماق الشخصيات لأضعها أمام رغباتها الحقيقية الدفينة، فمن خلال الجنس نستطيع أن نتلمس آلية السلطة وإشارات المعرفة.

لكنني، وأعترف هنا، كنت متردداً في التوغل أكثر، فثمة هاجس يدفعني لإنهاء هذه الرواية بأي شكل.

لا أدري، ربما خوفاً ينعكس على عملي الإبداعي، وإلا لماذا إختزلت أحداث الشهرين الأخيرين بسرد تقريرتي؟

عليّ الانتهاء من هذه الرواية بأي شكل لأنها صارت تشكل خطراً عليّ، لكن لماذا استمر في الكتابة إذن لو كانت كذلك؟ أنا نفسي لا أعرف لماذا استمر في كتابتها؟ إنها متاهة لا نهاية لها. أبناء وبنات آدم يتناسلون في هذه المتاهة. ولا أجد أفقا للنهاية.

سبات آدم.. يقظة آدم

طوى آدم البغدادي آخر صفحة كان قد دون عليها ملاحظاته وتعليقاته على النص الروائي الذي كتبه والذي أطلق عليه عنوان (مناهة آدم) مستغنيا عن العنوان السابق الذي وضعه لها وهو (السقوط إلى الأعلى). استرخى على كرسيه.

تأمل زاوية سقف الغرفة، وجد ثمة ذبابة عالقة في خيوط قد نسجها عنكبوت وهي تحاول أن تخلص نفسها لكن بدون جدوى، فهي عالقة هناك ولا تستطيع الفكاك. ظل لفترة ربع ساعة وهو يحرق في تلك الزاوية منتظرا خلاص الذبابة، لكن دون جدوى، ولم يقطع تأمله وتحديقه سوى طرقات على الباب.

لم يكن آدم البغدادي ينتظر أحدا، وهو بشكل عام يلتقي أصدقاءه من الأدباء والفنانين في مقهى قريب، لذا استغرب الأمر، فنهض عن كرسيه وأتجه ليفتح الباب.

فتح الباب. أطل عليه وجه يعرفه، يراه أحيانا في المقهى الذي يرتاده، لكن لا تربطه به علاقة وطيدة، لذلك استغرب وسأل نفسه: لماذا جاء؟
بادره الشخص الذي طرق الباب قائلا وعلى وجهه ابتسامة بريئة:

– تحياتي أستاذ آدم البغدادي

بادره آدم البغدادي بهدوء مستغربا لكن بأدب:

– أهلا وسهلا

– ممكن أتحدث معك في موضوع مهم

– ولكن ممكن أعرف مع من أتحدث؟

– عفوا... لم أقدم نفسي.. أنا آدم العراقي

- آدم العراقي؟

- نعم.. أنت آدم البغدادي... وأنا آدم العراقي، والحقيقة هناك

موضوع مهم أود أن أكاشفك به

نظر إليه آدم البغدادي بتساؤل وقال:

- موضوع مهم.. خيرا إن شاء الله

فابتسم الشخص الآخر وقال ببراءة وبمودة:

- هل أبقى على الباب أم تسمح لي بالدخول لأشرح الموضوع؟

صمت آدم البغدادي للحظات وفكر مع نفسه بأن الشخص الذي

اسمه آدم العراقي يبدو من ملامحه لا يحمل شرا، ليستمع إليه، لذا فتح

الباب فدخل له، فبادره آدم البغدادي قائلا بترحاب بارد:

- تفضل

رد الشخص الغريب الذي اسمه آدم العراقي بجمل الترحاب البغدادية

التقليدية:

- شكراً استاذ آدم

ولكي يكمل آدم البغدادي أصول الضيافة سأل:

- ماذا تفضل أن تشرب، شايا أم قهوة أم عصير فواكه؟

- عصير فواكه إذا ممكن

إتجه آدم البغدادي إلى المطبخ، فتح الثلاجة وأخرج الدورق

الزجاجي الذي كان فيه بعض عصير البرتقال، وهم بسكبه في القدح

الذي كان أمامه، فجأة، أحس بوخزة في مؤخرة رأسه، وخزة صغيرة

لكنها مؤلمة لم تستمر سوى ثوان، أحس بالظلام، وبخفة هائلة.

كان الشخص الغريب الذي اسمه آدم العراقي خلفه تماما في المطبخ

وفي يده مسدسا كاتماً للصوت. إنهار آدم البغدادي على وجهه، وسقط

الدورق الزجاجي متعثما على الأرض، وتدفق الدم على الأرض مشكلا

بقعة صغيرة عند الرأس، حيث تجمد بعد لحظات.

كان القتال الغريب الذي اسمه آدم العراقي شاحبا. ثمة ابتسامة صفراء

على وجهه. وضع المسدس في حزامه خلف ظهره وخرج من المطبخ إلى الغرفة. مسح الغرفة بنظرتة، رفع رأسه إلى الأعلى، إلى الزاوية في السقف، لاحظ الذبابة وهي تحاول الخلاص بينما قبض العنكبوت عليها. ابتسم، وخرج دون أن يغلق الباب، بينما ظل آدم البغدادي ملقى على أرضية المطبخ مستغرقاً في سباته الأبدي.

20 /9 /2011

بغداد - برلين - دبي - بيروت